المقدم الهيثم الايوبي

دراسات في حرب تشرين



دار الحقيقة - بيروت

المقدّم الهيثم الأيوبي

دراسات عسكريّة في حرب تشرين

دار الحقيقة - بيروت

الطبعة الأولى
بيروت – ١٩٧٥

تقديم

تتمتع الحرب في العصر الحاضر بصفة الشمول، فهي تؤثر على كل مواطن ، وتدخل كل خلية من خلايا المجتمع ، وتتطلب تعبئة كل الطاقات المادية والمعنوية الكامنة لدى الشعوب المتصارعة . وتبلغ التعبئة أعلى درجاتها في لحظة ذروة الصراع (الحرب) ، عندما يأخذ كل إنسان موقعه ، ويعمل من هذا الموقع بكل طاقاته ، وتصب الجهود الفردية والجماعية في تيار واحد ، وتسير نحو هدف واضح المعالم والأبعاد ، تحت راية قيادة واعية تعرف ما تريد ، وتعي السبيل الذي يوصلها إلى غاياتها المنشودة، وترسم الخطط العملية اللازمة لذلك، مستندة إلى حسابات موازين القوى العالمية والمحلية .

ولقد كانت الأمة العربية في صراعها الطويل مع اسرائيل تعبىء جزءاً من طاقاتها البشرية والروحية والاقتصادية ، ضد عدو اسبارطي ، استطاعت العقيدة الصهيونية أن تعبىء كل طاقاته وتزجها في المعركة ، مستغلة الخوف العضوي الكامن في أعماق المجتمع الاسرائيلي ، وعقد نقصه التي تشابكت مع عقد العظمة لتخلق حالة ذهنية ونفسية معقدة قلبت سكان اسرائيل ، المولودين على الأرض المغتصبة أو القادمين إليها ، الى مجتمع سيكوباتي يتسم بكل مساوىء المجتمع الألماني في ظل النازية ، دون أن يكون لديه مزايا المجتمع الالماني وفروسيته وحضارته .

ومع تصاعد الخطر الصهيوني على الأمة العربية تصاعد إحساس هذه الأمة بالخطر ، ونما وعيها بضرورة تعبئة قواها وتوحيد جهودها لصده . وانتقل ردها على الغزوة الصليبية الجديدة ، مع الزمن ، من العفوية إلى التنظيم ، ومن

الانفعال إلى الفعل ، ومن امتلاك القوة الكامنة إلى الوعي بهذه القوة والاعداد لاستخدامها. وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك كله على تعبئة القوى بمفهومها العام ، واستخدامها في حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ومن المؤكد أن التعبئة والحشد وزج القوى (كل القوى) لم تصل في المعسكر العربي ، حتى في حرب تشرين الأول (اكتوبر) ، إلى الذروة المنشودة . ولكن من المؤكد أيضاً أنهـــا تمت بشكل أفضل مما تمت به في المجابهات العربية – الاسرائيلية السابقة . فلقد تلاحمت الجبهة مع المؤخرة خلالها بشكل متين ، واستخدمت فيهـــا أسلحة متنوعة اقتصادية وسياسية وعسكرية واعلامية . وكما كانت الجبهة ديناميكية حية فعالة واعية ، كانت الجماهير العربية في المؤخرة –وخاصة في دول المجابهة– واعية منظمة متأهبة، ومستعدة للاشتراك والتضحية في معركة المصير. ولم تتابع هذه الجماهير المعركة بسلبية من خلال الاذاعات، ولكنها شاركت فيها بإيجابية نسبية في المصانع، والمزارع ، والمكاتب ، ومؤسسات البحث العلمي . وكان ارتفاع معنوياتها ، وانضباطها اليومي ، واستمرار انتاجها ، رغم قصف العدو للأهداف المدنية في العمق اكبر دعم للقوات المسلحة المشتبكة على خط النار .

ولقد شاءت الظروف أن أكون خلال هـــذه الحرب في مؤسسة للبحث العلمي هي « مركز الابحاث الفلسطيني » الذي كان خلال الحرب خلية بحث وإعلام فعّالة . فلقد عايش العاملون فيه الأحداث لحظة بلحظة ، وقاموا بالدراسات المباشرة ، وقدموا للانسان العربي في أيام القتال مادة إعلامية تناقلتها الصحف والمجلات ووكالات الأنباء ، ثم عكفوا بعد وقف القتال على دراسة الوقائع وتحليلها بغية الوصول إلى استنتاجات موضوعية ، تشكل جزءاً من دراسة الحرب الرابعة واستنباط دروسهـــا وآثارها على مختلف الأصعدة ، وتلقي الضوء على التبدلات التي أحدثتها أيام الحرب المجيدة على موازين القوى المحلية ، والوضع الاستراتيجي بأسره . ولقد أفدت من موقعي

كرئيس للقسم العسكري في هذه المؤسسة العلمية ، واطلعت على تفصيلات كثيرة لمـــا يجري على جانبي الخندق ، وقرأت ما يجول في خاطر قادة العدو السياسيين والعسكريين ، وقمت مع زملائي أعضاء القسم العسكري بتحليل يومي للاحداث ، ومناقشة ما يجري وما يمكن أن يجري على مسارح العمليات، واجراء مساجـــلات استراتيجية تعتمد على فهمهم العميق لموازين القوى ، ولعقلية قادة العدو وطبيعة تصرفاتهم أمام المواقف المتغيرة ، وتوصلت قبل الحرب وخلالها وبعدها إلى استنتاجات كتبت بعضها في منشورات مركز الأبحاث بنوعيها (العلني وذي الانتشار المحدود) ، كما كتبت البعض الآخر في عدد من المجلات العربية .

وليس هذا الكتاب الذي أقدمه للقارىء العربي ، سوى مجموعة دراسات نُشرت في خمس مجلات عربية في الفترة الواقعة بين تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ والشهر المماثل من العام ١٩٧٤ . ولقد ترددت كثيراً قبل جمع هذه الدراسات المنشورة سابقاً واصدارها في كتاب ، وكان وراء هذا التردد اكثر من عامل ، ولكن تشجيع زملائي وحماستهم للفكرة وعدم انتشار المجلات العربية بشكل متماثل في كافة الأقطار العربية، دفعتني إلى التخلي عن ترددي، والبدء باعداد المادة التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه . ولقد تمثل الإعداد في اختيارات موضوعات تتعلق بالحرب ، وبربطها خط متسلسل واحد ، وتصحيح بعض الارقام ، واضافة عدد من الهوامش والمعلومات وشطب عدة فقرات لتجنب التكرار الذي قـــد تتطلبه الدراسات المنفصلة المنشورة في فترات متباعدة ، ولا يستسيغه قارىء الكتاب . والدراسة الوحيدة التي توخيت ابقاءها كما نشرت قبل اكثر من عام ، هي الدراسة التي كانت عبارة عن توقعات مستقبلية مبنية على تحليل الموقف ، وموازين القوى المحليـــة والعالمية ، وتقييم ردود الفعل المحتملة في مقرات القيـــادة على جانبي الخندق .

ولا يمكن اعتبار هذا الكتاب تأريخاً للحرب أو وصفاً لأحداثها ولكنه بمجمله أضواء ملقاة على جوهر الصدام العربي – الاسرائيلي المسلح الرابع ، مع التعمق في دراسة بعض مظاهره ومفصلاته ومنعطفاتـــه الرئيسية ، كما فهمتها خلال الأحداث الدامية وبعدها ، والسعي لقراءة المستقبل من خلال حقائق الحاضر .

المؤلف

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٤

١

مصر تعبر القناة اذا هاجمت اسرائيل سورية

«كتب هذا المقال لمجلة الاسبوع العربي في ٤/١٠/١٩٧٤ ، ثم طبع في اليوم التـالي بعد تعديل مقدمته وكانت المجلة جاهزة للتوزيع يوم اندلاع القتال ، ولقد وزعت بالفعل في يوم ٧/١٠/١٩٧٤ (الاسبوع العربي، عدد ٧٤٨ ، ٨/١٠/١٩٧٤) ولقد آثرت نشره كما هو دون تعديل، ليعيد الى أذهان القراء الوضع العام المتوتر الذي سبق الحرب » .

مع الخيوط الأولى من فجر يوم الاثنين الماضي(١/١٠/١٩٧٤)بدأت القوات الاسرائيلية الثقيلة تنتشر بشكل مروحة على طول الحدود السورية–اللبنانية–الاسرائيلية من الناقورة على البحر المتوسط الى الهضبة المطلة على تقاطع الطرق الاردنية السورية ، مروراً بسفوح جبل الشيخ ومرتفعات الجولان . ومـا أن أخذت الدبابات والمدفعية الثقيلة الاسرائيلية مواقعهـــا داخل المروحة وعلى أطرافها حتى طلعت صحيفة « معاريف » مساء اليوم ذاتـه بعنوان مثير على صفحتها الأولى خلاصته أن « حالة التأهب قـــد أعلنت في المستوطنات الاسرائيلية في مرتفعات الجولان على أثر الحشود السورية في الأيام الأخيرة ، وأن توتراً شديداً يسود المنطقة » . وفهمت الدوائر الدبلوماسية العربيـــة والأجنبية فوراً مغزى خبر « معاريف » المعروفة بصلاتها الوثيقة بالأوساط العسكرية في تل ابيب . واستنتجت منه ان اسرائيل تهيىء لعدوان جديد كبير على سوريا ولبنان للتعويض عن ضربة « شيناو » الناجحة ، وخوفاً من

نتائجها العكسية المدمرة على مستقبل الحزب الحاكم في الانتخابات النيابية الاسرائيلية في الثلاثين من الشهر الحالي .

وانتقلت مبادرة تصعيد التوتر الى رجال الحرب الاسرائيليين . فأعلن دافيد اليعازر، رئيس الأركان، مساء الاثنين أيضاً في حفل انتخابي « أن خط سير الإرهاب (الفداء) يبدأ من بيروت وينتهي في طرابلس الغرب » . وتبعه دايان في صباح اليوم التالي، فأعلن في اذاعة الجيش الاسرائيلي « أن اسرائيل وحدهـا هي التي ستلاحق الفدائيين حيثما وجدوا » . ولاحظ سكان قرى الحدود يومي الاثنين والثلاثاء اختفاء الدوريات العسكرية الاسرائيلية عـن الطرق ، وامتناع المزارعين الصهيونيين عن الظهور في الحقول الحدودية للقيام بأعمالهم المعتادة من زراعة وقطاف، وتضاعف رحلات طائرات الاستكشاف العدوّة استعراض عضلاتها فوق الأراضي المحتلة .

ازاء ذلك التصعيد العسكري الاسرائيلي ، أعلنت القيادة المصرية – السورية الموحده حالة التأهب على طول جبهة القناة وعلى الحدود السورية – الاسرائيلية ، وأكدت النبأ وكالة انباء الشرق الأوسط . وفضح وزير الاعلام السوري الجديد جورج صدقني التحشدات الاسرائيلية العسكرية وما تخفيه وراءها من نية مبيتة للعدوان ، واكد أن سوريا مصممة على صد العدوان ورد الضربات الغادرة.وسارعت دوائر الاعلام الصهيوني لنفي اعتزام اسرائيل القيام بأي هجوم ، ولكنها امتنعت عن نفي اخبار الحشود العسكرية .

ورفع دافيد اليعازر لهجة التحدي والاستفزاز ، فاعلن مساء الخميس (١٩٧٤/١٠/٤) في مستعمرة راماتفان ، ان « ذراع اسرائيل الطويلة (أي فرقة المظليين) تستطيع الامتداد الى العمق والمؤخرة » وذلك بحضور رئيس الدولة بمناسبة الاحتفال السنوي بذكرى قتلى المظليين . وهـذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها رئيس الدولة الجديد كاتزير مثل هذا الاحتفال . ولقد القى هو أيضاً كلمة قصيرة اتهم فيها الدول العربية بحشد جيوشها على حدود اسرائيل وتهديد أمنهـا وسلامتها (!) . وبلغت التعبئة النفسية الاسرائيلية

ذروتهـا مساء الجمعة (١٩٧٤/١٠/٥) المصادف لعيد الغفران لدى اليهود إذ امتلأت صفحات الصحف الاسرائيلية وتعليقات الاذاعة والتلفزيون بأنبـاء الحشود العربية على الحدود الاسرائيلية ، وذكرت بعض الدوائر الاجنبية في تل – ابيب معلومات عـن استدعاء الاحتياطيين العسكريين الاسرائيليين وارسالهم الى جبهة الجولان . ولقد اتمت اسرائيل وضع اللمسات الاخيرة للعدوان المرتقب ، ولم يبقَ سوى تحديد ساعة الصفر . فهل يحصل في ساعة، في يوم ، في شهر ؟.

يمكن وصف الحالة في المستعمرات القريبة من الحدود اللبنانية بانها حالة هدوء يسبق العاصفة . ففي يوم الاربعاء الماضي رصدت قوات الجيش اللبناني ودوريات استطلاعية تابعة للمقاومة الفلسطينية تحركات غير عادية للقوات الاسرائيليـة ، وذلك على امتداد الحدود المحاذية لقرى مزرعيت ورامية ومروحين ، واستمرت الدوريات الاسرائيلية في تحركاتها منذ الساعة الخامسة والنصف صباحاً وحتى السادسة والنصف .

أما عن الحشود العسكرية فإن الاسرائيليين يكثفونها في المستعمرات القريبة من الحدود اللبنانية حيث تتجمع آلياتهم في أماكن خفية ، ولا تظهر أحيانـاً إلا دوريات الاستطلاع . وقد أكدت مصادر الثورة الفلسطينية في الجنوب أن الحشود الاسرائيلية العسكرية تمتد على مسافة عشرة كيلو مترات من القطاع الغربي الى القطاع الأوسط . وكانت الطائرات الاسرائيلية قـد اخترقت في مطلع الاسبوع الماضي جدار الصوت بعد أن حلقت على علو شاهق في المنطقة الحدودية كما كانت القنابل المضيئة تنير الشاطىء اللبنـاني المحاذي لمدينة صور .

ومن ناحيـة أخرى تقول معلومات الثورة أن الزوارق الاسرائيلية التي كانت تتسلل الى شاطىء صور باستمرار لم تعـد تظهر إلا نادراً في الفترة الأخيرة . وكذلك الأمر بالنسبة الى الطيران . أما في الأرض المحتلة المقـابلة لقرية يارون الحدودية اللبنانية فقد لوحظ أن العدو أزال نقطة دورية ثابتة في منطقة الحدب مقابل مستعمرة رأس الأحمر . ولم تُشاهَد الحشود العسكرية

الاسرائيلية بالعين المجردة، إنما كان يُسمع في الليل أصوات الآليات المتحركة. ولوحظ أيضاً أن قوات البوليس الدولي التابعة للأمم المتحدة كانت في الأسبوع الماضي بحالة « استنفار » مستمرة لمراقبة الوضع وإعطاء التقارير .

إن اسرائيل تحاول في الأيام الأخيرة استغلال موقف التفاهم بين العملاقين العالميَين ، وجو الحذر الذي يشوب العلاقات العربية – السوفياتية ، لتسديد ضربة عسكرية إجهاضية على حدودها الشمالية . وتدل الحشود العسكرية الاسرائيلية مقابل الحدود السورية، والتي كشف النقاب عنها رسمياً جورج صدقني وزير الإعلام السوري في لقائه مع الصحافيين البلغاريين في يوم الخميس الماضي (٧٣/١٠/٤) أن التوتر سيتزايد في المنطقة بشكل ملحوظ ينذر باندلاع مجابهة محدودة لا يبدو أن اسرائيل قد قررت تصعيدها الى مستوى المجابهة الشاملة مع العرب ، طالما انها لم تعلن التعبئة العامة الضرورية لمثل هذه المجابهة .

وسواء اكتفت تل ابيب بضربة محدودة أم وسَّعت نطاق عملياتها «للقيام بمغامرة عسكرية واسعة جديدة ضد سورية وبعض الأقطار العربية »[١] فإن المجابهة ستكون مرحلة ساخنة جديدة من مراحل صراع الارادات الذي لن ينتهي إلا بخضوع أحد الطرفين المتنازعين ، والقبول بتقديم تنازلات سياسية كانت تعتبر الى وقت قريب مستحيلة أو غير مقبولة .

وتستهدف الضربة الاسرائيلية المتوقعة تحقيق مجموعة أغراض تخدم هدفها الاستراتيجي المزدوج (الأمن والتوسع) ، وتجيِّر لخدمة استراتيجيتها السياسية خلال حوار الارادات المكشوف والخفي لإركاع العرب وإجبارهم على الاستسلام الذي سيخلق مناخاً جديداً يقلب « الوضع الراهن القائم » الى « وضع راهن معترَف به » . وتتمثل أغراض الضربة بما يلي :

١ – منع قيام الجبهة الشرقية عن طريق تدمير القوات المسلحة في الجبهة الشمالية ، وردع الأردن عن الدخول في أية تحالفات عربية عسكرية تعرّضه لضربات مماثلة .

(١) الثورة السورية ، ١٩٧٤/١٠/٤ .

٢ – قطع الاتصال الجغرافي بين الجبهة الشمالية ومواقع تحشدات القوى لأية جبهة شرقية مقبلة .

٣ – خلق التناقض بين سورية والاتحاد السوفياتي ، وإعطاء معارضي الوجود السوفياتي مبررات لإخراج الخبراء السوفيات من المنطقة ، والتوجه في مجال التسليح نحو مصادر أخرى، اذا استطاع التفوق العسكري الاسرائيلي إبراز سلبيات هذا السلاح وإخفاء ايجابياته .

٤ – خلق التناقض بين القاهرة ودمشق اذا استطاعت القوات الاسرائيلية إنهاء المعركة مع سورية قبل أن تستطيع القوات المصرية عبور قناة السويس والمشاركة في القتال بفاعلية .

٥ – قطع الطريق أمام أي تقارب عسكري عراقي– سوري يسمح بنقل القوات العراقية من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي، ويحرم العرب من إمكانات العراق العسكرية المتزايدة .

٦ – حرمان الثورة الفلسطينية من قواعدها التدريبية والتسجيلية والتموينية في جنوب سورية ، ومنع سورية من تقديم الأسلحة والمساعدات لقوات الثورة بشكل يوقف العمليات الفدائية ضد الوجود الاسرائيلي في الجولان ، ويقطع « طريق عرفات » [١] ، ويضع قوات الثورة الفلسطينية المتمركزة في لبنان في وضع يائس ينتهي الى التصفية المعنوية حتى بدون تصفية جسدية .

ويعني تحقيق هذه الاغراض حرمان سورية من دورها الطليعي المتشدد . وتخفيف حدة تصلبها ، وادخالها نهائياً في مجموعة الدول العربية القانعة بالحل السلمي الاميركي المبني على التنازلات بدلاً من الحل السلمي السوفياتي المبني على تقوية الموقف العسكري العربي بغية إعادة الوضع الى ما كان عليه في ٤ حزيران

(١) يطلق الاعلام الغربي اسم « طريق عرفات » على الطريق الواصلة بين سورية و « أرض فتح » Fath Land (منطقة العرقوب) .

(يونيو) ١٩٦٧ ، بدون تنازلات . كما انه يعني ضرب الحركات الراديكالية العربية بشكل حاسم ، وتقليص الوجود السوفياتي في شرق البحر الابيض المتوسط ، وتضييق حلقة الحصار على نفوذه المتزايد في منطقة الخليج العربي ، وربط أي حل مقبل بمساعي الدول البترولية وضغوطها السياسية ـ البترولية ـ النقدية على واشنطن للوصول الى ضغط اميركي يضمن انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ مقابل حد « معقول » من التنازلات العربية والضمانات الدولية ، مع التنازل عن كل الحق الفلسطيني مقابل استعادة جزء من الاراضي العربية .

واذا كانت هذه هي اغراض الخطة الامبريالية ـ الاسرائيلية فان الاداة المعدة لتنفيذها تتمثل في القوات المسلحة الاسرائيلية التي تضم ٣٠ الف كادر و٨٥ الف جندي (يرتفع عددهم الى ٢٧٥ الف رجل في حالة التعبئة العامة)، و١٧٠٠ دبابة متوسطة، و٤٣٢ طائرة قتال أهمها ٩٥ طائرة «فانتوم F 4 E » المقاتلة القاذفة المعترضة ، ١٦٥ طائرة هجوم ارضي « سكايهوك A 4 E H » .

ويقف على الطرف الآخر من الخندق الجيشان المصري والسوري ، ويضم الاول ٢٩٨ الف رجل (بدون تعبئة عامة) ، و ١٨٥٠ دبابة متوسطة ، و ٦٢٥ طائرة قتال (٢٠٠ في المخازن) أهم ما فيها ٢٥ قاذفة متوسطة « T U 16 » و ٢١٠ طائرات معترضة « ميغ ـ ٢١ » و ٨٠ طائرة هجوم أرضي «سوخوي ـ ٧ S U 7 »، و١٠٠ طائرة هجوم أرضي «ميغ ـ ١٧». على حين يضم الثاني ١٠٠ الف رجل (قبل التعبئة) و١١٤٠ دبابة متوسطة و٢٠٠ طائرة معترضة « ميغ ـ ٢١ » و ٣٠ طائرة هجوم أرضي « سوخوي ـ ٧ S U 7 » ، و ٨٠ طائرة هجوم أرضي « ميغ ـ ١٧ » وعدد من القاذفات الخفيفة « I L 28 » .

وبالرغم من وجود جيوش عربية أخرى ، فان من غير المحتمل اشتراكها في معارك الأيام الأولى . اما الطيران الليبي (٦٠ ميراج فرنسية ، ٤٠ طائرة منها قادرة على دخول المعركة) فان التحديدات الفرنسية ووجود الطائرات

الليبية في مطارات ليبيا ، والزمن اللازم لنقل هذه الطائرات ومعدات التوجيه والادارة والتسليح الارضية الى المطارات المصرية ستعرقل اشتراكها في معارك الأيام الأولى . مع أن بوسعها ان تقدم للقوات المصرية الجوية دعماً نارياً لا يستهان به إذا طال أمد القتال ، وتمكنت الدبلوماسية الليبية من تجاوز شروط الحظر الفرنسية .

ويدلنا العرض السريع للقوات المتجابهة ان القوات العربية التي ستشترك في المعركة المحتملة في حالة وقوع العدوان هي : الجيشان المصري والسوري ، وقوات الثورة الفلسطينية النظامية (قوات القادسية وحطين وعين جالوت واليرموك) وغير النظامية (قوات المنظمات) . وهذا يعني أن على اسرائيل أن تقاتل على جبهتين شمالية وجنوبية ، وستعمد خلال قتالها إلى تطبيق المناورة على « الخطوط الداخلية » ، تلك المناورة التي يجبرها عليها وضعها الجغرافي .

وتضطر الدول التي تقاتل على « خطوط داخلية » امام خصوم يقاتلونها على « خطوط خارجية » الى استخدام اسلوب يتلخص في الدفاع امام أحد الخصوم ، مع الاستناد الى مانع طبيعي او موانع اصطناعية قوية ، ومجابهة الخصم الآخر وتحطيمه ، ثم حسم المعركة مع الخصم الاول ، شريطة ادارة العمليات بسرعة ومرونة وحسم المعركة الأولى بسرعة بغية الانفراد بالخصوم واحد تلو الآخر ، وتحقيق التفوق على كل واحد منهم على حدة . وقد يلجأ الجيش المقاتل على « الخطوط الداخلية » الى الدفاع أمام اضعف خصومه ومهاجمة الخصم الاقوى ، فما ان يحسم المعركة معه حتى يسقط الخصم الاضعف آلياً بعد هزيمة حليفه. وتشترط هذه الطريقة اقتناع قيادة الجيش الذي يطبقها بقدرته على الانتهاء من الخصم الاقوى بسرعة ، وقبل أن يتمكن الخصم الاضعف من خرق الدفاع ومهاجمته من الخلف واجباره على القتال على جبهة مقلوبة . ولقد طبقت اسرائيل هذا الأسلوب في عام ١٩٦٧ وكان لديها من الاسباب ما يجعلها واثقة من القدرة على حسم المعركة مع الجيش المصري في سيناء بسرعة بعد ضرب طيرانه . لذا اختارت البدء بضرب الاقوى والدفاع

أمام الاضعف ، وما أن انتهت المعركة على الجبهة المصرية حتى تحقق النصر الاستراتيجي على الجبهات الاخرى . ولو أن اسرائيل هاجمت آنذاك الجبهة السورية المحصنة ، ولم تستطع التقدم بسرعة بسبب طبيعة الارض ومناعتها وصلابة الدفاع عنها ، لتعرضت مؤخراتها حتماً لهجمة مصرية كبيرة كان من الممكن أن تبدل صورة القتال .

وليس من المحتمل اليوم قيام اسرائيل بتنفيذ هذا الاسلوب ، والاحتمال الاقوى هو ان تلجأ الى اسلوب آخر يتمثل في الدفاع أمام الخصم الاقوى (الجيش المصري) مع الاستناد الى حاجز طبيعي منيع (قناة السويس) ، ومهاجمة الخصم الاضعف وحسم المعركة معه قبل أن يستطيع الجيش المصري اجتياز القناة وتحطيم دفاعات خط بارليف ، والتغلب على الاحتياط العملياتي المدرع في صحراء سيناء وضرب الجيش الاسرائيلي من الخلف .

ان حجم الجيش المصري الحالي ، وتدابير الدفاع الجوي المصرية المبنية على الطائرات المعترضة وصواريخ ارض – جو (١٢٠ قاعدة من صواريخ « سام – ٢ » « وسام – ٣ » « وسام – ٦ ») ومئات المدافع المضادة للطائرات ، واستناد القوات المصرية الى قناة السويس ، تجعل القوات الاسرائيلية ، بحجمها الحالي ، عاجزة عن تحقيق التفوق اللازم للعبور وحسم المعركة مع المصريين بسرعة ، على حين أن حجم الجيش والطيران السوريين ، وعدم كثافة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات (١٢ قاعدة « سام – ٢ » « وسام – ٣ » فقط) (١) وطبيعة مسرح العمليات الخالي من الموانع الطبيعية تغري العدو بالتوجه نحو سورية لتسديد « ضربة مباشرة » هي في الوقت نفسه « ضربة غير مباشرة » للخصم الاقوى مصر . ولا يمكن ان تنجح هذه الضربة إلا اذا تمت بسرعة ، وحققت أغراضها قبل ان يتمكن الجيش المصري من عبور القناة والاندفاع نحو الشرق والشمال بقوات كبيرة .

---

(١) لقد تبين خلال القتال أن شبكة الصواريخ السورية المضادة للطائرات كانت تضم قواعد صواريخ أرض – جو متحركة من طراز « سام – ٦ » ، الأمر الذي قلب حسابات قيادة سلاح الطيران الاسرائيلي .

ولكي يحقق العدو هذه الغاية ، ولا يضطر الى القتال الطويل على جبهتين، لا بد له من تجميع قوة آلية مدرعة كبيرة تستغل ضربة جوية كبيرة مفاجئة، وتندفع بأقصى سرعة نحو الشمال مع تجنب الهجوم الجبهي على محور الدفاع الرئيسي في الجبهة السورية، والقيام بالالتفاف على الجناح الأيمن للقوات السورية المحتشدة جنوب دمشق ، يرافقه التفاف على جناحها الأيسر برتل ينطلق من هضبة الجولان عبر حوران باتجاه الشمال الشرقي ، ثم ينقسم الى قوتين تتجه أولاهما نحو الغرب لتلتقي مع جناح الكماشة الأيسر جنوبي غوطة دمشق، مطوقة بذلك القوات المنتشرة على خط وقف اطلاق النار ، على حين تلتف القوة الثانية نحو الشرق ثم تتجه الى الجنوب مطوقة منطقة حوران وجبل الدروز بشكل يقطع امداد القوات الموجودة في هذه المنطقة ويحصرها بين طوق الحصار ووادي اليرموك وحدود الاردن ، على أن يرافق ذلك دعم جوي تقوم به طائرات الصف الثاني بعد سحب طائرات الصف الاول (فانتوم وسكاي هوك) للعمل على الجبهة المصرية ، وعمليات انزال قوات محمولة جواً وراء الخطوط الدفاعية السورية بشكل يساعد على منع القوات الاستراتيجية السورية من الاشتراك في المعركة ، ويشارك في عملية التطويق .

وسيحاول العدو اغلاق الطوق على الاغلب جنوبي غوطة دمشق ، حتى يكون معظم قتال القوات المتقدمة في أرض مكشوفة تساعد العدو على استخدام دباباته وطائراته بكفاءة ، وحتى لا تضطر هذه القوات الى اضاعة وقت طويل في تطهير البساتين أو القتال داخل شوارع دمشق نفسها ، خاصة وأن قتال البساتين والشوارع يحرم عمليات الدبابات والطائرات من سرعتها ، ويتطلب قوات مشاة كبيرة ، وزمناً طويلاً قد لا تسمح به تحديدات الوضع الدولي .

ومن المحتمل أن يتم التطويق بشكل آخر ، وأن يقوم ذراع الكماشة الاسرائيلية بالتفاف استراتيجي واسع النطاق برتل يجتاز الاراضي الاردنية ويغلف جنوب سورية كله ، أو أن يشترك في التطويق من اليسار برتل يخترق الاراضي اللبنانية ويكمل الطوق شمالي قطنا .

ومن الملاحظ هنا أن خطة العدو المتوقعة تعتمد على ضربة جوية مفاجئة بطائرات الصف الاول هدفها تدمير الطيران السوري والسيطرة على الاجواء، ثم سحب طائرات الصف الاول بعد ذلك الى الجبهة المصرية واستبدالها بطائرات الصف الثاني لدعم القوات البرية بحرية تامة . ولا يمكن لهذه الخطة أن تنجح إلا إذا توفر لطائرات الصف الاول المعادية الزمن اللازم لتدمير الطيران السوري لوحده . ولكن نجاحها يصبح مشكوكاً فيه إذا ما تدخل الطيران المصري فوراً وبدون ابطاء منذ الدقائق الاولى للمعركة وبدأت عمليات عبور القناة بشكل جدي على طول القناة . لأن هذين العملين سيجبران قسماً كبيراً من طائرات الصف الاول على التوجه نحو الجنوب لمجابهة الطيران المصري ودعم خط بارليف ومساعدته على الدفاع . وسيخففان الضغط البري عن الجبهة السورية الا إذا عبأ العدو كل قواته البرية قبل بدء الهجوم – الامر الذي لم يتم حتى اليوم – وسيجعلان المعركة على الجبهة السورية تتم في ظروف اكثر ملائمة للقوات السورية .

ان رد الفعل المصري السريع والقوي بمختلف القوات الجوية والبرية والبحرية ، وتوسيع نطاق المعركة المحدودة التي تخطط لها اسرائيل الى معركة شاملة ، هو التصرف الوحيد والكافي لاحباط خطة العدو وقلب تدابيره واجباره على القتال على جبهتين بان واحد . ويتطلب مثل هذا النوع من الحروب الخاطفة قرارات حاسمة وسريعة ، ولا يسمح في بعض الاحيان بضياع دقائق قد يرتبط بها مصير شعب كامل . ومن المؤكد أن وجود قوات مسلحة نظامية كبيرة تحت السلاح (٢٩٨ الف جندي مصري) يسمح باتخاذ مثل هذه القرارات نظراً لتوفر الاداة اللازمة لتنفيذها فوراً منذ الساعة الاولى دونما حاجة لاضاعة الوقت في تعبئة الاحتياط وزجه في المعركة ، علماً بأن هذه التدابير يمكن ان تتم خلال سير القتال فيما بعد لزيادة حجم القوات المشتبكة مع العدو ، وتأمين التفوق العددي اللازم لمتابعة الضغط واستثمار النصر رغم خسائر الأيام الحاسمة الاولى .

ان حجم الطيران المصري وكفاءته التقنية والقتالية يسمحان له بدخول

المعركة – إذا كان هناك قرار سياسي مسبق – بعد الدقائق الاولى من العدوان، والبحرية المصرية المتفوقة بشكل ساحق على العدو قادرة على توجيه ضربات مباشرة وغير مباشرة والمشاركة في الخنق الاستراتيجي البعيد مع الاعتماد على مظلة جوية تنطلق من مطارات ليبيا والسودان وصعيد مصر . اما حجم القوات البرية المصرية المتمركزة على الضفة الغربية للقناة ، وامتلاكها لمائة دبابة برمائية من طراز « P T 76 » ومئات ناقلات الجنود البرمائية المدرعة من طراز « BTR 50 P » و « BTR 60 » ولوائين محمولين جواً ، و٢٨ كتيبة كوماندوس، وقوة نارية ضخمة، فانها تسمح لهذه القوات بعبور القناة وتدمير خط بارليف وعمل رؤوس جسور على الضفة الشرقية اذا ما دعمتها مئات المدافع بعيدة المدى، القادرة على ضرب خط بارليف والقوات الاحتياطية المتمركزة خلفه ، وعززتها بطاريات صواريخ أرض – أرض من طراز « FROG - 3 » و « FROG - 7 » القادرة على قصف تجمعات العدو على مسافة ٤٠ و ٦٠ كيلو متراً ، وطائرات « TU 16 » القادرة على قصف تجمعات العدو وتحصيناته على الضفة الشرقية بالقنابل مستفيدة من حماية شبكة الصواريخ المصرية أرض – جو. ولن يستطيع الطيران الاسرائيلي، حتى ولو حقق تفوقاً على جبة القناة، منع العبور او قصف رؤوس الجسور او دعم القوات المدرعة الاحتياطية التي ستحاول تطهيرها ، لأن بطاريات « سام – ٢ » «وسام – ٣» « وسام – ٦ » قادرة على حماية سماء القناة ورؤوس الجسور بعمق لا يقل عن ٢٠ كيلو متراً حتى وهي متمركزة في مواقعها على الضفة الغربية . كما أن انتقال بطاريات « سام – ٣ »، « وسام – ٦ » المحمولة على عربات مجنزرة، الى رؤوس الجسور بعد تدعيمها بالدبابات ومدافع الميدان ، سيؤمن للقوات العابرة امكانية التقدم بسرعة (معتدلة) لانه سيشارك في حماية اجواء المعركة، وسيمنع طائرات « الفانتوم » « وسكايهوك » من المناورة بحرية ، أو التدخل دون تكبد خسائر فادحة .

وكما ان سرعة التدخل المصري ستساعد الجبهة السورية، فان صمود الجيش السوري مدة طويلة ، ودفاعه العنيد دون فكرة التراجع ، والحاقه اكبر

الخسائر بالعدو ، وعدم التنازل عن أي شبر دون أن يدفع العدو ثمنه من الرجال والعتاد، واستمرار القتال بشراسة حتى في حالات التطويق، والمساهمة في « طحن » القوات المتقدمة بدفاعات وعقد مضادة للدبابات ، وهجمات معاكسة تكتيكية ليلية مستمرة ، والانتقال من الدفاع الى الهجوم في حالة انسحاب جزء من قوات العدو نحو الجبهة المصرية ، هي التدابير التي ستؤمن نجاح التدخل المصري ، وستجبر العدو على القتال على جبهة معكوسة .

ان خطة العدو كلها مبنية على الانفراد بكل جبهة على حدة . والقتال دائماً على جبهة واحدة ، والرد الاستراتيجي على خطته هي اجباره على القتال على جبهتين . ولا يمكن ان يتحقق هذا الرد الا اذا تأمن شرطان اساسيان هما : سرعة التدخل المصري وصمود الجبهة السورية . في هذه الحالة، وفي هذه الحالة فقط ، يمكن ان يفقد العدو توازنه الاستراتيجي ، ولا تحصد مغامرته العسكرية سوى الفشل .

٢ - المراحل الرئيسية لسير العمليات

مرّت الحرب العربية الاسرائيلية على مسرحي العمليات الشمالي والجنوبي بعدة مراحل تعاقبت بسرعة كبيرة ، وانتقلت فيها القوات المتجابهة عبر أشكال القتال المتعددة (هجوم ، دفاع ، هجوم معاكس ، انسحاب ، تطويق ، فك تطويق) ، والشكل القتالي الوحيد الذي لم تشهده هذه الحرب القصيره نسبياً ، والطويلة بالنسبة للمجابهات العربية – الاسرائيلية السابقة ، هو المطاردة واستثمار الفوز . ولقد رأيت ان من الضروري شرح المراحل الرئيسية لسير العمليات الحربية ، بغية رسم الصورة المتحركة التي يمكن من خلالها طرح الدراسات التالية وتحديد مواقع الأحداث المذكورة فيها .

آ – العمليات على الجبهة السورية

بدأت العمليات على هذه الجبهة في الساعة الرابعة عشرة من يوم ٦ / ١٠ / ١٩٧٣ بهجوم محضّر قامت به قطعات الدبابات والمشاة والصواريخ المضادة للدبابات تحت تغطية كثيفة من نيران المدفعية والمدفعية الصاروخية والطيران ومدافع الدبابات والصواريخ الموجهة المضادة للدبابات ، ضد خط محصن (خط آلون) تحميه حقول ألغام مضادة للأشخاص والدبابات ، ويمتد أمامه خندق مضاد للدبابات،وتدافع عنه وحدات عاملة من الجيش الاسرائيلي، معززة بوحدات مدرعة تم دفعها الى هضبة الجولان في مرحلة التوتر التي سبقت القتال . ويمكن تقسيم العمليات التي دارت على هذه الجبهة منذ بدء

القتال حتى وقف اطلاق النار في ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (الهجوم السوري) : بدأت هذه المرحلة بطلعة جوية مفاجئة اشتركت فيها حوالي ٢٠٠ طائرة سورية ، وأعقبها اندفاع القوات السورية والمغربية ووحدات جيش التحرير الفلسطيني من قواعد انطلاقها في شرقي الجولان وغربي حوران لاختراق تحصينات العدو وحواجزه ، مستغلة عامل المفاجأة الى الحد الأقصى . ولقد تركّز الهجوم على ثلاثة محاور :

١ – المحور الرئيسي : وهو المحور الأوسط الذي حقق فيه المهاجمون خرقين أساسيين ، يتجه أولهما على محور خان اربنبة – الحميدية – طريق القنيطرة – مسعدة ، ويطوّق القنيطرة من الشمال . والثاني يكمل الطوق حول القنيطرة من الجنوب . وكانت غاية هذا الهجوم محاصرة القوات المعادية الموجودة في القنيطرة وتدميرها ، والتحرك بعد ذلك غرباً على محورين : القنيطرة – واسط – قنبعة ، والقنيطرة – كفرنفاخ – صنابر .

٢ – المحور الشمالي : وهو محور ثانوي يخرق الجبهة في اتجاه مجدل شمس – مسعدة – بانياس . وكان من المنتظر تحرك جزء من هذا المحور نحو الجنوب على طريق مسعدة – واسط العرضاني لمشاركة قوات القطاع الأوسط المنطلقة من واسط باتجاه الشمال لتطويق قوات العدو الموجودة بين الطريق العرضاني مسعدة – واسط ، وخط وقف اطلاق النار .

٣ – المحور الجنوبي : وهو محور ثانوي يخرق الجبهة عند الرفيد ، وينقسم الى فرعين . فرع يتجه شمالاً على محور الرفيد – تل فرس – الفرارة – القنيطرة لتطويق القوات المحصورة بين الخط الأمامي وطريق الرفيد – القنيطرة . وفرع يتجه نحو الجنوب الغربي على طريق الرفيد – الجوخدار – فيق – كفرحارب – الحمة ، بالإضافة الى ضربة تتجه من تسيل في اتجاه طريق الرفيد – فيق لقطع مواصلات قوات العدو في الجوخدار .

ورافق هذه العمليات البرية عملية ابرار بقوات سورية وفلسطينية محمولة

بالهليكوبتر على جبل الشيخ وعلى مفارق الطرق والمرتفعات والنقاط الحساسة وراء خطوط العدو . ولقد حقق هذا الهجوم نجاحات واضحة في اليومين الأولين ، وخرّق خطوط العدو ، واندفع في عمق ترتيبه الدفاعي بأسلوب الحرب الخاطفة ، وحرّر الجزء الأكبر من الجولان، ووصل في عدد من النقاط الى مواقع تشرف على بحيرة طبرية ، وحرر مرصد جبل الشيخ ، وطوّق القنيطرة التي غدا تحريرها أمرها متوقعاً في كل لحظة .

وكان إنجاز هذه المرحلة بأكملها يهدف الى تطويق الجزء الأكبر من القوات المعادية المدافعة ، وتقسيمها الى جزر منعزلة ، وإبادتها ، ودفع الاسرائيليين الى المنحدر المعاكس ، الأمر الذي يسمح بدحرهم ومطاردتهم . وأمام هذا الهجوم الصاعق ، كانت القوات الاسرائيلية تتراجع أو تنكمش داخل جزر المقاومة ، وتقوم بعملية الصد مستخدمة قوتها الذاتية ، والدعم الجوي الأقصى،ووحدات المدرعات العاملة والاحتياطية التي كانت القيادة الاسرائيلية تدفعها الى جبهة الجولان على عجل .

المرحلة الثانية (الهجوم المعاكس المعادي) : وفي اليوم الثالث للقتال (٩ / ١٠) توقف الهجوم السوري وأنهى العدو معركة الصد ، ودفع الى الجولان قواته الاحتياطية التي تم جمعها خلال الأيام الثلاثة الماضية ، وركّز ثقل قواته الجوية على الجبهة السورية . وكان همه في هذه المرحلة إبعاد الخطر عن مستوطنات سهلي طبرية والحولة، واستعادة الجولان للحصول على عمق دفاعي كاف . وكان تركيزه على الجبهة السورية لا على الجبهة المصرية ناجماً عن وجود عمق كاف في سيناء يسمح بالتراجع ، ووجود خط الممرات الذي يمكن الوقوف عنده ، وأخذ مواقع الدفاع بقوات محدودة ، وعدم توفر هذين العاملين على الجبهة الشمالية .

ولقد بنى العدو خطته في هذه المرحلة على النقاط التالية : ١ – محاولة استعادة السيطرة الجوية مهما كلف ذلك من خسائر ، وذلك عن طريق قصف المطارات، وتدمير قواعد الصواريخ أرض – جو، وتدمير الطائرات في الجو.

٢ – القيام بعمليات قصف جوي وبحري ضد أهداف استراتيجية ومنشآت حيوية وضرب المناطق السكنية للتأثير بشكل غير مباشر على معنويات المقاتلين . ٣ – القيام بعمليات تشتيتية بحرية على الساحل السوري لاجبار السوريين على سحب جزء من قواتهم الاحتياطية وتجميدها لمجابهة احتمالات الخطر الذي يمكن أن يأتي من البحر . ٤ – شن هجوم معاكس استراتيجي على طول الجبهة السورية قبل وصول الجزء الأكبر من القوات العراقية البرية والجوية الى مسرح العمليات .

وكانت معارك اليوم السادس (١١ / ١٠) من أعنف معارك الهجوم المعاكس الاستراتيجي المعادي . ولقد حقق هذا الهجوم عدداً من النجاحات على المحاور الثلاثة . وكان جهد العدو الرئيسي مركزاً على المحورين الشمالي والأوسط نظراً لأنهما ينفتحان على الطريق المؤدية الى دمشق . وكان الاسرائيليون يستهدفون من التقدم نحو دمشق استغلال هذا التهديد اعلامياً ونفسياً ، والتقدم الى المدى الذي يسمح لهم ، على الأقل ، بقصف العاصمة بالمدفعية بعيدة المدى بعد أن عجز الطيران عن تحقيق هذا القصف على نطاق واسع ، بسبب قوة الدفاعات الأرضية ضد الطائرات .

وفي نهاية يوم (١٠/١١) بدا بوضوح أن العدو قد نجح على القطاع الشمالي أكثر من أي مكان آخر ، وخلق جيباً على محور القنيطرة سعسع بعمق ٢٤ وعرض ٢٤ كيلومتراً . وكان من الواضح أنه ينوي استغلال هذا النجاح في اليوم التالي . وبالفعل حاولت تحشدات العدو المدرعة المدعومة بالطيران تركيز جهودها في الايام التالية على المحور الشمالي لاستغلال الخرق ومتابعة التقدم . وكان التقدم على هذا المحور بسرعة يعني تهديد دمشق من جهة ، وتطويق القوات السورية المقاتلة على المحور الاوسط من جهة أخرى .

ولقد اعتقد الاسرائيليون بعد صد الهجوم السوري في القطاع الشمالي وتجاوز خط وقف اطلاق النار ، انهم سينتقلون بعد الخرق الى حرب الحركة التي تبنوا عقيدتها وطبقوها بنجاح في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ . ولكن اعتقادهم

كان مبنياً على فهم خاطىء لحقائق الحرب الرابعة وموازين قواها على ارض المعركة . فلقد جابهم دفاع قوي ، عززه قدوم قطاعات عراقية مدرعة وميكانيكية ، انتقلت بسرعة من العمق الاستراتيجي الى مسرح العمليات تحت غطاء جوي أمنه سلاحا الطيران العراقي والسوري . ولقد وصلت وحدات مدرعة عراقية الى مكان المعركة في الوقت المناسب نظراً لانتقال بعضها على السلاسل ، ودخلت المعركة التصادمية منذ يوم ٦/١٢ بعد اعداد واستطلاع قصيرين . ولم يستطع الطيران الاسرائيلي التعرض لهذه الحركة الاستراتيجية ، كما تعرض لحركة القوات العراقية في حرب ١٩٦٧ ، وذلك لعدة أسباب هي : السرية ، والمفاجأة بالمبادرة العراقية ذات المنطلق القومي ، وانشغال الطيران الاسرائيلي بمهمات الصد على الجبهتين وتغطية عملية جمع الاحتياط الاستراتيجي ، وسعة منطقة التحرك وامكانية سير الارتال خارج الطرقات ، وتزويد الارتال المتحركة بأسلحة تقليدية مضادة للطائرات .

وكان الدفاع السوري الذي جابه الهجوم المعاكس الاسرائيلي شرقي الخط الاخضر مبنياً على صفحة لا على خط . وهذا يعني ان خرق الموقع الامامي من قبل العدو لا يقدم له امكانية الاندفاع في أرض خالية من الدفاعات ، كما أن موازين القوى وضخامة الحشد العربي يعني أن التقدم مضطر للاصطدام بقوات احتياطية مجهزة لشن الهجمات المعاكسة على جميع المستويات. ولقد حد من فاعلية الهجوم المعاكس المعادي ثلاثة عوامل هي : عدم قدرة الطيران الاسرائيلي على تحقيق السيطرة الجوية التي تعطيه تفوقاً برياً ساحقاً ، واضطرار القوات المتقدمة الى العمل على أرض وعرة صخرية محدودة المسالك لا تسمح بالمناورة الآلية ولا تعطي القوات المدرعة والميكانيكية فرصاً جيدة لاستغلال امكاناتها الحركية ، وصمود القوات السورية – العراقية في الدفاع عن الأرض.

واصطدم الهجوم الاسرائيلي بالفعل بدفاعات قوية ورمايات مدفعية وصواريخ كثيفة . ولم يستطع الطيران تأمين الدعم الجوي اللازم للتقدم كما لم يستطع اسكات بطاريات المدفعية التي نصبت أمام قوات العدو البرية سدوداً نارية قوية. وطبقت القوات السورية – العراقية أساليب الدفاع الديناميكي ، وشنت هجمات

معاكسة شديدة كسرت حدة الهجمات المعادية واوقفتها على جميع المحاور . وفي ١٠/١٤ انتهت المرحلة الثانية وتوازنت قوى الطرفين ، واختفت امكانات التقدم نحو دمشق ، ولم يعد لدى الاسرائيليين أي أمـل بتحقيق مفاجأة استراتيجية ، أو قلب التوازن الاستراتيجي للقوات العربية .

المرحلة الثالثة (التوازن الاستراتيجي) : أصبح خط الجبهة في المرحلة الثالثة متعرجاً متشابكاً تصدم فيه المدرعات والمشاة الميكانيكية والمدفعية فوق أرض وعرة مكشوفة تصلح لقتال المشاة والمدفعية اكثر من صلاحياتها لقتال القوات المتحركة الآلية (دبابات ومشاة ميكانيكية) . ويرجع سبب تعرج خط الجبهة وتداخل قطعات الطرفين الى الهجمات السورية الاولى التي حققت النجاحات في مختلف القطاعات ، والهجمات المعاكسة الاسرائيلية التي جاءت لتحقق بعض النجاح على القطـــاعين الشمالي والاوسط ، وهجمات السوريين والعراقيين في الايام التالية ، ورد العدو عليها بهجمات معاكسة محلية . ولقد بقي الوضع على هذا الحال منذ يوم ١٠/١٤ حتى وقف القتال ، وحاول كل طرف من الطرفين تحسين وضع مواقعه باحتلال مرتفع او بطرد قوة من مكان حاكم أو خط يصلح للدفاع أو الانتشار. وكانت تجري طوال النهار مبارزات بين بطاريات مدفعية الميدان (رمي معاكس البطاريات) ، ومبارزات بين مدافع الدبابات ، دون أن تقوم هذه الدبابات بحركات واسعة ودون قيام الطرفين بعمليات ليلية واسعة النطاق . ولقد اشتركت في هذه المبارزات غالبـاً بطاريات المدافع والمدفعية الصاروخية والصواريخ الموجهة المضادة للدبابات . واعتمد السوريون على استخدام بطاريات صواريخ « سنابير » و « ساغر » الموجهة السوفياتية الصنع ، كما عمد الاسرائيليون الى استخدام بطاريات « س . س – ١١ » الفرنسية الصنع التي فرضت الحكومة الفرنسية عليها حظراً ومنعت شحنها الى منطقة الصراع ، كما اعتمدوا على الصواريخ الاميركية « تاو » المضادة للدبابات ، وعلى طائرات الهليكوبتر المسلحة بالصواريخ الموجهة المضادة للدبابات .

ويمكن اعتبار المرحلة الثالثة التي بقيت حتى وقف اطلاق النـار مرحلة

استنزاف كان بوسع السوريين البقاء فيها أمداً طويلا ، على حين لم يكن بوسع الاسرائيليين البقاء فيها وتجميد قواتهم واستنزافها وحرمانها من حرية العمل دون أن يحقق هذا الحشد أي حسم ، خاصة وانهم اضطروا الى نقل جزء من قواتهم لتعزيز الجبهة الجنوبية قبل أن يتم حسم الموقف على الجبهة الشمالية .

ومن ابرز احداث هذه المرحلة استعادة الاسرائيليين لمرصد جبل الشيخ بهجوم جوي قامت به وحدات كوماندوس محمولة بالهليكوبتر تحت تغطية جوية كثيفة في يومي ٢١–٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) . وكان من مظاهر هذه المرحلة ضعف نشاط الطيران الاسرائيلي وزيادة نشاط الطيران السوري – العراقي الذي شارك مشاركة فعلية في دعم القوات البرية وضرب تحشدات العدو ومواقع اسلحته الثقيلة. ويرجع الفضل في هذا الوضع الى شدة الدفاعات الارضية المضادة للطائرات ، واضطرار العدو الى نقل معظم طيرانه الى الجبهة المصرية التي أخذت القوات المحتشدة فيها حجماً هجومياً .

ويمكن ان نطلق على القتال الذي دار في الجبهة السورية خلال المرحلة الثالثة اسم « تناطح الاكباش » ، فهو ضربات متبادلة متعاقبة ذات اغراض محدودة . ولقد حشد السوريون خلال هـــذا التناطح قوات احتياطية ، وازدادت قوتهم بوصول قوات عراقية جديدة ، وكانوا يأملون ان تضطر القيادة الاسرائيلية الى تخفيف عدد قطعاتها على هذه الجبهة لتدعيم الجبهة المصرية ، بشكل يؤمن تبدل ميزان القوى لصالحهم ، ويسمح لهم بالعودة من جديد الى الهجوم وحرب الحركة . ولم يراهن الاسرائيليون على وصول قوات جديدة طازجة. ولكنهم راهنوا على وصول معدات وذخائر اميركية تعوض خسائرهم وتجعلهم اكثر قدرة على الصمود في معارك الاستنزاف . وكانوا يأملون في الوقت نفسه ان لا يضطرهم ميزان القوى على الجبهة المصرية الى سحب جزء اضافي من قواتهم ودفعها الى صحراء سيناء .

ولقد تحققت الشروط الملائمة للجانب العربي قبيل وقف اطلاق النـار ، وجرى منذ يوم ١٩ استعداد لشن هجوم معاكس سوري – عراقي – اردني ،

تشترك فيه فرقتان مدرعتان سوريتان (أعيد تنظيمهما) ، وفرقتان مدرعتان عراقيتان ، ولواء أردنياً . ولكن صدور قرار وقف اطلاق النار ، وقبول مصر بـه أوقف العملية الهجومية التي كانت تستهدف تصفية ثغرة سعسع ومطاردة القوات الاسرائيلية غربي الخط الاخضر .

ومن المؤكد أن العبء الاكبر على الجبهة السورية وقع في هذه المرحلة على عاتق السوريين والعراقيين . وقامت الوحدات المغربية وقوات جيش التحرير الفلسطيني بدورها القتالي على اكمل وجه ضمن قطاعات عمل القطعات الكبرى السورية العاملة في القطاعين الشمالي والاوسط. أما الوحدات الاردنية والسعودية فكانت مشاركتها متناسبة مع صغر حجمها ، ووجودها على محاور ثانوية ، ودخول المعركة بعد امتصاص القوات السورية – العراقية لعنف صدمة الهجوم المعاكس المعادي ، وبدء تركيز الجهد الاسرائيلي على جبهة سيناء .

ب – العمليات على الجبهة المصرية

بدأت العمليات على الجبهة المصرية في لحظة انطلاق الهجوم السوري . وكانت هـذه العمليات في بدايتها عبارة عن هجوم محضّر قامت به قوات عبور محمولة على قوارب مطاطية وعربات مدرعة برمائية تحت تغطية كثيفة من نيران المدفعية والمدفعية الصاروخية والطيران ومدافع الدبابات والصواريخ الموجهـة المضادة للدبابات ، ضد خط محصن يستند على مانع مائي عريض (قناة السويس) ، وتدافع عنه وحدات عاملة من الجيش الاسرائيلي ، تتمركز خلفها وحدات مدرعات ومدفعية معدة لشن الهجمات المعاكسة المحلية وتطهير رؤوس الجسور عند أي عبور . ويمكن تقسيم العمليات التي دارت على هذه الجبهة منذ بدء القتال حتى وقف اطلاق النار الفعلي في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) الى خمس مراحل .

المرحلة الاولى (العبور) : قامت موجات الانقضاض المصرية الاولى (مشاة ومهندسين) في هذه المرحلة بعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف الحصين بعد قصف عنيف اشتركت فيه المدفعية المصرية و ١٩٠ طائرة مقاتلة

مصرية–عراقية . وكانت العملية بمجملها عبارة عن «عبور بالقوة» تحت انظار ونيران القوات المدافعة عن خط بارليف. ورافق العبور ابرار قوات كوماندوس محمولة بالهليكوبتر وراء خط بارليف لمهاجمته من الخلف وقطع طرق انسحابه وخطوط مواصلاته وعرقلة تقدم الاحتياطات العملياتية الاسرائيلية اذا مـا شاءت التقدم لنجدته . ولقد تمت هذه المرحلة بنجاح وسرعة ووتيرة عالية بفضل المفاجأة ، وعنف نيران الدعم ، والتنظيم الجيد ، وحسن اختيار لحظة الهجوم بناء على دراسة التيارات المائية في القناة ، ولم يتمكن الطيران المعادي من التدخل فيها لان وسائط الدفاع ضد الطائرات (مقاتلات معترضة، وصواريخ أرض – جو ، وبطاريات مدفعية مضادة) طردته من اجواء مسرح العمليات . ولم تستطع القوات الاحتياطية المدرعة التدخل لأن المدفعيـة والصواريخ الموجهة المصرية المضادة للدبابات المتمركزة وراء الساتر الترابي على الضفة الغربية للقناة شلت حركتها والحقت بها الكثير من الخسائر . وانتهت المرحلة الاولى ببناء جسور عائمة لمرور الدبابات والمشاة الميكانيكية والمدفعية اللازمة لتدعيم رؤوس الجسور وتوسيعها في ليلة ٦ – ٧/١٠/١٩٧٤ .

ولقـد ابدعت وحدات المهندسين المصرية في بناء الجسور العائمة بسرعة فائقة ، وقامت باستخدام المتفجرات ومضخات المياه القوية لتدمير الجدار الترابي القائم للضفة الشرقية بغية تسهيل عملية نصب الجسور وعبور الآليات والدبابات الى رؤوس الجسور .

المرحلة الثانية (معركة الجسور) : بدأت هذه المرحلة في اليوم التالي (٧/١٠/١٩٧٤) عنـدما حاول العدو استخدام الطيران والمدفعية لقطع الجسور وعزل القوات التي عبرت الى الضفة الشرقية بغية تدميرها . وكانت هذه المرحلة مبارزة عنيفة بين الطيران المعادي ووسائط الدفاع الجوي المصرية (الطائرات المعترضة « ميغ – ٢١ » وبطاريات المدافع المضادة للطائرات ، وصواريخ أرض – جو الموجهة « سام » من مختلف الانواع) . وانتصرت وسائط الدفاع بشكل مذهل . ويذكر مراسل نيوزويك الذي شهد معركة الحفاظ على الجسور في الايام الاولى للحرب ان ٣ طائرات من كل خمس

طائرات اسرائيلية حلقت فوق منطقة القناة سقطت بفعل وسائط الدفاع الجوي(١) . وان هذه الطائرات اضطرت الى القاء قنابلها من ارتفاعات عالية الامر الذي خفض نسبة اصابتها الى حد بعيد . ولقد عجزت المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى عن ضرب الجسور لان الدفاعات الجوية لم تسمح بتحليق طائرات الهليكوبتر الخاصة بملاحظة الرمايات وتصحيحها . وكانت قنابل المدفعية تسقط بعيدة عن الجسور بما لا يقل عن ٢٠٠ متر . ولقد أثر على فاعلية الرد المدفعي الاسرائيلي ، الخسائر التي أصابت بطاريات المدفعية خلال القصف الجوي – المدفعي العربي ، وضعف المدفعية الاسرائيلية التي لم تكن تملك في بداية الحرب سوى عدد محدود من المدافع بعيدة المدى ذاتية الحركة من طراز ١٠٧ (عيار ١٧٥ مم) والتي يبلغ مداها ٣٢ كيلو متراً ، نظراً لأن العدو بنى تكتيكات الدعم الناري أساساً على القوات الجوية التي بدت مشلولة بشكل ملحوظ .

المرحلة الثالثة (تدعيم رؤوس الجسور وتوسيعها) . ولقد بدأت هذه المرحلة بتدفق القوات المصرية الى الضفة الشرقية عبر الجسور ، وقيامها بتطهير كافة مواقع العدو على خط بارليف . وكان العدو يحاول مهاجمة رؤوس الجسور بقوات الاحتياط التكتيكي والعملياتي(٢) ، وبقواته الاحتياطية الاستراتيجية المدرعة والميكانيكية التي جمعها على عجل ، وأخذ يدفعها الى مسارح العمليات « بالتقسيط » ، دون ان يشكل منها قوات كبيرة قادرة على تسديد ضربات ساحقة . بيد أن قوات المشاة المصرية المسلحة بالصواريخ الموجهة المضادة للدبابات ، « ساغر » و « سنابر » والمزودة باعداد كبيرة من القواذف الصاروخية المضادة للدبابات « ر ب ج – ٧ » كانت تتصدى للهجمات المعاكسة وتوقع بها خسائر فادحة . كما أن قوات الكوماندوس المنتشرة في سيناء كانت تعرقل حركة الهجمات المعاكسة وتضرب مؤخراتها . ونجم عن ذلك امتصاص رؤوس الجسور للضربات المعاكسة الاسرائيلية وصدها ، ومتابعة التقدم وتعزيز المواقع . وكان

(١) نقلا عن أحد مراقبي الأمم المتحدة « نيوزويك » ، ٢٢/١٠/١٩٧٣ .
(٢) وأهم هذه القوات اللواء المدرع ١٩٠ واللواء المدرع ٦٠٠ .

لعدم قدرة العدو على استغلال السيطرة الجوية تأثير كبير على سير العمليات البرية ، لأن القوات البرية المعادية كانت تقاتل في ظروف غير مألوفة بالنسبة اليها . فقد اعتادت القتال تحت حماية جوية كاملة ، كما اعتادت تلقي دعم ناري جوي يعوض نقص قوة نيران مدفعيتها . ولما وجدت نفسها تقاتل في ظروف عادية وتحت سماء « غير نظيفة » تعثرت هجماتها ولم تعد قادرة على تنفيذ تكتيكاتها بكفاءة عالية .

ومن الملاحظ أن هذه المرحلة طالت أكثر مما ينبغي ، ولم تستغل القيادة المصرية خلالها انشغال كبد القوات الاسرائيلية على الجبهة السورية ، ولم تدفع قواتها نحو الشرق للوصول الى الممرات قبل أن يتمكن العدو من إنهاء استعداداته في سيناء.

المرحلة الرابعة (التقدم المصري نحو الشرق) : بدأت هذه المرحلة في يوم (١٤/١٠) لتخفيف الضغط المعادي على الجبهة السورية ، وذلك بعد أن عززت رؤوس الجسور مواقعها ، وعبرت الى الضفة الشرقية للقناة معظم وحدات الجيشين المصريين الثاني والثالث . وأصبحت القوة المصرية المحتشدة في سيناء ذات حجم هجومي قادر على التغلغل في العمق . وتحولت رؤوس الجسور الى جيوب واسعة في المناطق الواقعة شرقي القنطرة وشرقي الاسماعيلية وشرقي الشط . وكان الجيب الأول قاعدة للانطلاق على المحور الشمالي : قنطرة شرق – العريش ، وكان الجيب الثاني قاعدة للانطلاق على المحور الأوسط: الاسماعيلية – جفجافة – أبو عويقلة (ويدعوها البعض أبو عجيلة) ، على حين كان الجيب الثالث قاعدة للانطلاق على المحور الجنوبي : الشط – ممر متلا – سدر الحيطان ، والذي يتفرع بعد ذلك الى محورين يتجه احدهما نحو القسيمة كما يتجه الآخر الى الكنتلا وإلى ايلات .

ولقد تميّزت هذه المرحلة بتقدم المصريين نحو الشرق بحذر وثقة دون التورط بالابتعاد عن مدى حماية الصواريخ المضادة للطائرات ، ودون إطالة المواصلات بشكل يخلق لها معضلات لوجستيكية (ادارية) حادة . وتقدمت القوات المصرية مستخدمة اسلوب « الهجوم الدفاعي » مقابل اسلوب « الدفاع الهجومي » المعادي . وكان الاسلوب المصري يتمثل بالتقدم بحجم هجومي ،

وتحصين الأرض المستولى عليها بشكل يجتذب هجمات العدو المعاكسة ويدمرها، دون أن يسعى الى مطاردتها، أو يخضع لاغراءآت التقدم السريع العميق الذي يعرضه للاخطار الجوية في أرض جرداء . وما أن يتم تحصين المناطق المحتلة حتى تتقدم « المدحلة الساحقة » وثبة اخرى تحتل بها مناطق جديدة وتدمر قوات جديدة .

واستخدم العدو مقابل هذا الاسلوب أسلوباً قتالياً يتمثل بالهجمات المعاكسة المستمرة النشطة دون الاهتمام بالخسائر التي تلحق بقواته، ودون تحقيق أي تبديل في موازين القوى . ولقد استخدم الألمان هذا التكتيك على الجبهتين الشرقية والغربية في آخر مراحل الحرب العالمية الثانية . (معركة الاردين الثانية ، كانون الاول ، ١٩٤٤) وبددوا من جراء ذلك كثيراً من القوات التي كان بوسعهم استخدامها للدفاع عن الاراضي الألمانية ، وحماية برلين بشكل أفضل وإطالة مدة دفاعهم سنة كاملة على الأقل .

ولقد جرت معارك هذه المرحلة في المنطقة المحصورة بين المرتفعات ورؤوس الجسور . وهي منطقة واسعة منبسطة تتخللهـا بعض الكثبان الرملية ، ولكنها بجملها صالحة لمناورة القطعات المدرعة الكبيرة . وحاول المصريون فيها استنزاف القوات الاحتياطية الاسرائيلية قبل اقتحام المرتفعات والممرات. على حين حاول الاسرائيليون فيها منع تقدم المصريين وتقليص رؤوس جسورهم أو اجبارهم على الوقوف في المواقع التي وصلوا اليها ريثما يتم استيعاب الامدادات الاميركية، وتتوفر الظروف الملائمة لعبور القناة الى الضفة الغربية . وامتازت خطة المصريين في هذه المرحلة بانها كانت تؤمن الحشد والاقتصاد بالقوى ، واجبار العدو على القتال على الارض التي اختاروها ورأوا انها تقدم لهم أفضل الشروط . فهي تسمح لهم بان يقاتلوا غربي المرتفعات على أرض قريبة من قواعد امدادهم وتموينهم وتحت حماية صواريخهم المضادة للطائرات ، على حين يقاتل الاسرائيليون في منطقة بعيدة عن قواعد امدادهم وتموينهم . وتضطر قوافل قواتهم الاحتياطية وقوافل امدادهم الى المرور عبر ممرات اجبـارية معرضة للقصف الجوي .

واتسمت معارك هذه المرحلة بالعنف والشراسة، وضخامة القوات المشتركة فيها، وضخامة القوة النارية لدى الطرفين . إذ أشرك المصريون الجزء الأكبر من دباباتهم ومشاتهم الميكانيكية في القتال ، كما دفع العـدو الى مسرح العمليات المصري معظم قواته البرية ، ودفع القسم الأكبر من قواته الجوية لدعم القوات البرية وقصف الأهداف الاقتصـادية والمطارات والتجمعات السكانية داخل الأراضي المصرية . ومن أبرز التكتيكات التي طبقها المصريون في هذه المرحلة، والمرحلة التي سبقتها ، استخدام القوات المحمولة جواً وإنزالها على نطاق واسع وراء خطوط العدو لإزعاجها وقطع مواصلاتها .

المرحلة الخامسة (الهجوم المعاكس الاسرائيلي والعبور الى الضفة الغربية للقناة):كانت اسرائيل خلال المرحلة الرابعة تعدّ العدة لعبور القناة والوصول الى الضفة الافريقية . وكانت خطة هذه العملية معدّة من قِبَل اريك شارون منذ أن كان قائداً لقوات سيناء بعد حرب ١٩٦٧ . ولقد حاول شارون القيام بهذا الهجوم المعاكس منذ يوم (١١/١٠) . ولكن القيادة الاسرائيلية أخّرت الهجوم حتى يتم وصول الأسلحة الأميركية الحديثة عن طريق الجسر الجوي (دبابات، طائرات، صواريخ موجهة مضادة للدبابات « تاو » ، قنابل ذكية ، هليكوبترات مسلحة) ويتم توزيعها على القطعات الاسرائيلية . ولقد فضلت القيـادة الاسرائيلية عدم البدء بالهجوم المعاكس قبل أن ينتهي عبور غالبية مدرعات الجيشين المصريين الثاني والثالث الى الضفـة الشرقية حتى لا تلاقي مجموعة العبور مقاومة عنيفة في مراحل العبور الأولى . وحتى تضمن اسرائيل تطويق معظم مدرعات الجيش المصري ، وقطع خطوط امدادها ، وتدميرها بعد ذلك في سيناء .

وفي يوم ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) نجحت قوة اسرائيلية في المرور عنوة عبر الفرجة الواقعة بين قوات الجيشين المصريين الثاني والثالث ، رغم مقاومة لواء المشاة المصري السادس عشر الذي كان يغطي الجناح الأيمن للجيش الثاني، في الوقت الذي كانت به قوات اسرائيلية أخرى تشاغل وحدات الجيش الثاني جبهياً . وعندما وصلت القوة الاسرائيلية الى قناة السويس ، عبرت دباباتها

وعرباتهـا البرمائية من شمال البحيرات المرّة وأقامت رأس جسر صغير على الضفة الغربية للقنـــاة ، لم يلبث أن عزز بقوات منقولة جواً . وقامت قوة العبور بالتوجه نحـو الشمال والشرق معرضة رأس الجسر حتى الدفرسوار حيث قام مهندسو العدو بنصب الجسور التي أمَّنت عبور بقية قوة شارون .

وكان رد المصريين في يوم (١٦) ضعيفاً وبطيئـاً وغير متناسب مع خطورة العملية الاسرائيلية . الأمر الذي ساعد قوة شارون على توسيع منطقة رأس الجسر وتطهيرها من المقاومات المصرية ومن الصواريخ أرض – جو . وساعدتها في هـــذه العمليات طائرات الهليكوبتر المسلحة وطائرات العدو المزودة بأحدث ما أنتجته المصانع الأميركية من صواريخ جو – أرض (قنابل ذكية) . وهكذا فتحت ثغرة في شبكة الدفاع الجوي المصرية سمحت للطيران الاسرائيلي بالتسلل والعمل بحرية أكبر خـلال دعم قوات الثغرة التي اتجهت نحو الشمال لقطع طريق القاهرة – الاسماعيلية ، وتطويق الجيش الثـــاني ، وضرب مؤخراته .

وفي يوم ١٨ غدا الرد المصري أكثر عنفاً وتنظيماً . واشتركت فيه قوات احتياطية تضم المدرعات والصواريخ وقطعـات الكوماندوس وطائرات الهليكوبتر . واستطاعت هذه الهجمات ، بالتعاون مع قطعات الجيش الثاني تحديد تقدم قوات الثغرة نحو الشمال ، ومنعتها من تحقيق أغراضها ، الأمر الذي دفع العدو الى التوجه نحو الجنوب بغية الوصول الى طريق القاهرة – السويس وتطويق الجيش المصري الثالث .

ودارت في فترة (١٨–٢٢) معارك على جانبي القنـــاة . وكانت معارك الضفة الغربية عبـارة عن هجمات اسرائيلية على محاذاة الشاطىء الغربي للبحيرات المرة ، وهجمات معاكسة مصرية تقوم بهـا وحدات احتياطية والوحدات المحدودة الموجودة على مؤخرة الجيش الثـالث . وكانت مواقع المصريين في هذه المنطقة غير متكاملة نظراً لأنهـا تقابل البحيرات المرة التي اعتبرتها القيادة المصرية محوراً ثانوياً لا يُتوقع عبور العدو منه. لذا استطاعت

قوة شارون التقدم باتجاه مدينة السويس . أما معارك الضفة الشرقية فكانت عبارة عن هجمات معاكسة شنتها وحدات من الجيشين المصريين الثاني والثالث بغية قطع طريق قوات شارون ، وعزلها عن كبد القوات الاسرائيلية العاملة في سيناء . ولقد استطاعت القوات البرية الاسرائيلية بالتعاون مع الطيران والهليكوبترات المسلحة صد هذه الهجمات. وبقي الممر الواصل بين الدفرسوار وسيناء مفتوحاً تتدفق عليه القوات المتجهة الى الضفة الغربية . وفي يوم ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ، وهو يوم وقف إطلاق النار رسمياً بنـاء على قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ ، كان حجم القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية قد بلغ ٢٥ – ٣٠ الف رجل وحوالي ٣٠٠ دبابة ، وكانت هذه القوات قد وسعت الجيب حتى وصل الى عمق ٢٠ – ٢٥ كيلومتراً ، وامتد في الشمال الى مسافة عدة كيلومترات من طريق القاهرة الاسماعيلية ، وامتد في الجنوب حتى بعد ١٠ كيلومترات من مدينة السويس . وطهرت هـــذه المنطقة من الدفاعات الأرضية المضـــادة للطائرات . واستولت على عدد من المطارات المصرية (فايد ، وكبريت ، وكسفريت) واستخدمتها لإمداد قوة شارون بالمعدات والذخائر والأسلحة .

ولقد وجدت القيادة الاسرائيلية أن إيقاف اطلاق النار في ذلك الوقت يعني وضع قوة شارون في موقف حرج دون التوصل الى تحقيق أغراض الثغرة ، لذا أصدرت هذه القيادة أوامرها بمتابعة التقدم . واستغلت قوة شارون الوضع الجديد الناجم عن توقف القتال والدعم الجوي الكبير الذي أمكن الحصول عليه فتابعت تقدمها بسرعة ووصلت الى مشارف مدينة السويس بعد ظهر (٢٣/١٠) ، واحتلت ميناء الأدبية (على خليج السويس) في صباح (٢٤/١٠) ، وأكملت الطوق حول مدينـة السويس ووحدات الجيش الثالث الموجودة على الضفة الشرقية للقناة ، رغم صدور قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ الذي يؤكد ضرورة إيقاف القتال فوراً .

وفي يوم ٢٤ حاول الاسرائيليون دخول مدينة السويس ، ولكن قوات الجيش الثالث المتمركزة فيهـا استطاعت إيقافهم بالتعاون مع قوات المقاومة

الشعبية . ولكن الاسرائيليين تابعوا الضغط على مدينــــة السويس في يوم (١٠/٢٤) بدون جدوى ، الأمر الذي أدى الى توتر الجو العـــالمي بشكل خطير . وأعلن الرئيس الاميركي نيكسون استنفار القوات الاميركية الاستراتيجية (النووية) المنتشرة في جميع أنحاء العالم في (١٠/٢٤) ، وادعى أن هذا التدبير عبارة عن إجراء وقائي ، اتخذه بعـد ورود معلومات تفيد بأن السوفيات أعدوا قوة محمولة جواً (٤٠ الف جندي) للتدخل وإيقاف القتال بالقوة . ووسط هذا الجو المنذر بصدام عالمي ، اجتمع مجلس الأمن في (١٠/٢٤) وأصدر قراره رقم ٣٤٠ مؤكداً ضرورة إيقاف القتال فوراً والعودة الى خطوط ١٩٧٣/١٠/٢٢ . ورغم إعلان الاسرائيليين عن استعدادهم لإيقاف القتال فقد هاجموا السويس في صباح ٢٥ ، ولكن هجومهم باء بالفشل بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة . وتوقف إطلاق النار على الجبهة الجنوبية في الساعة الثالثة وخمسين دقيقة من بعد ظهر يوم ١٩٧٣/١٠/٢٥ . وانتهت بذلك مرحلة عنيفة من مراحل الصراع العربي – الاسرائيلي الطويل .

٣ – تحول الاستراتيجية العربية من الدفاع الى الهجوم(*)

« إن تعلق الحرب بالسياسة يجعلها تأخذ بالضرورة صفتها . فإذا كانت السياسة عظيمة قوية ، كانت الحرب كذلك » .

(كلاوز فيتز)

كانت الحرب العربية – الاسرائيلية الأولى (١٩٤٨) حرباً مرسومة الحدود والأبعاد والأهداف ، قامت بهـا قوات عربية ترتبط ارادتها السياسة بشكل مباشر أو غير مباشر بإرادة الغرب، ضد قوات اسرائيلية تمثل جزءاً عضوياً من المعسكر الغربي الذي خلق اسرائيل كقاعدة أمامية مسلحة لحماية مصالحه. لذا كان حوار الارادات فيها محكوماً بإرادة واحدة « سامية » ، ولا يتسم بالعنف والديمومة اللذين تتميز بهما الحرب التي هي في جوهرها « عنف مدفوع الى حده الأقصى » . (كلاوز فيتز)

وكانت الحرب الثانية (١٩٥٦) حرباً انكليزية – فرنسية – اسرائيلية ، فرضت على مصر لمعاقبتها على تأميم القناة ، ومساندة ثورة الجزائر ، وتصعيد عمليات الفدائيين المنطلقين من قطاع غزة، وكسر حصار السلاح في عام ١٩٥٥، بالإضافة الى الرغبة في تقليص حجم القيادة المصرية ، ومنعها من الانفتاح على

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة **دراسات عربية** ، عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ ، (ص ٨ – ١٧) ، ولقد تم حذف جزء منها لتجنب التكرار .

العالم العربي ، وإعطاء اسرائيل منفذاً أميناً على البحر الأحمر . وكانت هذه الحرب، من ناحية مصر، دفاعية بحتة، على حين كانت من ناحية قوى العدوان الثلاثي هجومية في جميع المجالات . ولقد حقق العدو في هذه الحرب نجاحاً ملحوظاً فـــوق مسرح العمليات ، ولكن ضعف الفكرة السياسية الكامنة وراءها ، وتهديد السوفييت بالتدخل المسلح ، وأطماع الامبريالية الجديدة ورغبتها في أخذ مواقع الاستعمار القديم ، أفقدت النجاح العملياتي قيمته ، وانقلبت الحرب الى فشل استراتيجي عام ، تجسَّد بانسحاب المعتدين دون تحقيق معظم أغراضهم . وكان الرابح الوحيد من الحرب، اسرائيل التي أمنت حرية الملاحة في خليج العقبة تحت إشراف قوات طوارىء دولية تمركزت في شرم الشيخ .

وفي العام ١٩٦٧ شنت اسرائيل الحرب الثالثة بعد إعداد طويل وتأمين لكل شروط النصر . فلقد تلافت اسرائيل أخطاء الحرب الثانية ، ولم تعتمد على القوات الجوية لدول عظمى بغية إخراج السلاح الجوي المصري من المعركة، بل أعدّت سلاحها الجوي ليقوم بهذه المهمة بنفسه ، متحاشية بذلك إدخال طرف دولي في الصراع بشكل مكشوف، الأمر الذي يحرم الاتحاد السوفياتي من إمكانات التدخل المباشر .

ولقد استغلت اسرائيل ضحالة الاعلام العربي ، ونقض القاهرة لاتفاقية ١٩٥٧ الخاصة بحرية الملاحة في خليج العقبة ، وتجاهلها للتعهدات التي قطعتها على نفسها بعد حرب ١٩٥٦ والتي تمّ الانسحاب الاسرائيلي على أساسها ، وبَنَت على أسطورة خطر الإبادة سياسة إعلامية أكسبتها « المناورة السياسية الخارجية»، وأعطت للأميركيين ضمانات بقدرتها على إنهاء الحرب خلال أيام ، وقبل أن يستطيع الاتحاد السوفياتي التدخل بشكل فعّال . وعندما ضمنت الولايات المتحدة أن مصالحها متطابقة مع مصالح اسرائيل ، وأن المعركة ستكون قصيرة خاطفة ، أعطت الحكومة الاسرائيلية الضوء الأخضر واندلع القتال .

وكان القتال من ناحية العرب دفاعياً هذه المرة أيضاً ، على حين قام الاسرائيليون بالهجوم جواً وبراً وبحراً ، وحققوا نجاحاً كاملاً في مسارح العمليات ، ووقفوا عند حدود منيعة (الجولان – السويس – نهر الأردن) وبدأوا طرح مقولاتهم الخاصة بـ « السلام الاسرائيلي »، اعتماداً منهم على قوة الردع والقدرة على استغلال عامل الزمن لاستنزاف إرادة العرب وإجبارهم على الركوع وتوقيع صلح يكون نهاية آخر الحروب العربية – الاسرائيلية .

وتدخل الاتحاد السوفياتي لمنع الانهيار الكامل . وأُعيد تنظيم الجيوش العربية وتسليحها وتدريبها ، وحصلت دول المواجهة على دعم مالي عربي يؤمن لها استمرار الصمود ، وعاشت الأمة العربية حالة «اللاحرب واللاسلم»، ورأت اسرائيل أن بوسعها البقاء في هذه الحالة حتى يتم استنزاف الارادة العربية ، فأخذت موقف المماطلة والتعنت ، ورفضت كل المبادرات السلمية ، وتجاهلت قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ القاضي بانسحاب قواتها الى حدود ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وكانت تعتمد في موقفها على دعم سياسي – دبلوماسي – عسكري غير محدود ، قدمته لها الولايات المتحدة الاميركية التي بَنَت استراتيجيتها في المنطقة على المبدأ القائل بأن الهدوء في هذه المنطقة الحساسة من العالم وضمان مصالحها الحيوية فيها لا يمكن أن يتما إلا بفضل اسرائيل قوية قادرة على ردع جيرانها ومنعهم من شن الحرب ، أو الانتصار عليهم عند انخفاض مستوى الردع واندلاع القتال .

وفي ٦ تشرين الأول (اكتوبر) اندلعت الحرب الرابعة التي فاجأت القادة الاسرائيليين لأسباب سنشرحها في الدراسة القادمة . وكانت الحرب هذه المرة عربية، رسم العرب خطتها السياسية والعسكرية والإعلامية، وحددوا زمانها ومكانها وأسلوبها وأهدافها ، وجرّدوا العدو، في مراحلها الأولى على الأقل ، من المبادرة وحرية العمل . وقام العرب في هذه الحرب بالهجوم لأول مرة منذ عام ١٩٤٨ ، واضطر العدو الى استخدام الدفاع ، وكانت جميع هجماته خلال مختلف مراحل القتال عبارة عن هجمات معاكسة تكتيكية أو استراتيجية

تستهدف الصدّ أو الردّ دون أن تتحوّل الى هجوم مضاد شامل ، واسع النطاق .

ويعتبر هجوم القوات العربية (استراتيجياً) واضطرار اسرائيل للدفاع ، أهم تحوّل جذري في طبيعة الصراع. ولقد بدأ هذا التحول نسبياً في اسرائيل منذ أيام حرب الاستنزاف التي قرر الاسرائيليون فيها ، بمحض إرادتهم ، أخذ موقع دفاعي مريح يستند الى قناة السويس، بغية الإفادة من ميزة الدفاع لتخفيض عدد القطعات البرية المشتركة في حرب الاستنزاف الى أبعد حد ممكن ، وإقلال الخسائر بالمعدات والأفراد . ولم تتعرض الاستراتيجية العربية في تلك الحرب الى أي تحوّل ، ولم تنتقل من الدفاع الى الهجوم بمعناه الحقيقي (نار وصدمة) ، واكتفت القوات المصرية بالهجوم الناري فقط . وكانت حرب الاستنزاف في جوهرها حرب نيران من الطرفين تخللها بعض العمليات التعرضية التكتيكية المحدودة . فلقد قام المصريون بعبور القناة بوحدات مغاوير صغيرة لم تصل الى مستوى الكتيبة سوى مرة واحدة . وكانت غاية معظم هذه العمليات استطلاعية ، وقامت وحدات الضفادع البشرية المصرية بعملياتها ضد الزوارق الحربية الراسية في ميناء ايلات ، على حين قامت القوات الاسرائيلية بهجمات جوية على الجبهة ، وفي العمق ، لتدمير قواعد الصواريخ أرض–جو ، ولردع المصريين ومنعهم من العبور الى الضفة الشرقية، كما شنت عدداً من عمليات المغاوير المحمولين بالهليكوبتر (شدوان ، خطف الرادار .. الخ) وعملية الجزيرة الخضراء بالكوماندوس البحري ، وعملية الزعفرانة التي نفذتها مدرعات برمائية .

وبالرغم من كثافة نيران المدفعية المصرية في حرب الاستنزاف فقد كانت خسائر الاسرائيليين البشرية محدودة[1]، نظراً لقلة عدة الوحدات الاسرائيلية المنتشرة على الضفة الشرقية وتوزعها وحمايتها داخل تحصينات خط بارليف ،

---

(١) تذكر المصادر الاسرائيلية ان عدد القتلى الذين سقطوا في فترة ١٩٦٨–١٩٧٠ كان ٢٤٤ عسكرياً ، و ١٦ مدنياً . وليس هناك أرقام عربية رسمية حول هذا الموضوع.

كما كانت خسائرهم المادية معقولة ومقبولة،نظراً لأن مسرح العمليات كان بعيداً عن مناطقهم الآهلة بالسكان . أما بالنسبة الى المصريين ، فقد تكبدوا عدداً أكبر من القتلى ، وكانت خسائرهم بين المدنيين فادحة ، وخاصة عندما بدأ العدو قصف مدن القناة وقصف الأهداف المدنية والعسكرية في العمق (بحر البقر، أبو زعبل، المعادي، حلوان، مستودعات الخانكة، هايك ستيب، دهشور ، انشاص .. الخ) . ولقد اضطر المصريون تحت وطأة القصف الى تهجير سكان مدن القناة الى الداخل حفاظاً على حياتهم . ومن المؤكد أن المصريين خسروا ، على الصعيد المادي ، أكثر من الاسرائيليين ، لأن معارك المدفعية (القصف والقصف المعاكس) والهجمات الجوية الاسرائيلية تمت في منطقة القناة المأهولة بالسكان، والتي تضم كثيراً من المنشآت الاقتصادية الهامة والبترولية بصورة خاصة .

ولم يكن ميزان القوى الجوية يسمح للمصريين بالرد على ضربات العمق بضربات بالعمق. وكان الأميركيون يرون أن التفوق الجوي الاسرائيلي سيجبر القاهرة على إنهاء حرب الاستنزاف ، لذا قدموا لإسرائيل في عام ١٩٦٨ طائرات « سكايهوك » كما قدموا لها في عام ١٩٦٩ طائرات « الفانتوم » المتطورة . وكانت المعركة في جوهرها صراعاً بين الطائرات الاسرائيلية وقواعد الصواريخ أرض – جو « سام – ٢ » ، ولم يكن هذا الصاروخ مؤهلاً لمجابهة طائرات « الفانتوم » ، لذا بقيت السيطرة الجوية الاسرائيلية كاملة حتى دخل الصاروخ « سام – ٣ » المعركة (صيف ١٩٧٠) وبدأ تساقط طائرات الفانتوم ، وظهر من الواضح أن سيطرة اسرائيل على الأجواء لم تعد كاملة ، وأن عمليات القصف الجوي ستكلفها غالياً وستجبر الولايات المتحدة على تصعيد المجابهة وإرسال أجهزة الكترونية أكثر تطوراً لتشويش الصواريخ وخداعها ، الأمر الذي سيجبر الاتحاد السوفياتي على تصعيد مساعدته لمصر بإرسال صواريخ أحدث من « سام – ٣ » . وهنا جاء مشروع روجرز ، وأراد الرئيس جمال عبد الناصر كشف أبعاد اللعبة الأميركية وفضح المخطط

التوسعي الاسرائيلي ، فقبل المشروع ، وصمتت المدافع على القناة . وعاد الوضع العسكري في الشرق ليقع في مستنقع « اللاحرب واللاسلم » .

وسط هذا الجو الهادىء كانت غالبية الجيوش العربية تستعد لجولة مقبلة، وكانت القوات المسلحة الاسرائيلية تمرُّ في مرحلة بطالة كاملة ، وتعيش على أمجاد ١٩٦٧ ، وتؤمن إيماناً عميقاً بقدرتها على الردع وعجز العسكرية العربية عن تخطيط عملية عسكرية جادّة ، وتعتبر أن أية عملية عسكرية عربية مفتعلة ستنتهي بكارثة أفدح من كارثة ١٩٦٧ . واعتمدت تل ابيب على هذه المعطيات ، ورأت أن الزمن يلعب لصالحها ، لأن القيادات العربية واقفة أمام معضلة مزدوجة : فالانتظار في حالة « اللاحرب واللاسلم » يستنزف إرادتها وثقة الجماهير بها ويدفعها الى الاستسلام ، أما كسر الجمود بالحرب ، فإنه ينهي وجودها مادياً ومعنوياً ، ويثبت حقائق هزيمة ١٩٦٧ بهزيمة أخرى أشد خطورة .

وفي ٦ تشرين الأول (اكتوبر) استيقظ العقل الاسرائيلي من أوهامه على طلقات المدافع السورية والمصرية ، وتحركت القوات العربية ، واجتازت حدود وقف اطلاق النار ، إنه الهجوم . ولم تصدق اسرائيل ، ولم يصدق العالم ، وحتى العرب فإنهم لم يصدقوا عيونهم وآذانهم . لقد تحوّل العرب الى الهجوم، وشنوا الحرب كما يجب أن تكون الحرب ، فكيف وقعت المعجزة ؟

◇◇◇◇◇◇

تمثّل العمليات العسكرية التجسيد المادي العملي على أرض القتال للمخطط الاستراتيجي الذي يوضع تصميمه الأساسي لخدمة هدف سياسي محدد بدقة . ولقد بدا من الواضح أن الحرب الأولى التي خاضتها الدول العربية المستقلة نسبياً في العام ١٩٤٨ لم تكن تملك هدفاً سياسياً واضحاً ومشتركاً . لذا كانت استراتيجيتها ، من الناحية العربية ، غير موحدة ، وكانت عملياتها العسكرية بالتالي غير متناسقة في الزمان والمكان . ثم جاءت فترة ١٩٤٩ – ١٩٦٧ ، وكانت الفكرة السياسية العربية خلالها مبنية على المرتكزات التالية : ١ – ان اسرائيل دولة قائمة ومعترَف بها دولياً ولا يمكن التعرض لحدودها

القائمة . ٢ – ان الامبريالية العالمية تحمي «الدولة–القاعدة» وستهبّ لنجدتها عند التعرّض لأي خطر. ٣ – ان الدول العربية غير قادرة على مناطحة الامبريالية وقواها العسكرية العاملة في المنطقة . ٤ – ان الحفاظ على الوضع الراهن ومنع اسرائيل من التوسع هو أقصى ما تستطيع الدول العربية القيام به.

ولقد انعكست هذه الفكرة السياسية على الاستراتيجية العسكرية العربية التي غدت استراتيجية دفاعية بحتة ، جاء التفوق العسكري المعادي ليجعلها مبنية على « الصد » دون « الرد » خوفاً من التصعيد . وترجمت الدول العربية استراتيجيتها على أرض المعركة بنشر قواتها داخل مخافر دفاعية موزعة على الحدود ، وبَنَت لقواتها المنتشرة التحصينات الميدانية المدعومة بالأسلاك الشائكة والألغام ، دون أن تزودها بالوسائط والمعدات اللازمة للدفاع الديناميكي ، الأمر الذي أكسب القوات العربية مع الزمن روحاً دفاعية مستكنّة ، وحرمها من مزايا الروح التعرضية الهجومية ، وخفض مستوى تدريبها العام ومستوى تدريبها الهجومي بصورة خاصة . وبقي هذا الوضع سائداً حتى اندلاع حرب ١٩٦٧ .

وإذا كانت عقيدة العرب الدفاعية مبنية على ضرورة المحافظة على «الوضع الراهن» وعدم السماح للعدو بخلق وضع جديد أسوأ ، فقد كانت عقيدة العدو الهجومية منبثقة من سياسته التوسعية العدوانية ، ومن مهمته « كشرطي » مكلف بقهر العرب واستنزاف قواهم وإجهاض كل احتمالات تقدمهم ووحدتهم، ومن عدم اهتمام تل ابيب بالحفاظ على « الوضع الراهن » ، واستعدادها على العكس لخلق حقائق توسعية جديدة تحولها مع الزمن الى حقائق مقبول بها عربياً ودولياً .

وفي حرب ١٩٦٧ احتلت اسرائيل ما تبقى من الأرض الفلسطينية ، كما احتلت أراض عربية أخرى ، وطرحت السلام من موقع القوة ، وطالبت العرب أن يفاوضوها والمسدس مصوب الى رؤوسهم ، وانتظرت أن يتصل بها الحكام العرب طالبين تحديد موعد للمباحثات الفورية المباشرة .

ولم يكن بوسع الدول العربية المعنية (مصر وسورية والأردن) السكوت عن هذا الوضع الى مـا لا نهاية . وكانت الجماهير تطالبها بتحرير الأرض التي يرفض العدو التخلي عنها بالوسائل السلمية ، رغم قرارات مجلس الأمن، ورغم إجماع معظم دول العالم على ضرورة الانسحاب الى حدود ٥ حزيران(يونيو)، ورغم جميع المبادرات الدولية والعربية، والوساطات والضغوط السياسية التي مارستها دول اوروبية وآسيوية وافريقية . ولكن تحرير الأرض لا يتم عن طريق الدفاع ، ومـا الدفاع في حد ذاته سوى مرحلة من مراحل الهجوم . وهو بالتحديد مرحلة الاعداد التي يتم فيها حشد القوى المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق التفوق المطلوب لنجاح الهجوم . بيد أن الهجوم ، في عالمنا المعاصر، ووسط الأوضاع والمصالح الدولية المتداخلة ، وإمكانية تحوُّل أي صراع محلي محدود الى صراع عالمي ، يتطلب من المهاجم امتـلاك عاملين رئيسيين : **فكرة سياسية** عـادلة مبنية على هدف عادل يمكن طرحه داخلياً وخارجياً لاكتساب المناورتين السياسيتين الداخلية والخارجية ، و **قوة مادية ومعنوية** (أداة) قادرة على البدء بتنفيذ هذا الهدف ، ومتابعة التنفيذ وتعديل أساليبه عند تبدل الظروف الدولية وظهور عوامل جديدة في الصراع .

وكانت الدول العربية تملك **الفكرة السياسية** الصحيحة المبنيـة على هدف عادل تؤيده الجماهير العربية، ويقرّ بعدالته الرأي العام العالمي الذي عجز عن إجبار اسرائيل، المدعومة من قِبل الولايات المتحدة الأميركية، على الانسحاب من الأراضي المحتلة . وإذا كان الرأي العام العالمي قـد وقف في الماضي ضد العرب عندما طرحوا مقولة اجتياح اسرائيل وإلقاء اليهود في البحر، وتعاطف مع هـذه الدولة الديمقراطية الحضارية (!) التي يودّ جيرانها تدميرها وإبادة سكانها ، فإن شرائح واسعة منه أصبحت تعارض، بعد حرب ١٩٦٧ ، الخطة الاسرائيلية الرامية الى الاستيلاء على أراضي الغير بقوة السلاح ، وتعتبر أن تعنت اسرائيل وصلفها ، اللذين أخذا يضايقان شعوباً كثيرة، هما سبب التوتر في الشرق الأوسط ، ويحتمل أن يؤديا الى نزاع يصعب ضبطه وتحديد القوى العالمية التي ستشترك فيه .

ولقد استطاع العرب اكتساب «المناورة السياسية الخارجية» بمهارة بالغة، وتمكنت الدبلوماسية العربية من شرح الموقف العربي وكشف النوايا الاسرائيلية العدوانية في جميع أرجاء العالم . وساعدها على النجـاح بساطة الفكرة التي تطرحها، وغطرسة الساسة الاسرائيليين الذين أعماهم النصر العسكري والدعم الأميركي ، فبدأوا يتصرفون بشكل استقطب سخط العـالم عليهم ، وأكد عدوانيتهم وتعصبهم واستعدادهم لوضع العـالم على فوهة بركان ذري في سبيل تحقيق مآربهم . ولقد أعطى العـالم كله للعرب حق استعادة أراضيهم بقوة السلاح لتحقيق هدفهم السياسي العـادل ، بل ان الكثير من الدول كان يغمز من جانب الدول العربية التي تفرط بحقها المشروع ، لأنهـا تكتفي بالأساليب السياسية ، ولا تلجأ الى الأساليب العنيفة الأخرى (الحرب) لانتزاع هـذا الحق طالما أن « الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى » وطالما أن جميع الوسائل – باستثناء الحرب – قد استخدمت من قِبل العرب دون جدوى . وعندما وجّه بعض الساسة العرب اللوم الى الاتحاد السوفياتي لأنه يمنع العرب من الحرب لاستعادة أراضيهم ، ردّ الاتحاد السوفياتي بأن من حق العرب أن يلجأوا الى أية وسيلة لاستعادة الأراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب١٩٦٧. وأدى نجاح « المناورة السياسية الخارجية » الى عزل اسرائيل دولياً، ولم يعد لتل ابيب من حليف سوى الولايات المتحدة وعـدد من الدول العنصرية أو التابعة سياسياً لواشنطن . وانتزع العرب من العالم الراغب بالسلام والمعادي للعدوان ، الموافقة الضمنية على شن الهجوم ، مع اعتبار هذا الهجوم عملاً غير عدواني ، لأنـه يستهدف إستعادة أرض مغتصبة يرفض العدو إعادتها ، ويستخدم السلاح للاحتفاظ بها وتهويدها .

وكان كسب « المناورة السياسية الداخلية » أسهل بكثير من كسب « المناورة السياسية الخارجية » ، فالجماهير العربية معادية للوجود الصهيوني أصلاً ، ومؤيدة لأي عمل هجومي يحرر الأرض العربية مهما غلت التضحيات اللازمة له . ولم تكن هذه الجماهير في أية لحظـة بحاجة لمن يقنعها بضرورة القتال حتى تحرير كامل تراب الأرض المغتصبة ، بل كانت على العكس بحاجة

لمن يقنعها بأن إزالة آثار العدوان وتحرير الأرض المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ هما كل ما يمكن أن تطمح الدول العربية بتحقيقه في ظل الظروف الدولية الحاضرة ، وموازين القوى في العالم ، ووسط حرص القوى العالمية (الصديقة والمعادية) على بقاء اسرائيل كدولة لها كيانها وحدودها المعترف بها ، وإن اختلفت هذه القوى في فهم طبيعة هذه الدولة ودورها في المنطقة .

وفي الوقت الذي كانت به الدول العربية تعمل ما في وسعها لكسب « المناورة السياسية الخارجية» كانت جمهورية مصر العربية والجمهورية العربية السورية تعدّان القوة اللازمة للتحرير ، وتحولانها من العقيدة العسكرية الدفاعية الى العقيدة العسكرية الهجومية . وساعدهما الاتحاد السوفياتي خلال مرحلة الإعداد والتحول ، وقدم لهما الأسلحة والتدريبات اللازمة ضمن إطار سياسته لدعم حركات التحرر العالمية، وضمن إطار استراتيجيته وفهمه لطبيعة اسرائيل كقاعدة امبريالية ، ورغبته في عدم الصدام مع الولايات المتحدة وتهديم سياسة الوفاق بشكل نهائي .

وبَنَت كل من سورية ومصر جيشاً هجومياً، وحشدت الأسلحة والذخائر والمعدات بحجم هجومي ، وأمّنت تنسيق مختلف الأسلحة المتوفرة لديها لتخلق من منظومة الأسلحة قوة هجومية قادرة على تنفيذ مهماتها والتقدم في عمق الأراضي المحتلة، رغم ظروف التفوق الجوي الاسرائيلي، وطورت قواتها المحمولة جواً ووحدات العبور والجسور (وخاصة في مصر) لتأمين عبور المانع المائي الذي يستند اليه دفاع العدو، ورسمت خطة القتال على «الخطوط الخارجية » مع الإفادة الى أبعد مدى عن عمل الجبهتين الشمالية والجنوبية معاً بتناسق كامل يحرم اسرائيل من ميزات العمل على « الخطوط الداخلية» بحرية كاملة . ولقد أدى تنسيق عمل الأسلحة المتوفرة داخل منظومة هجومية الى تبديد كل الأوهام حول الأسلحة الدفاعية والأسلحة الهجومية، وتأكيد مقولة إمكانية استخدام كافة الأسلحة في الهجوم والدفاع وفق المنظومة التي تضمها، والخطة التي توضع لعملها ، وحجم القوة النارية التي تمثلها ، ونسبة التفوق التي تحققها .

وهكذا أدى تحول الوضع السياسي والجغرافي بعد حرب ١٩٦٧ الى تحول الهدف السياسي العربي . وخلق الهدف السياسي الجديد استراتيجية سياسية وعسكرية هجوميتين جديدتين . ولما توفرت الظروف الملائمة ، وفشلت المحاولات السياسية ، وضمنت الدول العربية المعنية تعاون العرب معها واستعدادهم لاستخدام وزنهم الاقتصادي (البترولي – المالي) في المعركة ، وتكاملت قوة « المطرقة » ، وتبلورت « إرادة » القتال ، ارتفعت الذراع العربية لأول مرة منذ ٢٥ عاماً وهوت « المطرقة » على الآلة العسكرية الاسرائيلية مسددة لها أخطر ضربة مادية ومعنوية أصابتها في الصراع العربي – الاسرائيلي . وأخذت الحرب من جانب العرب شكل الحرب الحقيقية ، لأن الحرب في جوهرها هجوم ، ولا تحقق أهدافها الإيجابية إلا بالهجوم، ولا يستطيع الدفاع فيها أن يحقق سوى أهداف سلبية لا تطمح الى أكثر من حرمان العدو من تحقيق أغراضه . وقد يفيد الدفاع الى حد ما الدول الراغبة في حماية أراضيها من غزو المعتدين الخارجيين ، أما الدول التي فقدت جزءاً من أراضيها ، فوسيلتها الحربية الوحيدة هي الهجوم ، وتسديد الضربات لقوات العدو المسلحة وبنيته الاقتصادية حتى تنهار مقاومته أو يضطر الى التخلي عن الأرض بعد أن يرى أن الاحتفاظ بها يكلفه ثمناً باهظاً لا يستطيع احتماله .

٤ ـ المفاجأة العربية في الحرب الرابعة(*)

« لقد فاجأونا ! لقد أمسكوا بنا ونحن في سراويلنا الداخلية ! لقد أمسكونا ونحن في قمة سعادتنا وثقتنا ، عندما كنا نثق بقوتنا اكثر مما ينبغي ، وعندما كنا نعتقد اننا نستطيع ضرب أي عدو في ستة أيام » .
(رفل بنكلر – عل همشمار ٧٣/١٠/٩)

المفاجأة مبدأ أساسي من مبادىء الحرب ، ومحور ترتكز عليه الخطة العسكرية بجميع مستوياتها الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية . وليس في التاريخ العسكري قائد ناجح لم يحاول استغلال المفاجأة لقلب التوازن النفسي داخل معسكر الخصم ، لان قلب هذا التوازن يحدد بداية النصر .

وتتحقق المفاجأة عادة بعدة أشكال، فقد تكون مفاجأة في مكان الضربة الرئيسية (محور الجهد الرئيسي) ، أو في زمان هذه الضربة (لحظة بدء العمل) ، أو باستخدام سلاح جديد، أو باستخدام سلاح قديم بأسلوب جديد لا يتوقعه الخصم . وإذا كان الالمان قد فاجأوا الاتحاد السوفياتي بتاريخ بدء عملية باربا روسا في حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، وفاجأوا الفرنسيين في ايار (مايو) ١٩٤٠ بمكان الضربة الرئيسية في منطقة الاردين التي قدر الفرنسيون

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة **شؤون فلسطينية** ، عدد ٣٢ ، ابريل (نيسان) ١٩٧٤ ، ص ٩ – ٢٩ .

عدم صلاحيتها لهجوم مدرع كبير . فقد فاجأ اليابانيون الاسطول الاميركي في بيرل هاربور (كانون الاول ١٩٤٣) مفاجأة جمعت عاملي الزمان والمكان. واذا كان الحلفاء قد فاجأوا الالمان في الحرب العالمية الاولى باستخدام الدبابات لخرق الخطوط الدفاعية في معركة السوم (١٩١٦) ومعركة كامبري (١٩١٧)، فقد رد الالمان المفاجأة في الحرب العالمية الثانية عندما استخدموا سلاحاً معروفاً (الدبابة) بأسلوب جديد هو أسلوب الكتل المدرعة الضخمة (فرق وفيالق) العاملة بتعاون وثيق مع القاذفات المنقضة من طراز « شتوكا » .

وتعتمد المفاجأة اكثر ما تعتمد على الخدعة ، والسرية ، وسرعة الحركة ، ودقة المعلومات ، ودراسة عقيدة الخصم العسكرية ، والقدرة على فهم عقليته واسلوب محاكمته وطبيعة ردود فعله . ويكمن جوهر كل مفاجأة في القيام بعمل حاسم غير متوقع، بعد دفع العدو الى اتخاذ تدابير يظنها جيدة وملائمة ، ثم يكتشف خلال القتال انها ليست غير ملائمة فحسب ، بل تعرقل القيام بالاعمال المضادة الملائمة أيضاً .

وللمفاجأة في الصراع العربي – الاسرائيلي تاريخ حافل يستحق الدراسة بكثير من العناية ، لانه يجسد في الحقيقة **تباين مفهومين ، وحضارتين ، وأسلوبين في التفكير** ، ولقد استخدم الاسرائيليون المفاجأة على نطاق واسع في الحروب الثلاث الاولى (٤٨ – ٥٦ – ٦٧) وفي العمليات المحدودة الانتقامية التي جرت في الفترات الواقعة بين هذه الحروب ، على حين لم يلجأ العرب على المستوى الاستراتيجي الى هذا العامل الفعال اللازم لتحقيق النصر. ففي حرب ١٩٤٨ التي كانت العمليات العربية في بدايتها هجومية ، أعلنت الحكومات العربية بشكل مسبق بأن تاريخ بدء الهجوم سيكون في ١٥ ايار (مايو) ، ففقدت بذلك عنصر المفاجأة بالزمان . ثم قامت بالهجوم بشكل جبهي وعلى المحاور المتوقعة ففقدت عنصر المفاجأة بالمكان ، دون أن تعوض ذلك بمفاجآت اخرى كنوع السلاح أو اساليب استخدامه التي كانت اساليب تقليدية يعرفها العدو . ومارس العدو في هذه الحرب – حتى في مراحلها الدفاعية الاولى – مختلف أساليب المفاجأة، مستخدماً الليل والحركة والمحاور

غير المتوقعة لتسديد الضربات المعاكسة . ثم استخدم المفاجأة على نطاق أوسع بعد الهدنة الثانية عندما تحول الى الهجوم. وتمثلت مفاجآته باستخدام الطيران ومجموعات الدبابات (مفاجأة بالسلاح) وباستخدام الليل والمحاور غير المتوقعة وضرب المجنبات (مفاجأة باسلوب استخدام السلاح) . وفي حرب ١٩٥٦ انتقلت المفاجأة الى يد العدو الذي حقق المفاجأة بالزمان ، والمفاجأة بحجم القوات ، وساعده على ذلك تواطؤ فرنسا وبريطانيا معه بشكل جعل الجيش المصري يضطر لمجابهة قوات تفوق توقعاته . وعندما توتر الموقف في ايار (مايو) ١٩٦٧ تصرفت مصر بشكل تظاهري ، وأعلنت عن حشد قواتها في سيناء وقطاع غزة ، وحركت القوافل العسكرية عبر القناة في وضح النهار لتحقيق الردع ومنع اسرائيل من العدوان على سورية، على حين استخدم العدو الخدعة الدبلوماسية والعسكرية ، فتظاهر بالضعف والرغبة في الدفاع ليشن الهجوم في لحظة كان المصريون يستعدون خلالها لإرسال زكريا محي الدين نائب رئيس الجمهورية الى واشنطن لمقابلة المسؤولين الاميركيين والتباحث معهم حول شروط تخفيف حدة التوتر. واندفع الطيران الاسرائيلي كله لتدمير الطائرات العربية الجاثمة على الارض ، ثم طبق العدو في العمليات البرية في سيناء عدداً من المفاجآت التكتيكية (القتال ليلاً ، تموين الدبابات المتقدمة بالمحروقات بواسطة الهليكوبتر ، انزال المظليين وراء مواقع المدفعية ، التقدم عبر مناطق رملية يعتبرها المصريون غير صالحة لعبور الآليات، استخدام القنابل الانزلاقية لتدمير مدارج المطارات ... الخ) .

وفي ٦ تشرين الاول (اكتوبر) انطلقت القوات المصرية والسورية من مواقع حشدها ، واخترقت خطوط العدو الدفاعية، محققة بذلك أول مفاجأة استراتيجية عربية في هذا الصراع الذي دام ٢٥ عاماً .

وكانت المفاجأة العربية كبيرة أخذت داخل المجتمع والجيش الاسرائيليين حجم « هزة أرضية » مدمرة **وإن لم تكن تتمتع بشمولية كشمولية مفاجأة ١٩٦٧** . ولقد زاد من أهميتها أنها أصابت مجتمعاً « اسبارطيا » متحفزاً يقدم ضرورات الامن على كل ما عداها ، ويعيش كقلعة صليبية مزروعة

بشكل مفتعل وسط منطقة معادية ترفضه وتكن له عداء مكشوفاً . ويذكر البرفسور يعقوب تلمون استـــاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية وعضو الاكاديمية الاسرائيلية للعلوم: « تمثل امامنا معضلة خطيرة: منذ جيلين وثلاثة أجيال ، عشنا بايمان مشبع بالقلق بأننا محاطون بأعداء هدفهم القضاء علينا ، وأنهم لن يتوانوا عن تحقيق هــذا الهدف أبداً . لقد كررنا على مسامعنا الحقيقة المريعة لنا ، وهي أن خسارة في معركة واحدة تعني ، في وضعنا الخاص ، الدمار العام . وكانت اعتبارات الامن هديا لنا حيثما توجهنا وفي كل زمان . وكان كل شيء يخضع لقضية الحياة والموت . واذا ، كيف حدث أن وجدتنا حرب يوم الغفران غير مستعدين وغير متأهبين مع أن دلائل التحذير لم تنقص ؟ » (١) .

لقد كان هناك بالفعل تحذير من الاستخبارات الاسرائيلية والاميركية ، وكانت القوات الاسرائيلية النظامية مستنفرة منذ رأس السنة العبرية ومعركة ١٣ ايلول الجوية ، ومع هذا وقعت المفاجأة بشكل مذهل . وأُخذت المواقع الاسرائيلية في سيناء وعلى هضبة الجولان على حين غرة ، وفوجئت باندلاع الحرب مفاجأة كاملة. فلقد ذكر الاسير شومي باروخ الذي سقط بيد القوات المصرية في يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) عندما ظهر على شاشة التلفزيون المصري في مساء ٧ تشرين الاول « لقد كانت مفاجأة لنا أن نجد المصريين فوق رؤوسنا » ... « اننا فوجئنا فعلاً بالمعركة ولم يدر هذا في تفكيرنا أبداً » (٢) .

ويذكر مراسل صحيفة **الفيغارو** « عند الظهر – يوم ٦ تشرين الاول – بدأ جنود اسرائيل عند جبهة قناة السويس يتململون بسبب قرار الطوارىء القصوى الذي صدر لهم ، فالهدوء كامل، والصمت مطبق . ومن غير المعقول أن يبدأ الجيش المصري هجومه عند الظهيرة ... وبـــدأ الجنود والضباط

(١) هارتس ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
(٢) Le Figaro , 8 . 10 . 1973

يتخلون عـــن مواقعهم ، واخذت أصابعهم تخف عن زناد بنادقهم الموجهة فوهاتها الى ... الى لا شيء يتحرك أمامهم ! وترك بعضهم مدفعه وأخذ يغسل ملابسه . واستلقى البعض الآخر ليرتاح ، أو ليكتب خطابا الى أسرته بمناسبة العيد الديني الكبير . أما جنود موقع « دورا » – جنوبي مدينة القنطرة شرق – فانهم بدأو مباراة في كرة القدم لتسلية أنفسهم ، وقتلاً للوقت الذي يمر في هدوء وخمول ... وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر كان الجندي الثاني صموئيل يقفز قفزة عالية ليلتقط الكرة قبل أن تخترق شبكة المرمى الذي يحرسه، وإذا به يطلق صرخة عائية « طائرات! طائرات!»... وكانت تمر فوق ملعب كرة القدم ٤ مقاتلات مصرية من طراز ميغ ٢١ على ارتفاع بسيط جداً من سطح الارض، قادمة من الضفة الغربية للقناة ، متجهة الى أعماق سيناء . وقبل أن يعلق أحد من لاعبي الكرة كانت المدفعية المصرية تضرب ضربتها الأولى » (١) .

هكذا بدأت الحرب الشاملة وتمزقت حالة « اللاحرب واللاسلام » وانهارت خطوط وقف القتال التي نادى وزير الدفاع موشي دايان قبل الحرب بشهرين فقط بضرورة تعزيزها والوقوف عندها « حتى يصبح العرب مستعدين للجلوس معنـــا الى طاولة السلام » (٢) . والتي كان يشعياهو جافيتش قائد القوات الاسرائيلية في سيناء اثناء حرب ١٩٦٧ قد وصفها بأنها « أفضل مواقع على الخطوط الامامية تمتعت بهـــا (اسرائيل) في أي وقت من الناحية العسكرية » (٣) .

ويرجع تاريخ اتخاذ القرار العربي بالعودة الى القتال الى مطلع عام ١٩٧٣. ومن المؤكد أن هذا القرار لم يغب عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ نهاية حرب الاستنزاف (١٩٧٠) ، كما لم يغب عن الرئيسين السادت والاسد

(١) نقلتها أخبار اليوم ١٩٧٣/١٠/١٠ .
(٢) يديعوت احرونوت ، ١٧٧٣/٨/١٠ .
(٣) (ر . أ . أ) ، ١٩٧٢/١١/٢٢ .

منذ تسلمها منصب رئاسة الجمهورية ، لكن المساعي الدبلوماسية والسياسية كانت تحتل المكانة الرئيسية في جدول افضليات الصراع . وكان انتقال قرار القتال الى المرتبة الأولى يتطلب إعادة بناء الجيشين المصري والسوري ورفع كفاءتها القتالية ، وخلق الوضع العربي الملائم لحرب شاملة تستخدم فيها كافة الاسلحة العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وظهور وضع دولي ملائم لا يتعارض مع شن القتال لاستعادة الاراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧، أو خلق الضغط العسكري الذي يحرك الوضع السياسي المستنقع ، ويعيد الحياة الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي عطلت الولايات المتحدة واسرائيل تنفيذه. ويبدو أن الرئيس السادات اتخذ مثل هذا القرار في العام ١٩٧١ (عام الحسم)، ثم عدل عنه بعد ظهور متغيرات جديدة . ولكن الفكرة بقيت كامنة تنتظر اللحظة المناسبة . وبقيت المساعي السياسية – الدبلوماسية « الوسيلة العربية الأولى » لاستعادة الاراضي المحتلة . ومهما قيل في تهديدات الرئيس السادات بخصوص عام الحسم ، فان من المعتقد ان المتغيرات الجديدة التي منعت الجيش المصري من بدء القتال في العام ١٩٧١ كانت في الأساس متغيرات دولية ، أعطت الرئيس المصري شيئاً من الامل بامكانية الحصول على هدف الحرب عن طريق السياسة .

وكان الاسرائيليون يعرفون أن الضغط الشعبي العربي، والرغبة في استعادة الاراضي المحتلة والكرامة المهدورة ، ورفع شعار « ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » ، وتشدد السوفيات في مسألة عدم شرعية احتلال اراضي الغير بالقوه وعدم استعدادهم للتساهل في هذه المسألة التي يمكن أن تخلق سابقة خطيرة في أماكن اخرى حساسة من العالم ، واتجاه العالم نحو تأييد مبدأ « اعادة الاراضي المحتلة مقابل السلام » عبارة عن عوامل ضاغطة ستدفع مصر وسورية الى الحرب .

ولكن القادة الاسرائيلين كانوا **يرحبون** بهذه الحرب بتصريحات يمتزج فيها التبجح بالسخرية ، فلقد صرح رابين وبارليف وجافيتش وحتى ابا ايبان، بأن اتخاذ قرار الحرب من قبل العرب يعني « انتحار جيوشهم » ولن يؤدي

الا الى تعرضهم « لهزيمة محققة » . وصرح ييجال آلون في نهاية عام ١٩٧١ « ان محاولة المصريين عبور القناة سوف تكلفهم خسارة ٧٥٪ من قواتهم ،على حين ستجبر باقي القوات على التراجع » [1] ، ثم عاد بعد ذلك ليؤكد « أنه ليس في استطاعة الجيوش العربية الحصول على دونم واحد من الارض بقوة السلاح » [2] . ولم يكف دايان عن التهديد في هذا المجال ، حتى أنه أنذر الجيش المصري في منتصف عام ١٩٧٢ بهزيمة كاملة ، وصرح بأن هذا الجيش « سيجد نفسه في مقبرة كبيرة تتناثر فيها معداته العسكرية في حالة محاولته عبور قناة السويس . وهذا أمر بعيد الاحتمال » [3] . وبقيت هذه الفكرة سائدة في الأوساط الاسرائيلية حتى عشية الحرب ، ويذكر زئيف شيف المحرر العسكري لصحيفة «هآرتس » : « أن الخوف من أن يفاجىء المصريون اسرائيل بهجوم شامل خوف ضعيف جداً . وعلى الرغم من أن معظم الجيش (المصري) محتشد في منطقة الجبهة، فان عليه أن يقوم بعمليات مسبقة قبل شن هجوم شامل » [4] .

ومنذ مطلع العام ١٩٧٣ وصلت الاستعدادات العسكرية المصرية والسورية الى المستوى المطلوب ، وأنهت تدريباتها على الاسلحة والمعدات الحديثة التي زودها بها السوفيات ، وارتفع صوت القوات المسلحة مطالباً بالقتال بعد أن غدا الوضع « لا يحتمل » . ومع هذا تابعت القيادة المصرية المساعي الدبلوماسية . وكانت آخر هذه المحاولات قبل اتخاذ قرار القتال ، هي محاولة شباط ١٩٧٣ عندما قام حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات للامن القومي بجولة شملت لندن وبون وموسكو وواشنطن . وكان اسماعيل يحمل معه تفاصيل خطة دبلوماسية يمكن أن تنهي الأزمة بحل سلمي عادل . بيد ان خطاب رئيسة وزراء العدو في نادي الصحافة الاميركي بواشنطن ، واعلان

---

(١) رويتر ، ١٩٧١/١٢/٣ .
(٢) (ر . أ . أ) ، ١٩٧٢/١٠/٢٠ .
(٣) (ر . أ . أ) ، ١٩٧٢/٥/٢٦ .
(٤) هآرتس ، ١٩٧٣/٥/١٨ .

واشنطن عن تزويد اسرائيل بـ ٤٨ طائرة «فانتوم» و٤٨ «طائرة سكايهوك» أكدا عدم جدوى الاستمرار في الخطة الدبلوماسية . وبعد عودة حافظ اسماعيل من جولته بدأ التحول الجذري في الموقف العربي ، واتخذ قرار القتال في مصر وسورية منذ شهر شباط ١٩٧٣ (١) .

وفي ١٩٧٣/٣/٢٦ صرح الرئيس السادات امام مجلس الشعب ان المعركة هي « الطريق الوحيد » وأن الاعداد لها قد بدأ . وبعد أيام أعلن الرئيس السادات نفسه حاكماً عسكرياً . وفي اليوم الثاني من شهر نيسان (ابريل) عقد اجتماع عسكري موسع للقيادات المصرية . ثم زار الفريق اول أحمد اسماعيل وزير الحربية المصري دمشق في ٨ أيار(مايو)، وتلا هذه الزيارة قيام الرئيس السادات بزيارة دمشق في يوم ١٩ من الشهر نفسه ثم في ١٢ من الشهر التالي . وكانت الوفود العسكرية والمبعوثون العسكريون يتنقلون بين القاهرة ودمشق.ولقد أبدت القيادة السورية موافقتها التامه على المشاركة في أية حرب تخوضها مصر. ولكن الخطة النهائية لم تحدد على ما يبدو الا في يوم ١٥ ايلول (سبتمبر) ، خلال اجتماع الرئيسين السادات والاسد . وبقيت الخطة سرية حتى الايام الاخيرة ، ولم يطلع عليهـا سوى القيادات العليا التي بدأت تعد الخطط التفصيلية تحت غطاء الاعداد لمناورات الخريف . وكان موعد بـدء العمليات محدداً في يوم ٢٦ ايلول (سبتمبر)، ثم أجل حتى الساعة ١٨٫٠٠ من يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر). وعندما اكتشفت الاستخبارات الاميركية في يوم ٥ تشرين الاول ان الحشود العربية على الحدود تم بشكل غير عادي ، ونقلت الانباء الى الدكتور هنري كيسنجر ، تطابقت المعلومات المتوفرة لدى وزير الخارجية الاميركية مع المعلومات التي وصلته من الحكومة الاسرائيلية بصدد الحشود، فاتصل بوزيري الخارجية المصري والاسرائيلي اللذين كانا في نيويورك، وطلب منهما ابلاغ حكومتيهما ضرورة ضبط النفس وعدم خرق وقف اطلاق

(١) من خطاب وزير الدفاع السوري اللواء الركن مصطفى طلاس في حفلة تسليم الاوسمة للضباط والاعلام التي تمت بتاريخ ١٩٧٤/٣/١٠ في نادي الضباط بدمشق .

النـــار . ولقد روت الصانداي تلغراف على لسان كبير مراسليها في الشرق الاوسط ، ان الرئيس السادات قدم موعد الهجوم ٤ ساعات بعد أن تلقى رسالة وزير الخارجية الاميركي (١) . ولكن رئيس تحرير الاهرام السابق محمد حسنين هيكل أكد ـ وهو في موقع يسمح له بالاطلاع على المعلومات الصحيحة ـ إن تقديم موعد الهجوم من الساعة ١٨٫٠٠ (آخر ضوء) في يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) الى الساعة ١٤٫٠٠ (الثانية بعد الظهر)، تم في يوم ٣ تشرين الاول (اكتوبر) لا بعد ذلك التاريخ (٢) . ولقد أدى هذا التقديم دون شك الى حرمان القيادة الاسرائيلية من ٤ ساعات ثمينة في فترة حرجة يحسب فيها الوقت بالدقائق والثواني .

عوامل المفاجأة العربية

لم تقع المفاجأة في الحرب الرابعة عن طريق الصدفة ، بل كانت وليدة تدابير معدة بدقة وعناية . ويمكن أن نذكر هنـــا بعض هذه التدابير التي سيكشف المستقبل الكثير من خباياها التي تؤكد أن العرب تعلموا الكثير من هزيمتهم في عام ١٩٦٧ .

١ ـ اظهار النوايا السلمية : قدمت القيادة العربية قبيل اندلاع الحرب العديد من الشواهد التي تدل على رغبتها في حل الازمة سلمياً ، وتبرهن على انها لم تقطع الأمل بعد من امكانية نجاح المساعي الدبلوماسية عن طريق التعاون مع الولايات المتحدة الاميركية . فبالرغم من تصريحات الرئيس السادات المتكررة بضرورة استخدام القوة لاجبار اسرائيل على الانسحاب . وبالرغم من خطابه الحربي في أيار (مايو) ١٩٧٣ قبيل اجتماع مجلس الامن بناء على طلب مصر لمناقشة الوضع في الشرق الاوسط ، والذي قال فيه أن مصر « ستكسر حالة اللاحرب واللاسلم ... في اللحظة التي نجد فيهـــا أنفسنا

(١) صنداي تلغراف ، نقلته المحرر ١٩٧٣/١٠/١٧ .
(٢) الأنوار ، بصراحة ، ١٩٧٣/١٢/٧ .

مستعدين » ، فقد بعثت مصر وزير خارجيتها الى الولايات المتحدة عشية الحرب بمهمة متابعة الجهود الدبلوماسية . وعقدت مع كونسورتيوم اميركي اتفاقاً قيمته ٣٤٠ مليون دولار لمد خط انابيب النفط من السويس الى البحر الابيض المتوسط . وخلقت هذه التدابير انطباعاً بأن القاهرة تفكر في تدعيم بنائها الاقتصادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ، وأنها لن تلجأ الى استخدام « الوسيلة العسكرية » لتحقيق أهدافها السياسية **طالما أنهـا لا تزال مؤمنة بامكانات نجاح « الوسائل الأخرى » ، والسياسية بصورة خاصة .**

٢ – السرية الكاملة : حافظت القيادتان المصرية والسورية على سرية التوقيت والتكتيك المتبع حتى بالنسبة الى الزعماء العرب. ولم يعلم بهذين العاملين سوى الملك فيصل الذي أكد للرئيس السادات استعداد بـلاده لوضع كل امكاناتها في خدمة المعركة عندما يبدأ الجيشان المصري والسوري القتال . ولم تبلغ القيادة العراقية بتوقيت المعركة وتكتيكها ، كما لم يبلغ الرئيس القذافي بها ، رغم اطلاعه على الخطة وعدم موافقته على استراتيجيتها ، ورغم أن ليبيا مرتبطة مع مصر وسورية باتحاد ثلاثي ومرتبطة مع مصر بمشروع وحدة اندماجية . وعندما زار الملك حسين القاهرة في ١٠ أيلول أحاطه الرئيس السادات علماً بالخطة العامة دون أن يذكر له التوقيت والتكتيك المتبع . ولم تبلغ قيادة الثورة الفلسطينية الا قبل فترة محدودة من بدء القتال ، وكان التبليغ نفسه عاماً دون تفصيلات .

أما على الصعيد العملياتي والتكتيكي ، فقد بقيت معلومات خطة « بدر » التي اعدت على أساس خطة مناورات – محصورة في القيادات العليا ، ولم تصل الى قيادات القطاعات الكبرى الا قبل ٤٨ ساعة من بدء القتال ، أمـا قادة القطعات فلم تصلهم المعلومات الا قبل ٢٤ ساعة ، واعطيت المعلومات الى قادة الوحدات الصغرى قبل ساعات من بدء القتال . ويذكر أريك رولو في صحيفة لوموند انـه قابل احد عسكريي المدرعات المصريين على مسافة عشرة كيلو مترات شرقي الفردان ، وأن هذا العسكري أخبره بأنه « حتى اللحظة الأخيرة كان يعتقد انه يشترك في مناورات عادية . وكيف كان للامر

أن يكون غير ذلك في عز صيام رمضان ؟ لقد حوفظ على السر تماماً . ولم يكن يعرف ساعة الصفر حتى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) سوى أربعـة أشخاص : رئيسا مصر وسورية ووزيرا الحربية »[1] .

٣ – اظهار البرود السياسي ازاء الاتحاد السوفياتي بعد خروج السوفيات من مصر في صيف العام ١٩٧٢ ، رغم استمرار تدفق السلاح السوفياتي على مصر ، ورغم استمرار الخبراء السوفيات في مساعدة المصريين على بناء القوة العسكرية القادرة على الهجوم. ولقد ذهب حاييم هرتزوغ (رئيس الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية السابق والمعلق العسكري باذاعة العدو) الى اعتبـار اخراج السوفيات من مصر والضجة الاعلامية التي أحاطت به جزءاً من خطة مدبرة ، فلقد صرح في ١٧ تشرين الاول « ان انسحاب السوفيات من مصر قبل ١٥ شهراً لم يكن سوى عملية للتمويه وذر الرماد في عيون الغرب واسرائيل ، وقد نجحت هذه الخطة »[2] . وقد يكون في قول هرتزوغ بعض المبالغة . ولكن من المؤكد ان تقليص الوجود السوفياتي في مصر ساعد على انخفاض توتر العسكرية الاسرائيلية ، وجعل المراقبين الغربيين والاسرائيليين يعتقدون بان القدرة الحربية المصرية قد انخفضت الى حد بعيد وخاصة في سلاح الطيران ، ووحدات الرادار ، ووحـدات الصواريخ أرض – جو المضادة للطائرات ، ووحدات العبور الهندسية .

٤ – شن الهجوم في ذروة مرحلة الوفاق الدولي ، وفي الوقت الذي اعتقد فيه العدو أن العرب سيترددون كثيراً قبل القيام بأي عمل عسكري طالمـا أن حلفاءهم السوفيات سيحجمون عن دعمهم عند اللزوم حفاظاً على علاقاتهم المتوطدة مع الولايات المتحدة . ولقد زاد من أهمية هذا الاعتقاد قيـام السوفيات بنقل عائلات الخبراء عن طريق البحر والجو قبل ٤٨ ساعة من بدء العمليات ، وتفسير المعلقين الاسرائيليين والغربيين لهذا العمل بأنه اشارة من

(١) لوموند ، نقلته النهار ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
(٢) (أ . ب) ، ١٩٧٣/١٠/١٧ .

السوفيات للعرب بأنهم لا يودون التورط في الشرق الأوسط ، ولا يوافقون على أي مغامرة هجومية غير مضمونه العواقب .

٥ – اختيار يوم الهجوم في عيد الغفران ، حيث تكثر الاجازات في الوحدات النظامية، وينخفض مستوى الاستنفار على جبهات القتال، وتصعب التعبئة نظراً لوجود الاسرائيليين في المعابد أو في بيوتهم وعدم استماع المتدينين منهم للاذاعة التي تبث عادة اشارة التعبئة . ولقد انتقد بعض المعلقين هـذا الاختيار ، نظراً لان خلو الشوارع من السيارات بسبب العيد الديني الذي لا يستخدم فيه الاسرائيليون سياراتهم ، وبقاء معظم النـــاس في المعابد أو في بيوتهم، قد ساعدا على حركة السيارات العسكرية والخاصة المستخدمة في عملية التعبئة ، ولم يعرضا القوافل العسكرية للعرقلة الناجمة عن ازدحام السير على الطرقات .

٦ – اختيار يوم الهجوم في رمضان الذي يعتقد الاسرائيليون أن المصريين يلجأون فيه الى الراحة ، ولا يعقل ان يشنوا فيه قتالاً هجومياً يتطلب طاقة بدنية عالية ، وجهدا شاقاً لا يحتمله الصائمون .

٧ – الاعلان عن بدء تسجيل اسماء العسكريين المصريين الراغبين في اداء فريضة الحج .

٨ – الاستمرار في اعطـــاء الاجازات للعسكريين العاملين على خطوط وقف القتال أو في قطعات الداخل ، ضمن النسب المألوفة في حالات الاستنفار المماثلة .

٩ – استغلال حالة التوتر التي سادت على الجبهتين بعـــد تهديدات الاسرائيليين لسوريا واتهامها بمساعدة الفدائيين الفلسطينيين الذين قاموا بعملية معسكر « شناو » في النمسا في آب (اغسطس) ١٩٧٣ ، وتزويد الفدائيين الذين اعتقلتهم السلطات الايطالية في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ بصواريخ فردية أرض – جو (ستريلا) . والعمل تحت غطاء هذه الحالة وما اعقبهـــا من استنفار وخاصة بعد معركة ١٣ أيلول (سبتمبر) الجوية ، والافادة من الغطاء

الاعلامي لتعبئة القطعات ، وتحريكها من مواقع تمركزها الى مناطق التجمع القريبة من خط الانتشار للهجوم . والانتقال بعد ذلك حتى خط الانتشار تحت سمع العدو وبصره .

١٠ – عدم اعلان التعبئة العامة قبل الهجوم اعتماداً على وجود قوات عاملة كبيرة العدد كافية لتحقيق التفوق العددي اللازم للهجوم .

١١ – عدم استخدام وسائط الدفاع أرض – جو الحديثة (صواريخ « سام – ٦ ») في الرد على طائرات الاستطلاع الاسرائيلية التي كانت تخترق الاجواء السورية ، وعدم زج هـذه الصواريخ في معركة ١٣ ايلول (سبتمبر) الجوية التي افتعلها الاسرائيليون لمعرفة مستوى جهاز الدفاع الجوي السوري ضد الطائرات ، وتحديد نقاط ضعفه وقوته .

١٢ – اجراء الحشد بطريقة مخادعة وفي رابعة النهار ، إذ كانت القوات المصرية تتحرك نحو القناة في وضح النهار ثم تترك عند خط الهجوم جزءاً من جنودها ووسائطها وتعود بجزء فقط لتعطي العدو انطباعاً بأن جميع القوات التي تحركت نحو القناة قد عادت بالفعل الى مواقعها الاصلية .

١٣ – نقل الجسور بقطع متفرقة ليلا ، واخفاؤها قرب مناطق العبور على الشاطىء الغربي للقناة .

١٤ – تبديل مواقع بطاريات الصواريخ أرض – جو في ليلة (٥ – ٦) بعد أن قام العدو بطلعات استطلاعية جوية في يوم ٥ تشرين الاول (اكتوبر)، ورأت القيادة المصرية أن من المحتمل أن يكون هذا الاستطلاع قد كشف مواقع البطاريات .

١٥ – التصرف على جبهة القتال بشكل عادي لا يستثير انتباه رصاد العدو . ولقد كشف اللواء سعد مأمون مساعد وزير الحربية المصري النقاب عن أن القوات المصرية استخدمت ٦٥ خدعة لصرف انظار الاسرائيليين عن حشود مصر ومنهـــا « جعل الجنود يسبحون في قناة السويس كما هي

العادة كل يوم ، والتأكد من عدم ارتداء الجنود لخوذاتهم حتى لحظة بـدء المعركة » (١) .

١٦ – اختيار لحظة بدء الهجوم عند آخر ضوء ، ثم تعديل هذا الاختيار كما رأينا وتقديمها الى الساعة الثانية بعد الظهر بدلاً من القيام بالهجوم عنـــد أول ضوء أو في ساعات الصباح الاولى كما تنص جميع انظمة الخدمة في الميدان. ويبدو أن هذا الاختيار قد خفف من يقظة العدو الى حد بعيد ، لأن جنوده الذين أنذروا قبل فترة طويلة ، ومكثوا طوال ساعات الصباح ينتظرون الهجوم العربي ، تهاونوا بعد الظهر ، وانخفض مستوى حذرهم على اعتبار أن القوات العربية لا تهاجم الا مع أول ضوء .

١٧ استخدام الاسلحة المضادة للدبابات(قاذفات الصواريخ «ر ب ج – ٧) بكثافة عالية داخل قطعات المشاة ، واستخدام مجموعات كبيرة من وحدات الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات والمحمولة على عربات مدرعة .

١٨ – الاستطلاع الجيد : قـــام المصريون خلال مرحلة الاعداد للهجوم بعمليات استطلاع طويلة شملت خط بارليف ، واعماق سيناء ، وقناة السويس نفسها . وكانت الغاية من هذه العمليات معرفة نقاط ضعف العدو ، ومحاور تحركاته المحتملة، وأسلوبه في حماية قناة السويس. ولقد اشتركت في الاستطلاع التكتيكي وحدات من الضفادع البشرية ووحدات صاعقة على حين قامت بالاستطلاع العملياتي والاستراتيجي في عمق الأرض المحتلة وحدات الاستطلاع الجوي المزودة بأجهزة كشف متقدمة ، واجهزة تصوير بالأشعة تحت الحمراء . ولقد استمر الرصد الاستراتيجي بطائرات « ميغ – ٢١ » حتى اللحظات الأخيرة ، وكانت آخر طلعاته تستهدف كشف تحركات العدو ، والتبديلات التي يحتمل أن يكون قد أدخلها على ترتيبه الدفاعي في الساعات الأخيرة .

* * *

(١) الأنوار، ١٢/١٢/١٩٧٣ .

وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها مع العوامل النفسية التي سنأتي على ذكرها ، وتحققت المفاجأة بزمان المعركة . كما تحققت الى حد ما بنوع السلاح ، ولكن المفاجأة الاكبر كانت في الأساليب الجديدة لاستخدام السلاح، والتطور الكبير الذي أصاب المقاتل العربي ، وتمثل في ارتفاع معنوياته، وتنامي روحه الصدامية وقدراته القتالية في الهجوم والدفاع ، وقدرته الكاملة على استخدام الاسلحة والمعدات المعقدة بكفاءة جيدة ، ومهارته في تخطيط المعركة بشكل منهجي لا يخلو من الابداع .

ولقد عبر ابريك شارون عن المفاجأة التي أصابته في اليوم الأول من الحرب، بأن صرح لمراسل الاذاعة بتاريخ ٧ تشرين الأول « لقد فوجئت فعلاً بالقدرة العسكرية المصرية . بصراحة لم أكن أنتظر أن ينجحوا في عبور القناة » .

ولم تقتصر المفاجأة على القيادات العسكرية والسياسية ، بل شملت المجتمع الاسرائيلي كله، وكان أثرها داخل المجتمع عنيفاً مدمراً لأن الانسان الاسرائيلي لم يعدّ بشكل مسبق لتلقي الصدمة ، ولم يعبأ نفسياً كما عبىء في الحروب السابقة ، ولم تعمل السلطات الاسرائيلية على رفع التوتر النفسي داخل المجتمع كما فعلت في الأسابيع الثلاثة التي سبقت حرب ١٩٦٧ عندما كانت الأهداف الاسرائيلية الحيوية على مرمى المدفعية العربية . ويذكر مراسل لوموند في اسرائيل الحالة النفسية التي سادت الرأي العام في مساء يوم ٥ تشرين الأول (اكتوبر) ، عندما اتخذت القيادة الاسرائيلية بعض التدابير الخاصة بتعبئة القوات الاحتياطية عشية يوم الغفران فيقول : « لقد تساءل المواطنون الاسرائيليون : لماذا الغيت اجازات أبنائنا وبناتنا في مثل هذا اليوم ؟ أن قيام الجيش باتخاذ مثل هـــذا التدبير في يوم الغفران يعني أن هناك أسباباً جدية جداً . ولكن ما هي ؟ هل هي التهديدات السورية ؟ انها لا تبرر اتخاذ تدابير مفرطة . هل هي تحركات المصريين على طول القناة ؟ أن من المتعذر أخذ هذا الامر مأخذ الجد . اننا نعرف جيداً ان المصريين غير مستعدين للاندفاع في مغامرة عسكرية »(١). ولم يكن الاسرائيليون قادرين على اعطاء

(١) Le Monde, 9 . 10 . 1973 .

الاجوبة لهذه الاسئلة التي بقيت معلقة على الشفاه . وعندما اندلعت الحرب في اليوم التالي ، وجاءت الأنباء مغايرة للتوقعات ، ظهر الشرخ داخل مجتمع العدو ، وكان شرخاً خطيراً لأنه أصاب قناعات وجدانية عميقة .

جذور المفاجأة

إن من التبسيط المفرط للامور الاعتقاد بأن التدابير التي اتخذتها القيادات العربية السياسية والاستراتيجية والميدانية كانت وحدها السبب في تحقيق مفاجأة ضخمة بهـــذا الحجم ، ضد عدو متحفز متعسكر كاسرائيل . ولقد أجمع المراقبون والمحللون في داخل الأرض المحتلة وخارجها على أن العامل الاول الذي ساعد العرب على تحقيق المفاجأة هو : المناخ النفسي الذي ساد اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وتمثل بالغرور المفرط ، والثقة المطلقة بالنفس ، والتهاون الكامل بالعرب ، والاعتماد على عاملي القوة والزمن اللذين يعملان لمصلحة اسرائيل وحدها .

والحقيقة ان انتصار ١٩٦٧ السهل الذي فاجأ الاسرائيليين انفسهم ، ووقوف القوات المسلحة الاسرائيلية عند حدود جيدة بعيدة عن المناطق الحيوية ، وتوقف حرب الاستنزاف في عام ١٩٧٠ ، وتناقص حدة عمليات الثورة الفلسطينية بعد التصفية المادية لقواعدها في الاردن (١٩٧٠-١٩٧١) ، وهبوط الزخم الثوري في غزة (١٩٧٢) ، وخروج السوفيات من مصر (١٩٧٢) ، والنجاح في عمليات الردع والانتقام خارج الحدود الاسرائيلية ، وجمود حالة « اللاحرب واللاسلم » مدة ثلاث سنوات رغم التهديدات العربية باستعادة الأراضي المحتلة بالقوة ، واستمرار الاحتلال الاسرائيلي مـدة ست سنوات ، وعدم ظهور أي بادرة جدية للتعاون العربي ، وتضاؤل اهتمام العالم بالصراع العربي - الاسرائيلي الذي لم يعد يشكل بؤرة انفجار خطرة ، (خاصة بعد سياسة الوفاق الأميركية - السوفياتية) ، ووقوف الولايات المتحدة الى جانب اسرائيل القادرة على حمـاية المصالح الأميركية في الوطن العربي والشرق الأوسط كله ، والدعم الأميركي المطلق لتل ابيب في مجالات التسليح

والاقتصاد والدبلوماسية ، كانت عبارة عن العوامل التي خلقت الانطباع بأن اسرائيل « القوية » قادرة على حماية أمنها وتكريس واقع «اللاحرب واللاسلم» الى أمد بعيد ، واستغلال عامل الزمن الذي يعمل لصالحها، حتى يخضع العرب للسلم اليهودي .

وقبل الحرب بشهر واحد ذكر هلبروك في مجلة American Foreign Policy حديثاً نقلته صحيفة لوموند قال فيـــه : « لم تكن اسرائيل من قبل خلال تاريخها المضطرب تحس بالأمن والتفوق العسكري مثلما هي عليه اليوم . وبعد ست سنوات من حرب الأيام الستة تبدو الحرب بين اسرائيل وجيرانها أقل احتمالاً مما كانت عليه في أية لحظة من ماضيها »[١] .

ووسط هذا الجو سيطر الجنرالات المكللون بأكاليل الغار على مقدرات البلاد ، **ونقلوا مفاهيمهم وأساليبهم الى الحكومة** ، وأصبح الأمن محور كل نشاطات الحكومة . وظهر مفهوم «الحدود الآمنة» لتبرير الاحتفاظ بالأراضي العربية وعرقلة الجهود السلمية ، **حتى لو قبل العرب بالمفاوضات المباشرة ووقعوا اتفاقية سلام مقابل الأرض** . ولقد هاجم البروفيسور يعقوب تلمون هذه السياسة الهروبية أمـام احتمالات السلام ، وقال في مقال « حساب النفس » : « هل كان الناطقون باسمنا متبجحين ، وعمياناً ، وجهلة ؟ كلاّ . لقد أرادوا من العالم أن يمنحنا مهلة ، ويصرف نظره عنا ، ويسمح لنا بخلق الحقائق ، وبوضع العرب والولايات المتحدة والعالم أمام حقائق جديدة » ... « كلما كانت الرغبة في الضم تزداد ، كان علينـــا أكثر فأكثر أن نؤمن بأنه لا خطر من الخارج . وكلما استمرّت الهدنة برزت احتمالات الضم . أضف الى ذلك ان الاستيطان والضم صُوِّرا بأنهما أدوات لتدعيم الأمن ، وبمفهوم معين بديل للحرب وضمان ضدها»[٢] . ثم يتحدث عن المسألة الأمنية **التي سيطرت على كل مـــا عداها من مسائل وخلقت مناخ الاطمئنان الكاذب** فيقول :

---

(١) Le Monde, 17.10.1973.
(٢) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .

« بالإمكان القول أن الطمأنينة الأمنية أصبحت جزءاً من عقيدة صوفية، ومبدأ أساسياً لبرنامج سياسي، وتحولت في النهاية الى مصلحة راسخة. وقد تغذت هذه الطمأنينة بنبوءة تكامل الوطن، وكما سبق وأشرنا، بالغطرسة، وبنظرية التفوق المطلق للجيش الاسرائيلي وتخلف العرب الأبدي، وبالمسلّمات حول حدود الأمن المثالية التي أتيحت لنا. وغذّت هذه الطمأنينة من جانبها تلك المسلّمات. وكانت لهذه المجموعة من الآراء نتائج بعيدة المدى ومتناقضة ظاهرياً، ومضرّة حتى بتطورات الأوضاع الداخلية »[1].

ويذكر دانييل بلوخ في صحيفة دافار ان الاهتمام الاسرائيلي بوثيقة غاليلي، والتمسك بها أديا الى تحويل الأنظار عن التطورات الأساسية التي تتم في المنطقة، كما أديا الى تصلب العالم ضد اسرائيل. ثم يهاجم الجو العام الذي ساد مناقشة الوثيقة بقوله ان الجميع من « حمائم » و « صقور » كانوا يعتقدون « ان الامور على ما يرام من الناحية العسكرية، وانه لا مكان للقلق. ان الجدل الرئيسي لم يكن حول ما اذا كان بإمكاننا الاستمرار بالاحتفاظ بالمناطق، بل حول ما اذا كان هذا ملائماً من الناحية السكانية والأخلاقية والسياسية »[2].

ولقد دعم مخططو السياسة الأمنية الجديدة، وأصحاب فكرة الضم الزاحف خارج حدود « الخط الأخضر » أفكارهم بالحجج التالية:

١ – ان الولايات المتحدة مضطرة لدعم اسرائيل لأن استراتيجيتها في المنطقة مبنية على ضرورة الاستناد الى دولة قوية تضمن مصالحها وتقف في وجه التغلغل السوفياتي.

٢ – ان من الممكن مجابهة الضغوط الأميركية بضغوط معاكسة تقوم بها الصهيونية المسيطرة في الولايات المتحدة ضد رئيس يحس بالأرض تميل تحت قدميه. « وان أميركا لن تخدم مصلحتها اذا هي رأت في دعمها لاسرائيل

(١) هآرتس، ١٩٧٣/١١/٣٠.
(٢) دافار، ١٩٧٣/١١/١٩.

دعماً لمحتاج عليه أن يدفع ثمن المساعدة بالتنازل عن استقلاله وليس إنفاقاً مجدياً للمحافظة على المصالح الحيوية للولايات المتحدة »[1].

٣ – ان من الممكن الضغط على الاتحاد السوفياتي – وخاصة بالنسبة الى مسألتي الهجرة ودعم العرب – اذا ما استخدم النفوذ الصهيوني في أمريكا بغية جعل واشنطن تربط الاتفاقات الاقتصادية الاميركية – الروسية بالموقف السياسي السوفياتي من النزاع.

٤ – ان الزمن يلعب لصالح اسرائيل، فهو يساعد على التقارب مع عرب المناطق، ويفتت المعسكر العربي، ويبعده عن الاتحاد السوفياتي، ويجعل العالم يعترف بالحقائق الجديدة التي يتم خلقها في المناطق المحتلة (بناء مستعمرات خارج الخط الأخضر). وأن مرور الزمن على الاحتلال دون إطلاق نار يعتبر « تسوية جزئية » عملية[2].

٥ – ان من المتعذر على العرب اتباع سياسة نفطية ضاغطة على الغرب، وعلى الولايات المتحدة بصورة خاصة.

٦ – ان أزمة الطاقة موهومة ولا وجود لها ويمكن للغرب أن يستغني بسهولة عن النفط العربي، اذا ما قطع العرب نفطهم – وهذا أمر بعيد الاحتمال على كل حال.

٧ – ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة (الضفة وسيناء والجولان)، وإسكانها بمهاجرين جدد، يضمن لاسرائيل مساحة استراتيجية تخدم أمنها أكثر من أي سلام أو ضمانات دولية. وان « شرم الشيخ بدون سلام أفضل من السلام بدون شرم الشيخ »[3]، وان من الأفضل « أن تكون سيناء تحت سيطرة

(١) هآرتس، ١٩٧٣/١١/٢٣.
(٢) من حديث وزير الدفاع السابق موشي دايان مع اذاعة اسرائيل (ر. أ. أ.)، ١٩٧٢/١١/٤.
(٣) من تصريح موشي دايان في ١٩٧١/٣/٩، نقلته معظم وكالات الأنباء.

اسرائيل مع طائرات أقل ، من أن تكون مخازننا مليئة بطائرات الفانتوم وسيناء تحت سيطرة مصر »[١] .

٨ – ان العرب مصممون على تدمير اسرائيل مهما أبدوا من رغبة في السلام ، وان التساهل معهم يدفعهم الى الجشع والمطالبة بمزيد من التنازلات التي تهدد أمن اسرائيل ووجودها ، والرد الوحيد على جنونهم هو « الضربات المتلاحقة ومزيد من الضربات » لأنهم أناس « لا يفهمون سوى لغة القوة » .

٩ – ان القوة العسكرية الاسرائيلية متفوقة بشكل مطلق على القوات المسلحة العربية ، نظراً لارتفاع مستواها القيادي والمعنوي والتدريبي ، وامتياز معداتها ، وضخامة قوتها النارية ، واستنادها الى خطوط مثالية على القناة ونهر الاردن ومرتفعات الجولان ، وانه « اذا لم يطرأ تحول جذري في العلاقات مع الولايات المتحدة وبميزان القوى ، فإن اسرائيل تستطيع الصمود في موقفها الحالي على الأقل لغاية نهاية السبعينات »[٢] ، كما ان « باستطاعة اسرائيل أن تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربي مجتمعة ، لأية فترة ممكنة – خمس أو عشرين أو خمسين سنة – ما دمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا »[٣] .

١٠ – ان الثغرة في المستوى العلمي والتكنولوجي بين اسرائيل والدول العربية كبيرة جداً ، وآخذة في الاتساع ، و « ان العرب متأخرون عن اسرائيل في العلوم والتكنولوجيا مائة سنة »[٤] ، و « ان بقاء اسرائيل ناجم الى حد بعيد عن الهوّة التكنولوجية بين اسرائيل وجاراتها . ولكي نضمن

(١) معاريف، من تصريح العميد عيزر وايزمان مدير العمليات في قيادة الجيش الاسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧ .

(٢) من تصريح موشي دايان، نقلته اذاعة اسرائيل العبرية (د. أ. أ) ، ١٩٧٣/٣/١٤ .

(٣) نيير ايست ريبورت ، ١٩٧٢/٥/٧ ، من خطاب اسحاق رابين في مؤتمر اللجنة الاميركية – الاسرائيلية للشؤون العامة .

(٤) دافار ، ١٩٧١/٤/١١ البروفسور أ. د. برغمان .

بقاءنا في المستقبل يجب ألا نسمح أبداً لهذه الهوّة بأن تصبح أصغر »[١] .

١١ – ان الخروج من مشكلة وجود الشعب الفلسطيني لا تحل بالاعتراف به كشعب له حقوقه ، بل تحل بتجاهله ، ونفي وجوده ، والمطالبة باندماجه داخل المجتمعات العربية المحيطة بإسرائيل .

١٢ – ان السياسة الأمنية الجديدة حققت الهدوء على الحدود وفي الداخل، وسمحت بتخفيض مدة الخدمة العسكرية وتخفيض مصروفات الأمن والدفاع .

* * *

ولقد لاقت هذه الأفكار معارضة داخل اسرائيل ، وهوجمت سياسة الاستيطان وراء « الخط الأخضر » ، كما انتقدت سياسة الغطرسة وعرض العضلات واستفزاز العرب والاستهتار بالعالم ، والاختفاء خلف « لاءات الخرطوم الثلاث » لعرقلة أي مسعى سلمي تقوم به الأمم المتحدة أو أصدقاء اسرائيل في أوروبا وافريقيا . وكانت حجج المعارضين تقول بأن هذه السياسة تستفز المسلمين والمسيحيين الراغبين في تحرير المدينة المقدسة ، كما تستفز دول العالم كله . وأن الولايات المتحدة والدول الصناعية بصورة عامة حساسة إزاء أزمة الطاقة التي تتطور بسرعة ، وأن الضغط على العرب والاستهانة بمشاعرهم سيدفعانهم الى الوحدة وتقوية الذات لاسترداد الكرامة والأرض ، وأن ضم عرب المناطق سيضيف الى دولة اسرائيل شعباً معادياً يتزايد بسرعة بالغة ويشكل لغماً قابلاً للانفجار في كل لحظة ، وأن تجاهل الشعب الفلسطيني لا ينفي وجوده بل يحفزه على متابعة النضال والتمسك بهويته، وأن الدعم الأميركي المطلق لا يمكن أن يستمر اذا ما تعارضت المصالح الوطنية الأميركية بشكل جذري مع مصالح إسرائيل ، وأن الزمن يلعب لصالح العرب كما يلعب لصالح اسرائيل، خاصة وأن العرب مقدمون على امتلاك ثروة كبيرة يمكنهم تسخيرها للتقدم وردم الهوّة التكنولوجية والعلمية القائمة حالياً بشكل يحرم اسرائيل

(١) جويش اوبزرفر ، ١٩٧١/١٠/٢٢ . البروفسور برغمان .

من أهم عوامل تفوقها العسكري على العرب،وان الاحتفاظ بالمناطق والحدود الآمنة لا يضمن الأمن في ظروف الحرب الحديثة والأسلحة المتطورة بعيدة المدى ، ولكنه يشكل على العكس دافعاً لاندلاع حروب جديدة لا تنتهي .

ولكن هذه الانتقادات لم تلق أذناً صاغية، وبقي تأثير الجنرالات واسعاً، وتابع الثلاثي « مائير – غاليلي – دايان » رسم خططهم العدوانية **متجاهلين مسار التطورات المحلية والعالمية** . ولقد أجاد يهوشفاط هركابي في تصوير خلفيات السياسة الاسرائيلية بقوله:«بعد حرب الأيام الستة تولّد في اسرائيل انطباع خاطىء ، وكأنه بدأت فترة جديدة يكون الصراع السياسي فيها بين الأطراف بمثابة مساومة على شروط تسوية النزاع وشروط التسوية السياسية ، وكان السجال في الواقع مباراة حول من ستلقى عليه مسؤولية استمرار النزاع ومن سيندد به بسببه »[1] . وكان من الطبيعي أن ينجم عن هذه الخلفية ، وعن السياسة التي جسدتها وضع نفسي عام وصفه الجنرال اندريه بوفر بقوله : « عانت اسرائيل من داء ، هو داء طبيعي عانينا منه جميعاً غداة الحرب العالمية الثانية ، وهو داء المنتصرين الذين يظنون أن الأقدار في صفهم ، وأن كل شيء قد أصبح ميسراً لهم » ... « وقد ارتاح الاسرائيليون الى هذا الشعور فلم يحسنوا التمييز بين الوضع الحالي والوضع السابق »[2] . **في هذا الوضع « المرضي » ، وبسبب هذا الوضع بالذات فوجىء الاسرائيليون – قيادة وشعباً – وهم في سراويلهم الداخلية .**

مسؤولية المفاجأة

يقول المثل الفرنسي : « الهزيمة يتيمة ولكن النصر له ألف أب » . ولكن الشعب الاسرائيلي الذي دفن قتلاه الذين فاق عددهم كل تصوراته ، وبدأ يضمد جراحه النازفة، أخذ يبحث خلال الحرب وبعد وقف القتال عن

(١) معاريف ، ١٩٧٣/١١/٢ .
(٢) ليست ريبوبليكان ، ١٩٧٣/١٠/١٣ .

أب لهزيمة التدابير الأمنية التي أدت الى وقوع المفاجأة . وأشارت أصابع الاتهام منذ البداية الى ثلاثة اتجاهات : دايان وهيئة أركانه ، الاستخبارات ، الدولة ككل . وتشكلت لجنة « أغرانات » لتحديد الخطأ والمسؤولية .

ولقد بدأ وزير خارجية العدو أبا ايبان الهجوم على دايان غداة اندلاع الحرب ، وأعلن في لوس انجلوس « ان دايان يتحمل مسؤولية فشل اسرائيل في سيناء ، واننا كنا نعيش في وَهم الدولة القوية منذ العام ١٩٦٧» . وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى توالت الانتقادات الموجهة الى وزير الدفاع . وكتب البروفيسور آمنون روبنشتاين عميد كلية الحقوق في جامعة تل أبيب : « ان وزير الدفاع يتحمل مسؤولية كبيرة عن أكبر فشل عرفته اسرائيل في تاريخها . إن كلمة تقصير – كلمة مخيفة ولا معنى لها – لا تلخص فشله . والكلمة الملائمة أكثر هي إهمال كبير ، فلقد أهمل المهمة التي كلف بها : تحمّل مسؤولية أمن اسرائيل . لقد أهمل الجيش ولم يهتم بمشكلاته الحيوية . إن كل تنبؤاته المتكررة لم تنفعه وقت الضيق . وعلى العكس فقد أخطأ بصورة مستمرة، وأدى خطؤه الأساسي –أعوام طويلة من الهدوء في الأوضاع العامة– الى تنويم الجيش والدولة بكاملها . انه لم يعدّ نفسه ولم يجهز الجيش للحرب . أما الثمن الذي دفعناه مقابل هذا الخطأ فهو أكبر من أن نستطيع وصفه»[1].

ولقد انبرى دايان للدفاع عن نفسه وتخفيف حجم الخطأ الذي ارتكبه في اليوم الرابع للحرب ، عندما صرح أمام رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية : « هناك أمر واحد مؤكد لم يتم كما كنت أعتقد : قدرتنا على وقف بناء الجسور على القناة . كانت لنا نظرية حول هذا الأمر. ولعلّي أقول ان نظريتي كانت تتمثل في أنهم سيضطرون الى العمل ليلة كاملة لإقامة جسور. ونستطيع منعهم بواسطة مدرعاتنا . واتضح انه بمساعدة جميع المعدات التي يملكونها ، وفي الأساس السلاح الفردي ضد الدبابات الذي يعمل على مدى ثلاثة كيلومترات ، والذي يستخدمه آلاف الجنود ، وقد أصيب معظم دباباتنا بهذا الصاروخ

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٣ .

الذي يطلقه مصري واحد، وكانوا متمركزين وراء الحاجز الترابي، ولم يتيحوا لدباباتنا المرور، اتضح من كل هذا أن الأمر ليس سهلاً ، وقد يكلفنا الاقتراب بالدبابات من القناة لمنع إقامة الجسور، ثمناً باهظاً . قبل أن يتم هذا العمل كنا نفكر في طريقة واحدة ، وفي أثناء العمل اتضح أن الأمر يختلف » [1].

ثم أعلن دايان في محاضرة ألقاها في تل ابيب: « انني كوزير دفاع لم أقوّم فعالية القدرة القتالية عند العرب ، على الرغم من معرفتي بنوعية الأسلحة التي يملكونها وكميتها والجسور التي جهّزت لعبور القناة . إن أنواع الأسلحة التي استخدمها العرب في القتال، هي التي كوّنت فعاليتهم التي فاقت ما كنت قد قدّرته على أساس المعطيات الاستخبارية وما كان لدينا من أرقام » ... « صحيح أننا لم نتوقع سلفاً ، قبل أسبوع أو أسبوعين من يوم الغفران ، أن يشن العرب هجوماً كبيراً علينا . ولكن شاهدنا الغيوم المتجمعة ، وزدنا القوات المدرعة في الجبهتين الشمالية والجنوبية ، بأحجام ، قدرت سلفاً – أنا والجيش – بأنها لازمة للصمود حتى يتم تجنيد الاحتياط في جبهة القناة وهضبة الجولان . وافترضنا أن بإمكان هذه القوات صد الهجوم العربي حتى تجنيد الاحتياط » [2] .

ولم يتوقف دايان أبداً عن محاولة تبرئة نفسه، والدفاع عن تدابيره الأمنية، والخطط التي جابه بها خطر الحشود العربية، وتوجيه الاتهامات للقادة المنفذين. ولقد قال في هذا المجال: «صدر أمر الاستعداد قبل يوم الغفران–قبله بكثير. هذه مشكلة تنفيذ وليست مشكلة تقييم»[3]. وعندما سئل عن تجنيد الاحتياط أفاد: «تمّ تجنيد الاحتياط في اللحظة التي حصل فيها المسؤولون على معلومات بأن الحرب ستنشب، لا قبل ذلك. لأنهم لم يفترضوا بأن الحرب ستنشب»[4].

(١) هآرتس ، ١٩٧٤/٢/١٥ .
(٢) هآرتس ، ١٩٧٣/١٢/٣٠ .
(٣) معاريف ، ١٩٧٣/١١/١١ .
(٤) معاريف ، ١٩٧٣/١١/١١ .

وتتناقض هذه الأقوال بعضها مع بعض ، وتكذب تصريح وزير دفاع العدو في يوم ٧٤/٢/٢٨ عندما خطب في مدافن جبل هرتسل في القدس ، في ذكرى الجندي المجهول، وقال أمام ٢٠ ألفاً من عائلات القتلى: «أيها العائلات الثكلى، إن حرب يوم الغفران كانت أصعب حرب خاضتها دولتنا . وقد فوجئنا بهذه الحرب ، وهوجمنا بقوات هائلة » [1] . كما تكذّب كل ما قيل في اسرائيل وما نقله مراسلو الصحافة الغربية في الأرض المحتلة، عن أن اسرائيل فوجئت تماماً بالهجوم . وهي تؤكد في الوقت نفسه **أن القيادة العسكرية الاسرائيلية فوجئت بطبيعة الهجوم المصري – السوري ، وحجمه ، وأهدافه ، وإمكانات القوات القائمة بـه ، أكثر من أن تفاجأ بالعملية الهجومية التي علمت بها في وقت متأخر ، فلم تصدّق أن العرب يجرأون على شنها ، ولما تأكدت من جدّية الأمر ، اتخذت التدابير اللازمة بشكل متأخر .**

ومن الواضح هنا أن الأمر الذي لم يثبت في الامتحان هو تقييم دايان وهيئة أركانه ، لقدرة الخصم ، ولقدرة القوات الاسرائيلية على صد الهجوم والرد عليه ، الأمر الذي يعني أن دايان وقيادته **فوجئا جزئياً بالزمان ، ولكنهما فوجئا بشكل أكبر بطبيعة المهاجمين وأساليب قتالهم ومستوى تدريبهم . وكانت المفاجأة في هذا المجال كبيرة الى الحد الذي جعل انعكاساتها استراتيجية لا تكتيكية ، وعرّض أمن اسرائيل كله للخطر .**

ويلقي زئيف شيف عبء المسؤولية على عاتق الاستخبارات التي عجزت عن فهم التحولات الجذرية داخل المعسكر العربي فيقول: « من الممكن جداً أن يكون الخطأ في تقويم الاستخبارات الاسرائيلية عشية حرب يوم الغفران، ناجماً عن استنتاج خاطىء بأن المصريين ما زالوا في الوضع الذي تركناهم عليه في نهاية حرب الاستنزاف ، أي غير مستعدين لحرب شاملة ، خوفاً من أن يهزمهم سلاح الجو الاسرائيلي . اعتقدنا أن المصريين لن يهاجموا لخوفهم من حرب شاملة ، على حين توصّل السوريون والمصريون الى استنتاج انهم لن

(١) (ر.أ.أ.) ، ١٩٧٤/٢/٢٨ .

يحققوا أهدافهم في حرب محدودة ، ولذلك كان من الأفضل لهم تحدي سلاح الجو الاسرائيلي»[١] . وكان زئيف شيف قد اتهم الاستخبارات في يوم ١٠/٢٦ وقال بأن الخطأ لا يعود ال عشية الحرب بل « ان الخطأ بدأ في ٦٧/٦/١١ ، يوم انتهت حرب الأيام الستة . ان المفاجأة في علاقات القوى ، ومستوى جندي المشاة المصري ، والفعالية المدمرة للسلاح المضاد للدبابات الموجود لدى سلاح المشاة ، لا تحدث فجأة بين رأس السنة ويوم الغفران . ان مثل هذه المفاجأة يمكن أن تحدث فقط نتيجة خطأ استمر زمناً طويلا »[٢] .

ولا ينسى زئيف شيف توجيه النقد نحو الفكرة التي شاعت في اسرائيل حول قدرة الجندي العربي على القتال ، ويقول بأن الاسرائيليين ينسون ان العربي « حارب أكثر من مرة كما ينبغي »[٣] . ويؤكد بعد ذلك على المفاجأة التي تحققت على صعيد تقدير الامكانات القتالية للقائد والمقاتل العربي بقوله : «لقد لاحظنا تحسناً لدى المقاتل العربي في عدة أمور . فقد أعطت المخططات الميدانية انطباعاً بأنها جيدة وأكثر تكاملا مع أنها اتخذت طابعاً منهجياً متزمتاً . ولوحظ لدى القوات أعداد أكثر عمقاً ، ولوحظت التدريبات العديدة التي اجتازتها . واقتحمت هذه القوات مجالات لم تمارسها من قبل ، كالقتال الليلي ، واستخدام الدروع بأعداد كبيرة في ساعات الظلام . ولم يعد الليل مجالاً يخص المقاتل الاسرائيلي وحده»...«هكذا كان بالإمكان أن نلاحظ أن سيطرة العرب التقنية على الأسلحة والوسائل التي يمتلكونها أفضل من الماضي، ابتداءً بالصواريخ على أنواعها وانتهاءً بوسائل أخرى . وكانت الروح القتالية أفضل حتى أنهم أظهروا روح التضحية في عدة حالات »[٤] .

ولقد هاجم رئيس الأركان دافيد أليعازر الاستخبارات في مقابلة تلفزيونية

(١) هآرتس ، ١٩٧٤/٢/٤ .
(٢) هآرتس ، ١٩٧٣/١٠/٢٦ .
(٣) هآرتس ، ١٩٧٣/١٠/٣٠ .
(٤) المرجع نفسه .

قال فيها : « في هذه المرة كان الانذار قصيراً جداً وغير كاف »[١] ، ولكن شبتاي طيفت يرد عليه في هآرتس بقوله : « ان جهاز الاستخبارات ما هو إلا شريك ، ونظرياً شريك صغير ، في التقدير السياسي للوضع الأمني . ذلك انه في البحث حول معلومات جهاز الاستخبارات واستنتاجاته تشترك القيادة العامة ، ورئيس الأركان ، ووزير الدفاع ، ورئيس الحكومة ، وبعض الوزراء ، وأحياناً الحكومة كلها » ... « ان الدولة كلها ، الأحزاب، أجهزة الاتصال ، ورجال الفكر على أنواعهم يشتركون في تقدير الوضع السياسي ، كلنا بلا استثناء عرفنا انه منذ عدة سنين يعلن السادات ويقول بأنه سيشن حرباً لإعادة المناطق التي اخذت بالقوة ، ومنذ سنين يقوم الاتحاد السوفياتي بتزويد مصر وسورية بأسلحة متطورة وبكميات كبيرة . ومنذ سنين يتدرب الجيش المصري على العبور »[٢] . ثم ينتقل شبتاي طيفت الى تحديد المسؤولية واتهام وزير الدفاع ورئيس اركانه فيقول : « ان السبب ليس انهم لم يقدروا المعلومات والحقائق تقديراً صحيحاً ، بل لأنهم اعتقدوا بأنها قليلة الأهمية بالنسبة لقوة جيش الدفاع الاسرائيلي الجبارة . وهكذا فكلهم ، بمن فيهم رئيسة الوزراء ووزير الدفاع اعتقدوا أن بدء الحرب من جانب العرب سيكون كارثة لهم (للعرب) وعملا جنونياً،إذ لم يكن لدى أي رجل في اسرائيل شك في أن جيش الدفاع الاسرائيلي يستطيع أن يهزم العرب بأصبع واحد » ... « ليس صحيحاً إذن أن نقول ان جهاز الاستخبارات قد تلقى ضربة لأنه لم ينذر في الوقت المناسب . فمن جانبه حصل على معلومات تعتبر إنذارات كثيرة . الجميع يعرف الآن بأنه لم يكن هناك نقص في الإنذارات ومن جميع الأطراف » ... « حقيقة ما حدث هو أن رئيس الأركان ووزير الدفاع اعتقدا ان القوة النظامية وحدها تستطيع صد هجوم عربي أو على الأقل إيقافه . وأن بمقدورها أن توفر وقتاً كافياً لتعبئة الاحتياط . وإن كان « الإنذار قصيراً جداً وغير كاف » فقد كان هذا على الأكثر نتيجة لعدم

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٢ .
(٢) المرجع نفسه .

مقدرة القوات النظامية على تحقيق الآمال التي علّقت عليها . واليوم نعرف ان ذلك كان بسبب الثقة المفرطة بالنفس ، والارتياح الذي سببته هذه الثقة » (١) .

ويؤكد حاييم بارليف على الفرق بين المعلومات والتحليل في مقابلة خاصة مع دوف غولدشتان ، قال فيها رداً على سؤال عن سبب المفاجأة التي تعرّض لها الجيش الاسرائيلي في مطلع الحرب : « أولاً أريد أن أقول لك ، ان من الضروري في الاستخبارات التمييز بشكل واضح بين المعلومات التي تتدفق ، والتقدير المنبثق عن هذه المعلومات . أقول لك مع كامل المسؤولية بأننا قد عرفنا بتأهب مصر وسورية للقيام ضدنا بحرب ، والمعلومات عن ذلك كانت متوفرة لدينا بكثرة ، أنا يقظ لذلك ، ان بين الجماهير أناساً كثيرين يعتقدون بأن هذه الحرب قد سقطت على الاستخبارات بصورة مفاجئة . وانه لم تكن لدينا أية معلومات عن نوايا جيشي مصر وسورية الحربية . هذا ليس صحيحاً إطلاقاً . كانت هناك معلومات كافية تشير الى نية كهذه»... «ان كل مكاسب السوريين والمصريين في المرحلة الأولى ناجمة عن عدم الإنذار الكافي والمفاجأة»(٢). ويعود بارليف الى تأكيد هذه الأخبار في مقال نشره في صحيفة معاريف تحت عنوان « العبرة من الحرب » ، ووصف فيه الوضع الذي عاشه الجيش الاسرائيلي خلال الأيام الأولى من الحرب الرابعة **بأنه وضع « تعيس »** . ثم قال في تفسير ذلك : « ومن الجدير أن نشير الى أن ما أدى الى هذا الوضع التعيس ليس عدم وجود معلومات موثوقة . فقد كان بين يدي جيش الدفاع الاسرائيلي كل المعلومات حول قوة العدو، واستعداده، والوسائل الجديدة التي يمتلكها . أما الخطأ فكان في تقييم المعلومات الموجودة لدى الاستخبارات وليس في انعدام المعلومات الدقيقة والموثوقة » ... « ان نجاحات العدو المفاجئة سواء في سيناء أو في هضبة الجولان لم تنبع على كل حال من انعدام

(١) المرجع السابق .
(٢) معاريف ، ١٩٧٣/١١/٢

المعلومات ، أو من وجود مفهوم عملياتي غير صحيح لدى جيش الدفاع الاسرائيلي ، أو من خطأ في تقدير وتقييم نسبة القوى ، أو من استخدام أسلحة غير معروفة ، أو من قدرات غير متوقعة لجيوش مصر وسورية . لقد نجمت هذه النجاحات من حقيقة كون نظام الدفاع لجيش الدفاع الاسرائيلي لم يكن في الساعة المصيرية لبداية الحرب بكامل الاستعداد الذي يتطلبه خطر حرب شاملة » (١) .

ولا تصمد أقوال بارليف أمام المحاكمة المنطقية السليمة – تماماً كما لم يصمد خطه المحصن أمام الضربات الصحيحة – فهي مليئة بالتناقض الداخلي . انه يقول بأن سبب المفاجأة هو أن نظام الدفاع لم يكن بكامل استعداده . ولكنه لا يعلمنا لماذا لم يكن هذا النظام بكامل استعداده . ان السبب في ذلك – وهذا ما يعرفه بارليف جيداً – ناجم عن سوء المفهوم العملياتي ، وعن سوء تقدير القيمة القتالية للقوات والأسلحة العربية ، وعن سوء تقدير القيمة القتالية لجهاز الدفاع الاسرائيلي والقوات النظامية الاسرائيلية ، وعدم تقييم قدرتها الحقيقية على « الصد » و « الرد » ريثما يتم جمع الاحتياط اللازم لخوض الحرب الشاملة، وفق المفهوم الاستراتيجي الاسرائيلي الذي يدافع بارليف عنه. **ان عدم الاستعداد ناجم عن الاعتقاد بأن الاستعداد الموجود كافٍ** ، وهذا الاعتقاد الذي لم يصمد للاختبار يؤكد أن المعطيات التي استند إليها لم تكن صحيحة . أي أن تقييم نسبة القوى ، ومعرفة قدرات الجيوش العربية ، وتقييم قدرات القوات النظامية على الجبهتين كانت كلها خاطئة – على عكس ما يدعي – الأمر الذي جعل الاستنتاجات التي بُني عليها « المفهوم الأمني » غير صحيحة، بدليل اندحار القوة النظامية أمام الهجوم العربي، رغم الاعتقاد بأنها قادرة على صده ، وعدم تمكن هذه القوة من إعطاء الاحتياط الوقت الكافي للحشد والانتشار وشن الهجوم المضاد. ان النتائج الخاطئة ناجمة هنا عن

(١) معاريف ، ١٩٧٣/١١/٩ .

مقدمات خاطئة . ولا يمكن اتهام النتائج وإعطاء البراءة للمقدمات إلا من قِبل شخص مثل بارليف غارق حتى الأذنين في صياغة هذه المقدمات .

ويردّ رفل بنكلر على ادعاءات بارليف بمعرفة إمكانات القوات العربية مسبقاً ، فيقول بأن الخطأ جاء من سوء تقدير قيمة الجندي العربي والقوات العربية « بالنسبة للقائد كما بالنسبة لأصغر جندي تقف صورة الجندي المصري على غرار ١٩٦٧ (ليس الجندي المصري الذي كان في جرادي وأم قطف، بل الجندي الذي ترك حذاءه وهرب) وليس صورة الجندي المصري الذي كان في عام ١٩٤٨ (وهذا الجندي الذي كان في المرتفع ٦٩ وفي الحولقات والعوجة). كنا واثقين أن رجل مدرعاتنا أفضل وأكثر فاعلية من رجل مدرعات العرب، وأن طيارنا أفضل بلا مقارنة من الطيار المصري والسوري ، ونسينا أن الصواريخ المضادة للطائرات قد تعرقل عمله ، لم نقدّر تقديرات صحيحة النوعية الجديدة الكامنة في الكمية الكبيرة. لقد نسينا أن لقوة الدفع الجماعية نوعية خاصة بها »[1] .

ويذكر رفل بنكلر أن السؤال الأساسي الذي جابهه الجنود والمدنيون في الجبهة وفي الداخل هو: «أين كانت الاستخبارات؟ تعوّدنا على أن استخباراتنا هي من بين أفضل الاستخبارات في العالم . إذن ماذا حدث وحال دون أن تنقل الينا هذه الاستخبارات معلومات كاملة عن موعد البدء في الحرب ؟ وكانوا قد أسكتونا دائماً بقولهم: **بعد ساعات من بدء السادات التفكير بالحرب فاننا سوف نعرف ذلك . سوف نعرف حتى قبل أن تعطى تعليمات باعداد القوات (قبل أوامر التحرك) الى الوحدات .** هل كان هذا أقصى حد من التبجح ؟ لماذا لم نكن مستعدين للحرب ؟ لماذا لم نكن مطلعين على خطر الصواريخ المضادة للدبابات التي يحملها الأفراد ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »[2] .

---

(١) عل همشمار ، ١٢/١١/١٩٧٣ .

(٢) المرجع نفسه .

ويرد بنكلر على هذه التساؤلات بأن الاستخبارات علمت وأعلمت، ولكن تقييم المعلومات كان خاطئاً ، لأن التقييم يتم من قِبَل بشر يخضعون لأفكار قديمة ومفاهيم مسبقة . ولكن ألا يحتمل أن يكون السبب كامناً في انشغال الاستخبارات بملاحقة عمليات الفدائيين داخل الأرض المحتلة وخارجها ، وانشغال المسؤولين بالمشاكل السياسية الناجمة عن حرب اليهود ، وغرقهم في الهدوء والسعادة الزائفة التي جاءت كنتيجة لنصر عام ١٩٦٧ ؟ ولهذا كله أعطت الاستخبارات معقولية منخفضة جداً للحرب » . ولكن اذا كانت الاستخبارات العسكرية (الموديعين) قد وقعت في مثل هذا الخطأ الفادح فلماذا لم تصحح أجهزة الاستخبارات الأخرى (الموساد مثلاً) هذا الخطأ ؟ ولماذا لم تقدم المعلومات والاستنتاجات الصحيحة ؟ إن الإجابة على ذلك هو أن المناخ النفسي والأفكار المسبقة التي سيطرت على « الموديعين » سيطرت في الوقت نفسه على « الموساد » وعلى غيرها من المؤسسات الأمنية . وعندما كانت بعض التحليلات تتعارض مع هذا المناخ النفسي كان الآخرون يتهمون أصحابها بالانهزامية والمبالغة ، ويردّون عليهم بأن بوسع اسرائيل أن تربح الحرب بلوائين احتياطيين فقط[1] .

ويدافع الجنرال (احتياط) حاييم هيرتسوغ عن الاستخبارات من زاوية نظر أخرى ، ويلقي العبء كله على عدم وجود هيئة عليا للأمن القومي على غرار «مجلس الأمن القومي» في الولايات المتحدة . وهو يرى ان الاستخبارات غير مسؤولة « فمسؤولية التقدير هي في نهاية الأمر مشتركة بين أعلى المراتب

---

(١) ذكر بنكلر في عل همشمار ١٢-١١ أن يتسحاق بن أهارون أكد أن تقديرات دافيد اليعازر كانت قبل الحرب صحيحة ١٠٠ ٪ ، وأن غيره أكد بأن لواءين فقط يكفيان لكسب الحرب . ثم ذكر بنكلر في عل همشمار ١٤-١١ أن يتسحاق بن أهارون كشف في الولايات المتحدة أن موشي دايان لم يسمح لاليعازار بأن يجند أكثر من لوائين احتياطيين . وأن السبب في ذلك يرجع الى تقديرات دايان وبارليف واعتقادهما بأن القوات الموجودة على الجبهة كافية لصد الهجوم .

العسكرية والسياسية في الدولة »[1]. ولقد وجه هيرتسوغ النقد الى أن عدداً من كبار العسكريين ، (غالباً رئيس الأركان ورئيس شعبة الاستخبارات) كانوا يحضرون بصورة شبه دائمة في اجتماعات الحكومة « وتحوّل هؤلاء الضباط الى مقدمي تقارير دائمين في لجنة الخارجية والأمن في الكنيست »[2] . وأشار الى أن بن غوريون كان يرفض الاعتماد على مصدر استخبارات واحد « فقد كان يعتقد أن قائد الدولة لا يستطيع الاعتماد على مصدر استخبارات واحد ، لأنه مضطر في نهاية الأمر الى اتخاذ القرار الحاسم بنفسه ، ولذلك يستحسن أن تكون لديه آراء مختلفة وألا يؤمن إيماناً أعمى بأية جهة »[3] .

ومهما كانت فداحة خطأ الاستخبارات والقيادة العسكرية ووزير الدفاع ، فإن من المستحيل فهم وقوع خطأ كبير بهذا الحجم دون البحث عن مسؤولية الحكومة بل والنظام بكل مؤسساته . ولا يتعلق « التقصير » هنا في البحث عن المعلومات أو تفسيرها ، ولكنه يتعلق أساساً بالجو السياسي الذي خلقته الحكومة داخل البلاد ، والأمان الزائف الذي أقنعت الجماهير ونفسها بوجوده ، والتصرف في وسط هذا الجو بشكل تجاهل التحولات التي شهدتها المنطقة ، واستفز العرب والعالم ، وحرم السياسة الاسرائيلية من أي تعاطف عالمي ، وجعلها مضطرة للعمل ضمن هامش محدد ، هو هامش الدعم السياسي الأميركي وحده .

ويذكر أهارون كوهين أحد المستشرقين البارزين ان التقصير في المجال العسكري يعود أساساً الى خطأ في النظرة السياسية ، « فمنذ أكثر من ستة أعوام كانت السياسة الاسرائيلية محصنة وراء سور من انعدام المبادرة السياسية ، وغارقة في منطق « القرار بعدم اتخاذ قرار » ، وتناور أساساً « لكسب الوقت » . فقد كان من المسلّمات ان « الوقت يعمل لمصلحتنا » ، وقوبلت

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .

مبادرات الآخرين السياسية مثل الدكتور يارينغ ، ورؤساء افريقيا ... وساسة كبار من أصدقاء أوروبا الغربية – بردّ حاسم « العرب يعرفون عنواننا »[1] .

وفي الوقت الذي عمل به العرب كل ما في وسعهم لبناء قوتهم الذاتية وكسب « المناورة السياسية الخارجية » وتدعيم التضامن الداخلي ، كانت الحكومة الاسرائيلية الغارقة في أوهامها ، تتصرف بشكل يضعف « المناورة السياسية الخارجية » ويزيد حدّة الجدل الداخلي ، ويسلّم مقاليد البلاد كلها لحفنة من الجنرالات . ويذكر البيان الذي أصدرته منظمة الفهود السود بعد حرب تشرين الأول : « وحتى نشوب الحرب الأخيرة انهمكنا في حربنا اليومية . حربنا لأجل التعليم والسكن والأجور المعقولة . أما الأمن فتركناه في أيدي الجهاز . ووثقنا بتصريحاته ، حتى جاءت جيوش العرب فبرهنت – بدمائنا وأشلائنا – أن الثقة كانت خاطئة . لذلك جئنا اليوم ، بعد إحصاء من بقوا ومن سقطوا ، كي نطلب الحساب » ... « إننا نتهم الجهاز الاسرائيلي ، انه بأعماله وإهماله ، قاد الشعب في اسرائيل الى هوة الجحيم . إننا نتهم الجهاز بالإفلاس في المجال الذي باسمه وجد مبرراً لكل جرائمه وفشله – الأمن »[2] .

ويذهب البروفيسور يرمياهو يوفال الى أبعد من ذلك ، فهو يرى بأن كل اسرائيلي مذنب ، وأن وَهم القوة شمل الجميع وخدر المجتمع كله ، وجعله يتصرف تصرف الواثق المطمئن .

ولقد كتب البروفيسور يوفال بعد الحرب مباشرة : « إن التقصير عملياً أعمق وأوسع . تمتد جذوره الى تركيب المجتمع بأسره – أو على الأقل الى الصورة التي أضفاها هذا المجتمع على نفسه في الفترة الأخيرة – وتنبع مصادرها رأساً من القيادة . وإذا كان الجمهور أيضاً مذنباً ، فذلك لأن القيادة أغرته فاتكل عليها ، ووافق طوال أعوام على أن يتوقف عن انتقادها »[3] .

(١) عل همشمار ، ١٩٧٣/١١/٢٥ .
(٢) الاتحاد ، ١٩٧٣/١١/٢٧ .
(٣) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٢٨ .

ولقد أدت السياسة الحكومية الاسرائيلية ، وفشل « المناورة السياسية الخارجية » ، وتضاؤل عرض هامش المناورة ، كما سنرى فيما بعد ، الى عجز اسرائيل عن اتخاذ القرار بشن الهجوم الوقائي (الهجوم الإجهاضي المبكر) الذي تعتمد عليه الاستراتيجية الاسرائيلية ونظرية أمن العدو كلها . ولقد غدا من المعروف أن رئيسة الحكومة الاسرائيلية كلفت دايان في مساء ٥ تشرين الأول (اكتوبر) بالإعداد لهجوم إجهاضي ، وأن رئيس الأركان اليعازر طالب بشن مثل هـذا الهجوم في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر). ولكن الحكومة استبعدت مثل هذا الأمر « لأسباب سياسية » . ولقد حاولت المجموعة الحاكمة التبجح بأنها كانت على علم بالهجوم ، وكان بوسعها إحباطه بهجوم إجهاضي ، ولكنها لم تفعل ذلك حتى لا تبدو أمـام العالم كمعتدية . وفي مساء ٦ تشرين الأول (اكتوبر) أعلنت مائير في خطابها الذي وجهته من التلفزيون : « نحن لم نفاجأ بالهجوم المصري والسوري . لقد كانت المخابرات الاسرائيلية تملك معلومات عـن استعداد الدولتين للهجوم . ولذا فقد استعدت للقيام بهجوم مضاد . ولم تشغلها حفلات عيد الغفران عن الحيطة والحذر »[1] .

ثم كتبت صحيفة على همشمار في اليوم التالي : « كنا على علم بالخطر ، لأننـا كنا نعرف أهداف الحشود العسكرية الضخمة على جبهتي السويس والجولان ، ولكن القرار الاسرائيلي بعدم الضرب كان حاسماً »[2] .

وذكرت صحيفة دافار أن اسرائيل « كانت تعلم قبل عشرة أيام أن هناك عدواناً مصرياً – سورياً سيقع »[3]. ولكن كل هـذه المبررات ، وخاصة المبرر السياسي ، لا يبرىء الحكومة ولا يعفيها من المسؤولية ، لأن عدم شن الهجوم الإجهاضي « لأسباب سياسية» هو في حد ذاته اعتراف بفشل السياسة

(١) (ر. أ. أ.) ، ١٩٧٣/١٠/٧ .
(٢) على همشمار ، ١٩٧٣/١٠/٧ .
(٣) دافار ، ١٩٧٣/١٠/٧ .

الحكومية الـتي لم تستطع كسب « المناورة السياسية الخارجية » اللازمة لمثل هذا الهجوم ، مثلما فعلت في حرب ١٩٦٧ .

ويعيد زئيف شيف عدم قيام اسرائيل بالضربة الوقائية الى سبب آخر ، فهو يرى أن القرار بعدم شن الهجوم الإجهاضي يرجع الى «الشعور الاسرائيلي المعروف بالثقة »[1]. وباعتقادنا أن عدم البدء بالهجوم الإجهاضي الذي يتطلب الحشد والمباغتة والظروف الدولية الملائمة يرجع الى مجموعة أسباب: فهو يرجع **الى عدم توفر المناخ الدولي الملائم** – وهذا خطأ حكومي ، **والى التأخر في معرفة نوايا العرب الهجومية رغم كشف التحشدات** – وهذا خطأ استخبارات، **والى الجهل بقوة العرب والتطورات التي عرفتها جيوشهم** – وهـذا خطأ استخبارات أيضاً ، **والى الاعتقاد بقدرة القوات الموجودة في الجبهة على صد أي هجوم ريثما تتم تعبئة الاحتياط** – وهذا خطـأ وزير الدفاع وهيئة أركانه ، **والى الشعور المطلق بالثقة** – وهذا خطأ عام يشترك فيه الجميع .

دور الاستخبارات الأميركية

يذكر جون فيني (نيويورك تايمز) أن اسرائيل حصلت قبل الحرب بعام ونصف على صوَر مفصلة لطرق جديدة تؤدي الى نقطة التقاء هامة على الضفة الغربية لقناة السويس ، وكشفت الصوَر معدات سوفياتية لبناء الجسور مجمعة قرب نقاط العبور المحتملة . وعندمـا عرضت الصوَر على الخبراء الأميركين خرجت التقديرات الأميركية – الاسرائيلية بنتيجة واحدة هي « ان عبور القناة على نطاق واسع يمثل تحدياً يفوق قدرة الجيش المصري »[2] .

ولقد أكد الخبير البريطاني ك. أ. س. تايلر « أن سبب الخطأ في التقدير الذي وقع فيـه الخبراء الاستراتيجيون الغربيون يعود الى ضعف في الحساب لا الى ضعف في المعرفة الاستراتيجية . فقد أثبتت معارك الجولان وسيناء ان

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١٠/٢٨ .
(٢) نيويورك تايمز ، نقلته الأهرام ، ١٩٧٣/١١/٤ .

خطر صواريخ « سام » (أرض – جو) على الطيران الاسرائيلي فاق بكثير كل التقديرات السابقة التي بنيت على ضوء التجارب التي حدثت في فيتنام »[1] .

وتحاول الصحافة الغربية التأكيد على أن الاستخبارات الاميركية تعرضت لخطأ قاتل مماثل لخطأ الاستخبارات الاسرائيلية . ويذكر جورج شيرمن « ان المخابرات الاميركية تلقت في شهر نيسان (ابريل) الخطة الكاملة للحرب التي تنوي مصر القيام بهـا . ولكنها وصلت الى نتيجة أن الموعد المحدد للبدء بالحرب ليس له وجود . وقد أشارت الأوساط العليمة التي نشرت هذه الأنباء أن الاستخبارات الاميركية حصلت أيضاً على خطة سورية ولكن في شهر ايلول (سبتمبر) فقط ، قبل أسابيع من بدء الحرب . بيد أن اعتماد حكومة الولايات المتحدة على ملحقيها العسكريين ، واعتماد هؤلاء الملحقين من جانبهم على التقديرات المتشككة الاسرائيلية ، جعل الولايات المتحدة لا تنظر بجدية الى مشاريع الحرب المصرية والسورية[2] . ولقد قدّر الخبراء الاميركيون – حسب رأي شيرمن – « ان مصداقية الهجوم المصري لم تكن في أية مرحلة أكثر من ٤٠–٦٠ ٪ » ... « ان النظرة الى الوراء تؤكد اننا لم نضلل فقط بالثقة المفرطة من قبل اسرائيل ، بل اننا لم نعرف أيضاً كيف أجاد الروس في تعليم المصريين كيفية عدم لفت الأنظار »[3] .

وتتظاهر الولايات المتحدة بأن مفاجأة استخباراتها كانت كاملة ، حتى ان وزير الخارجية الاميركية كيسنجر صرح في مؤتمر صحفي عقده في ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) بأنه قد فوجىء تماماً بالحرب عندما أوقظ في السادسة صباحاً ليعلم بأن الحرب قـد اندلعت على نطاق واسع في الشرق الاوسط . وأشار الى أنه قد طلب من الاستخبارات الاميركية ثلاث مرات في الأسبوع السابق للحرب مباشرة ، إجراء تقييم للموقف ، فكان ردها « مطمئناً » وأن الحرب

(١) نقلته الحوادث ، ١٩/١٠/١٩٧٣ .
(٢) هآرتس ، ٥/١٢/١٩٧٣ .
(٣) المرجع نفسه .

« غير محتملة » رغم جميع « الظواهر المثيرة للقلق » . وعندمـا سئلت الاستخبارات الاسرائيلية عن رأيها حول الموقف أفادت بأنه « ليس هنـاك أي خطر » . ثم علّق كيسنجر على ذلك بأن هـذا الرأي « يعكس أفدح خطر يمكن أن تقع فيه تقديرات الاستخبارات حين تحاول أن تحشر الحقائق في قوالب من التصورات المسبقة ، وأن تجعلها متفقة مع ما سبق توقّعه »[1].

ولكن هل يعقل أن تكون الاستخبارات الاميركية بكل مـا تملكه من معدات استطلاع ، ووسائل رصد وتجسس ، قد وقعت في مثل هذا الخطأ ؟ إن هناك من يؤكد هذا الاحتمال ، كما أن هناك من يفضل الاعتقاد **بأن الولايات المتحدة علمت بالاستعدادات الهجومية، ولم تشأ إعلام اسرائيل عنها في الوقت المناسب ، حتى لا يقوم الجيش الاسرائيلي بضربة وقائية تعقّد الموقف وتحرج موقف الولايات المتحدة المضطرة لدعم اسرائيل . وأنها فضلت إعطاء الفرصة للعرب كيما يضربوا أولاً ويحققوا بعض المنجزات التي تعيد اليهم كرامتهم ، وتساعد على خلق المناخ الملائم لبدء مباحثات سلام من موقف التعادل، شريطة أن لا تكون الضربة قاصمة تؤدي الى انهيار دولة اسرائيل .** ويملك أصحاب الرأيين الحجج التي تدعم أفكارهما، فمن منهم على صواب ؟ إن الرد على هذا التساؤل مسألة ثانية تخرج عن إطار بحثنا .

* * *

والخلاصة أن اسرائيل تعرضت للمفاجأة لأكثر من سبب ، وهناك أكثر من مسؤول عن هذا الخطأ. ولقد جاءها الانذار فلم تصدقه،وحرمتها مفاهيمها السابقة من وضوح الرؤية . وعندما أرادت تسديد الضربـة الوقائية وجدت نفسها عاجزة عن ذلك لعدم توفر الشروط الملائمة لهذه الضربة، فاكتفت برفع درجة الاستنفار وتعبئة الاحتياط بشكل متأخر ، بيـد أن معلوماتها عن الجيوش العربية وتسليحها لم تفدها كثيراً لأنها كانت معلومات تتعلق بالمعدات

(١) الأهرام ، ٤/١١/١٩٧٣ .

والقطعات (المـادة) لا بمستوى التدريب والمعنويات والقيادة (الروح) ، ونجم عن هذا كله مفاجأة مذهلة ، تشكلت لجنة « اغرانات » على أثرهـا لكشف التقصيرات وتحديد المسؤولية .

يقول شعار سلاح المهندسين: « ان جندي الألغام يخطىء مرة واحدة » . ولكن يبدو من تطورات الأوضاع في اسرائيل ، والانتخابات التي أعادت الى السلطة معظم الحكام الذين فوجئوا ، بمن فيهم دايان ، أن تدخّل السياسة في الجيش **يجعل بوسع القادة في المستويات العليا أن يخطئوا أكثر من مرة** ، حتى ولو كان في خطئهم دمار شعبهم .

٥ ـ البعد الاستراتيجي لحصار باب المندب(*)

الصراع العربي – الاسرائيلي صراع من نوع خاص ، تحكمه قوانين خاصة هي قوانين المجابهة الناجمة عـن نزاع مصيري عدائي الطابع لا يقبل الحلول الوسط، ولا ينطبق عليه قانون حوار الارادات بمعناه المبسط بل بمعناه العنيف الذي لا يستطيع تحقيق الغرض إلا عند إنهاك الخصم بشكل كامل على الصعيدين المادي والمعنوي، بحيث أن الخصم لا يقبل الاستسلام – الذي يعني وجوده أو عدم وجوده – إلا عندما يغدو حجم الخسارة كبيراً لدرجة تعني أن استمرار الصراع مساوٍ للدمار الكامل .

وتنعكس طبيعة النزاع وعدائيته ومصيريته على الصراع نفسه ، ولذا فمن الطبيعي أن يكون أي صدام بين العرب واسرائيل عنيفاً الى الحد الأقصى ، شاملاً وطويلاً . فهو صراع بين شعب يعيش على أرضه ويحاول بناء حضارته من جديد، واستثمار ثرواته المحدودة للتخلص من تخلفه الاقتصادي والاجتماعي ولأخـذ مكانه بين الشعوب المتحضرة ، وشعب من الغزاة الأجانب المسلحين بالقوة المادية ، (العسكرية والاقتصادية والتنظيمية) والمشبعين بعقيدة صهيونية ديناميكية . والراغبين في أخذ مكان جزء من الشعب الأول ، بعـد إبادته وتشريده وشطب وجوده من التاريخ ، والانطلاق بعـد ذلك للسيطرة على الأجزاء الأخرى عسكرياً وحضارياً ، وإخضاعها لإرادته ، وإبقائها في حالة التخلف بغية المشاركة في استغلالها ونهب ثرواتها .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة الأسبوع العربي، عدد ٢٤ كانون الأول(ديسمبر)١٩٧٣.

وإذا ما أردنا تشبيه الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وجدنا أن طبيعة الأمور تقضي بأن لا يتم بأساليب المصارعة الرومانية التي تنتهي بتثبيت كتفي الخصم على الأرض ومنعه من الحركة ، بل بأساليب المصارعة الحرة التي تُستخدَم فيها كل أنواع الضربات الممنوعة وغير الممنوعة، وتستمر جولات غير محدودة، ولا تنتهي إلا بالضربة القاضية. ونقطة الخلل في الحروب العربية ـ الاسرائيلية الأربع التي جرت حتى الآن هو أنها جرت في القرن العشرين ووفق قوانين المجابهات الأوروبية (مجابهات المصالح) مع أن طبيعة النزاع الكامن وراءها يفترض أن تدور وفق قوانين مجابهات القرون الغابرة (المجابهات المصيرية) . لذا انتهت هذه الحروب كلها الى نتائج وتسويات لم تحسم النزاع ، بل جمدته مؤقتاً في وضع يحمل في طياته بذور صدام جديد .

ولكننا نلاحظ أن الخلل لم يكن متساوياً لدى الطرفين ، وأن أساليب الاسرائيليين كانت في الحروب الأربع الماضية أقرب من أساليب العرب تطبيقاً لقوانين الصراع المصيري ، وأن الجيش الاسرائيلي كان دائماً أشد عنفاً واستعداداً للتصعيد لنقل الصراع الى مستوى الحرب الشاملة العسكرية ـ الاقتصادية ـ النفسية . ولقد أدى هذا التباين الى اختلاف في شكل التعبئة والقتال على طرفي الخندق ، الأمر الذي أدى الى اقتراب الجانب الاسرائيلي ـ ضمن الحدود التي يسمح بها العصر ـ من القوانين الحقيقية التي تحكم الصراع، والى ابتعاد العرب أكثر مما ينبغي عن هذه القوانين .

ومن هنا ينبع تباين شكل العمليات وطابعها وحدودها . ومن هذا الفهم لفلسفة الحرب يمكن فهم سبب التخطيط لاجتياز الحدود الدولية أو عدمه ، والتمسك بوقف اطلاق النار أو خرقه، وضرب المدنيين والأهداف الاقتصادية أو الابتعاد عن هذا الضرب ، وتنفيذ الحرب الشاملة بكل وجوهها بما في ذلك «الخنق الاستراتيجي» الذي شكل في الحرب الرابعة أحد المظاهر الجديدة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وإحدى الخطوات التي خطتها القوات العربية المسلحة على طريق التحول نحو الأساليب المتلائمة مع شمولية المجابهة مع العدو .

ويمكن القول أن هذه هي المرة الأولى التي تطبق فيها القوات المسلحة العربية هذا الأسلوب الفعال غير المباشر في الصراع . فلقد كانت تطبق في الماضي استراتيجية تقليدية مباشرة هجومية الى حد ما (حرب ١٩٤٨) ، أو استراتيجية تقليدية مباشرة دفاعية (حربا ١٩٥٦ و١٩٦٧) دون القيام بتسديد ضربة قوية الى نقطة ضعف العدو المتمثلة بطول مواصلاته الخارجية وانفتاحه على العالم الخارجي عن طريق البحر فقط ، واعتماده اقتصادياً وعسكرياً الى حد بعيد على الامدادات الخارجية، الأمر الذي جعل الصراع الأساسي محصوراً في مناطق الحدود، دون التعرض لقصبتي التنفس الاستراتيجيتين الاسرائيليتين الطويلتين الممتدتين عبر البحرين : الأبيض المتوسط والأحمر .

وكان مبرر هذا الامتناع عن استخدام الخنق الاستراتيجي هو أن اللجوء اليه سيدفع اسرائيل الى تصعيد المجابهة وشن حرب شاملة ، أو استخدام الطيران على الأقل لضرب أهداف مدنية واقتصادية في عمق الأراضي العربية التي لم تكن دفاعاتها الجوية مكتملة. ولقد فكّر الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في تطبيق الخنق الاستراتيجي القريب قبل حرب ١٩٥٦ . ففي ١٢ ايلول (سبتمبر)١٩٥٥ شددت مصر الحصار على خليج العقبة وأصدرت قانوناً لتنظيم الدخول اليه. ويحدد هذا القانون ضرورة إعلان السفن عن رغبتها في الدخول قبل ٩٢ ساعة ، وأن تحمل تصريحاً من المكتب المصري الاقليمي المكلف بالإشراف على مقاطعة اسرائيل ومحاربتها اقتصادياً ، ومقره الاسكندرية . ومن المعروف أن هذا التدبير كان أحد الأسباب التي دفعت اسرائيل الى التحالف مع فرنسا وبريطانيا خلال العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، والذي كان من نتائجه حصول اسرائيل على حق المرور في خليج العقبة تحت إشراف قوات الطوارىء الدولية . (اتفاق ١٩٥٧) .

وفي ١٦ ايار (مايو) ١٩٦٧ ، وبعد حشد القوات المصرية في سيناء لتخفيف ضغط الحشود الاسرائيلية عن الجبهة السورية ، طلب الرئيس جمال عبدالناصر من سكرتير الأمم المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من شرم الشيخ لتحل محلها قوات مصرية ، معتقداً بأن القوات المصرية المحتشدة في سيناء

والقوات السورية المحتشدة على الحدود الشمالية للعدو، كافية لردع العدو ومنعه من شن هجوم بري يستهدف العودة الى السيطرة على المضائق المتحكمة بالملاحة في الخليج ، كما أنهـــا كافية للدفاع اذا ما غامر الجيش الاسرائيلي بمثل هذا الهجوم. وكان إقدامه على هذه الخطوة ضربة استراتيجية غير مباشرة لتصفية آخر آثار العدوان الثلاثي . ولم تكن اسرائيل قادرة على تحمّل هـذا الخنق الاستراتيجي الذي اعتبرته عدواناً موجهاً ضدها ومبرراً لشن الحرب . ولقد صرح اسحاق رابين في حزيران (يونيو) ١٩٧٢ بمناسبة مرور خمسة أعوام على حرب ١٩٦٧ : «حتى إغلاق المضائق كان في الإمكان إرجاع العجلة الى الوراء... واذا لم تكن اسرائيل ملزمة عملياً باتخاذ أي قرار عدا اتخاذ الاحتياطات لتكون مستعدة لكل طارىء ، فإنه منذ فرض الحصار أصبح الأمر عمـلاً عدائياً ضد اسرائيل أجبرها على القتال »(١). وذكر أبا ايبان في الفترة نفسها أنـه حذّر الدول العربية من فرض الحصار ، « ولكن الحصار فرض في ٢٢ أيار ... وكان واضحاً لكل أولئك الذين اشتركوا في المشاورات في اليوم التالي في تل ابيب... أن فرض الحصار يعني أن الحرب واقعة لا محالة – إلا اذا حدثت معجزة وألغاه ناصر »(٢) . واندلعت حرب ١٩٦٧ بعـد ذلك وعادت اسرائيل لفرض سيطرتها على المضائق ، وفتحت الملاحـــة في خليج العقبة .

ولقد أثبتت حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ حقيقتين هما :

١ – ان الخنق الاستراتيجي لا يتطلب قوات بحرية أو برية قادرة على منع الملاحـة في خليج العقبة أو في البحر الأبيض المتوسط فحسب ، بل يتطلب قوة برية وجوية ، قادرة على ردع العدو ومنعـه من إجراء قصف جوي انتقامي في العمق أو مهاجمة الدول العربية وفك الحصار بشكل غير مباشر .

٢ – ان الخنق الاستراتيجي القريب (عند مضائق تيران أو قرب شواطىء

(١) معاريف ، ٢/٦/١٩٧٢ .

(٢) المرجع نفسه .

البحر الأبيض المتوسط) لا يشكل الوسيلة الوحيدة للخنق ، وأن من الممكن تحقيق الخنق الاستراتيجي البعيد الذي يتعذر على البحرية الاسرائيلية مجابهته اذا كانت القوى البرية العربية قادرة على الردع أو الدفاع . كما أنه من الممكن أيضاً إحباط الخطة التي حددها ييغال ألون بقوله: « ان إغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية سيعتبر عملاً من أعمال الحرب السافرة ، وأنه (من وجهة نظر الاستراتيجية الحيوية) يجب أن لا تقوم اسرائيل بالاشتباك في حرب دفاعية مرتبطة بمسرح بعينه – مثل منطقة مضائق تيران – أو بموعد معين – مثل الموعد الفعلي للإغلاق – يختارهما الحاكم المصري ... فمن الواضح أنـه سيحاول اختيار الزمان والمكان الأنسب له وغير المناسبين لإسرائيل . ولا توجد غلطة أكبر من السماح للعـدو بأن يفرض مكان الفعل وزمانه ... وبالتالي أسلوبه . ان إغلاق مضائق تيران ليس عملاً يستدعي مجرد رد فعل محلي . إنه يصل الى حد إعلان الحرب، الذي يسمح لإسرائيل بأن تحدد مكان ومدى ساعة الصفر لعملها »(١) .

وفي تشرين الأول (اكتوبر) تبدلت الأوضاع، وغدا في وسع الدول العربية تنفيذ الخنق الاستراتيجي ، نظراً لأن قوتها البرية والبحرية ووسائط دفاعها الجوي غدت قوية وقادرة على مجـابهة العدو بفاعلية ، بل ومهاجمته وتحطيم خطوطه الدفاعية . وغـُطـّيت الثغرة في الدرع الدفاعي العربي على الحدود . وصار في وسع السيف قطع قصبات التنفس الاسرائيلية دون أن يحسب حساب ضربات الردع الانتقامية. وكانت القوى البحرية المصرية متفوقة الى حد بعيد على البحرية الاسرائيلية. فهي تملك ٥ مدمرات ليس لدى اسرائيل ما يماثلها، و ١٢ غواصة مقابل غواصتين اسرائيليتين، و٢٦ زورق صواريخ سطح–سطح من طراز « ستيكس » مقابل ١٤ زورق صواريخ سطح – سطح من طراز «غبرييل» ، و ٥١ زورق طوربيد مقابل ٩ زوارق طوربيد، و ١٢ مطاردة

(١) آلون ، **انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي** ، ص ١٨٧ من الترجمة العربية ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ .

غواصات و ١٠ كاسحات ألغام أسطول لا يملك العدو مثلها [١] .

وكان أمام القوات البحرية العربية احتمالان لتنفيذ الخنق : أحدهما الخنق القريب ، والآخر الخنق البعيد في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر . ولقد اختارت الخنق البعيد لحرمان البحرية الاسرائيلية من إمكانات العمل التي يوفرها لها الطيران الاسرائيلي (وخاصة « الفانتوم ف – ٤ إي») ضمن مدى عمله ، ولأن الخنق البحري البعيد سيستفيد من الدعم الجوي الذي تؤمنه طائرات عربية تنطلق من مطارات السودان واليمن وجنوبي مصر اذا ما تم في البحرالأحمر ، ومن الدعم الجوي الذي تؤمنه طائرات تنطلق من مطارات المغرب والجزائر وليبيا اذا ما تم في غربي البحر الأبيض المتوسط .

ويبدو أن الاختيار العربي وقع على تنفيذ الخنق في البحر الأحمر ، وقطع قصبة التنفس الاستراتيجية الاسرائيلية الجنوبية فقط للأسباب التالية :

١ – ان هذا الخنق يؤدي الى قطع البترول (وهو مادة استراتيجية هامة) عن اسرائيل .

٢ – ان وجود مضيق باب المندب وسيطرة اليمنين الشمالي والجنوبي يسهل عملية المراقبة والحصار .

٣ – ان الاسطول السادس المتجول في البحر الأبيض المتوسط سيحبط عملية الحصار فيه بسهولة .

٤ – ان إمدادات الأسلحة القادمة عن طريق البحر الأبيض المتوسط محمولة على مراكب اميركية يتعذر على البحرية العربية اعتراضها .

٥ – ان الحصار عند باب المندب يحرم اسرائيل من الحجة التي تقدمها للتمسك بشرم الشيخ بغية حماية الملاحة في خليج العقبة، لأنه يثبت أن وجودها في شرم الشيخ لا يؤمن هذه الملاحة، كما أنه يظهر سخف التصريحات الاسرائيلية

---

(١) الميزان العسكري ١٩٧٣ – ١٩٧٤ (Military Balance) ، مؤسسة الدراسات الاستراتيجية ، لندن .

المتشددة المشابهة لتصريح وزير شرطة العدو شلومو هيلل الذي قال في تموز (يوليو) ١٩٧١ : « ان أي مجهود دبلوماسي لحمل اسرائيل على الانسحاب من شرم الشيخ هو مضيعة للوقت لأن هذا الموقع يشكل الضمانة الوحيدة لحرية مرور السفن الاسرائيلية الى خليج العقبة » [١] .

٦ – تحول موقف الحبشة بشكل واضح وصل خلال الحرب الى حد قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل .

ولقد بدأت عملية الخنق الاستراتيجي العربي البعيد بعد ظهر يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ، إذ قامت مدمرتان مرابطتان قرب جزيرة بريم ، المطلة على مضيق باب المندب، بإعلام الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بأن المضيق مغلق في وجه البواخر الاسرائيلية المتوجهة الى ميناء ايلات أو المبحرة في الطريق الى خليج عدن والمحيط الهندي ، وفي وجه كل باخرة تحمل مواد استراتيجية تخدم أغراض اسرائيل الحربية ، مهما كانت جنسية هذه الباخرة . وهنا اشترك اليمنيون الشماليون والجنوبيون في عملية إغلاق المضائق ، إذ نشروا وحدات مدفعية ومشاة على الشاطىء ، وحوّل الجنوبيون جزيرة بريم الى قاعدة عسكرية وزودوها بعدد من المدافع ، وقاموا بتسيير دوريات بحرية بالاشتراك مع اليمنيين الشماليين . ويذكر راشد محمد ثابت ، وزير الإعلام في اليمن الديمقراطية الشعبية ، أن بلاده اتخذت احتياطات عسكرية لصد أية مغامرة اسرائيلية تستهدف السيطرة على باب المندب ، « خاصة أن القوات الاسرائيلية ما زالت متواجدة في بعض الجزر عند مدخل البحر الأحمر وهذه الجزر تقع ضمن أراضي الحبشة » .

وأدّت هذه التدابير الى شل ميناء ايلات طوال شهري تشرين الأول (اكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) . ومنعت وصول جميع البواخر التي تحمل العلم الاسرائيلي ، كما منعت وصول ناقلات النفط . ولم تكن القوات البحرية-

---

(١) (و.ص.ف) ، ١٩٧١/١٠/٢٣ .

الجوية الاسرائيلية قادرة على فك الحصار بوسائلها الخاصة . وبقيت مسألة الخنق الاستراتيجي سرية حتى كشفت غولدا مائير النقاب عنها في مؤتمر صحافي عقدته في لندن بتاريخ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) وحاولت أن تربط فيه بين مفاوضات نقطة الكيلومتر ١٠١ وفك الحصار عن باب المندب ، وأن تدخل هذه المسألة في نطاق التسوية [١] .

وبالرغم من عدم ورود مسألة إغلاق باب المندب في «اتفاق النقاط الست» [٢] فقـد بدأت الصحف الاسرائيلية تطالب الحكومة بضرورة تضمين المحادثات ربط مسألة تموين الجيش الثالث – بالماء والمؤن والامدادات غير العسكرية – بمسألة فك الحصار . ثم سرَّبت الأوساط الاسرائيلية الى الصحافيين نبأ مفاده أن هناك اتفاقـاً اميركياً – مصرياً على فك الحصار عن باب المندب دون إدراج ذلك في بنود الاتفاق بشكل علني . وكان تحرك بعض قطع الأسطول السابع الاميركي نحو خليج عدن نوعـاً من الضغط الامبريالي على العرب ، وتهديداً خطيراً لأمن المنطقة وسلامتها . ولقد رافق هـذا التحرك ارتفاع أصوات في اسرائيل تنادي بإرسال بواخر تجارية لتجربة إمكانية الملاحة عبر مضيق باب المندب. وكان من المحتمل أن تقوم اسرائيل بهذه التجربة لاختلاق حادث بحري تطالب بعده بتدخل الأمم المتحدة . ولكن الولايات المتحدة الاميركية فضلت أن يتم خرق الحصار تحت حماية مراكب الأسطول الاميركي. وفي ١١ كانون الأول (ديسمبر) ، أي بعد أكثر من شهرين من بدء الحصار ، ذكرت وكالة « سانا » أن سفناً اسرائيلية استطاعت اختراق الحصار المصري على مضيق باب المندب وعبَرته الى البحر الأحمر (قبل يومين) في حماية قطع حربية تابعة للأسطول السابع الاميركي .

وهكذا بدأت هذه الجولة من الصراع العربي – الاسرائيلي وانتهت دون

---

(١) وكالة رويتر ، ١٩٧٣/١١/١٢ .

(٢) هو الاتفاق الذي وقعه المصريون والاسرائيليون في يوم ١١–١١–١٩٧٣ ، داخل خيمة الأمم المتحدة المنصوبة عند الكيلومتر ١٠١ على طريق القاهرة – السويس .

أن يعلن عنها بشكل رسمي. وكان من الممكن أن تؤدي الى نتائج استراتيجية واقتصادية هامة لو طال أمد الحرب ، واستطاعت القوات المصرية استعادة منابع النفط في سيناء أو تدميرها بشكل كامل . لأن الحصـار مع ضياع مصادر النفط المحلية كان سيعرِّض اسرائيل الى أزمة وقود حادة تزداد أهميتها بسبب التدابير النفطية العربية وضخامة استهلاك المحروقات في الحرب الحديثة.

إن عملية الحصار البحري عند مضيق باب المندب هي أول عملية خنق استراتيجي بعيد في الصراع العربي – الاسرائيلي . ولقد أدت هـذه العملية الاستراتيجية غير المباشرة الى تدخل اميركي مادي عسكري (قطع من الاسطول السابع) وتدخُّل دبلوماسي. وكان من الممكن أن تؤدي الى تدخل عسكري بحري ايراني لحماية مراكب النفط الايرانية المتجهة الى ميناء ايلات ، رغم مشروعية الحصار المبنية على أن مضيق باب المندب يقع ضمن النطاق البحري الاقليمي ، ويحق لليمنيين دولياً إغلاق المضيق في حالة الحرب لمنع الدولة أو الدول المعادية من الإفادة منه .

ان محدودية حجم عملية الخنق الاستراتيجي التي تمت خلال حرب تشرين الأول (اكتوبر) وبعدهـا ، وخضوعها لتحديدات العمل الدولية ، وقدرة الولايات المتحدة الاميركية على إجهاضها لا تحرم العملية من أهميتها كتحول استراتيجي نوعي في الصراع العربي – الاسرائيلي ، وكخطوة أساسية عـلى طريق تحويل الحرب – من الجـانب العربي – الى حرب شاملة تنسجم في مدتهـا وعنفها وشمولها مع مصيرية النزاع الذي نعيشه منذ أن وجد الخطر الصهيوني الذي يجثم على صدرنا ، ويعيق تقدمنا وازدهارنا ، ويهـدد وجودنا كأمة متحضرة تساهم في صنع تاريخ الانسانية .

٦ - لماذا نحن بحاجة لحرب طويلة الأمد(*) ؟

يتجابه في الصراع العربي-الصهيوني الدائر بعنف لم تشهد له منطقتنا مثيلاً استراتيجيتان متباينتان ومفهومان مختلفان . وتقف على الجانب العربي من الخندق قوة مسلحة تحريرية تعتمد على ايمانها بإمكانات شعبهـا وقدراته اللامحدودة على العطـاء والبذل والتضحية في سبيل كرامته وتحرير أرضه ، وتستند الى مساعدة الدول الصديقة المحبة للسلام . على حين تقف على الجانب الصهيوني قوة قمعية استعمارية تعتمد على تفوقهـا المادي والتقني ، وإمكانات الحصول على مزيد من القوة المـادية من ترسانات الولايات المتحـدة الاميركية عدوة الشعوب المتطلعة الى التحرر والازدهار .

ولقـد ظهر منذ البداية أن خطة العمليات الحربية العربيـة التي أدخلت في حسابها مجمل العوامل المادية والمعنوية المؤثرة، لم تكن تستهدف القيام بضربة خاطفة تنهي الحرب خلال أيام ، بل تستهدف ، على العكس ، ضرب العدو ضربات متتالية عنيفة ممتدة في الزمان والمكان حتى ينهـار إيمانه بأن قوّته العسكرية قادرة على حسم الصراع لصـالحه على مسرح العمليات العسكرية - حتى ولو كانت هذه القوة كبيرة تصلها الامدادات الاميركية بلا انقطاع - ويضطر الى الخضوع للإرادة السياسية العربية العادلة ، ويقبل شروط « السلم العربي » . وكانت الخطـة الاسرائيلية مبنية على تقييم خاطىء لحجم القوة العسكرية المادية العربية، ومستوى القوى المعنوية والتلاحم الوطني في الأقطار

(*) كتبت هذه الدراسة خلال القتال، ونشرت في مجلة الأسبوع العربي عدد ٢٢/١٠/١٩٧٣ (يوم وقف إطلاق النار رسمياً) تحت عنوان « لماذا حرب طويلة الأمد ؟ » .

العربية المشتركة في القتال، ومدى التطور الذي حققته الجيوش العربية في مجالي التدريب والتكنولوجيا . وكانت هـذه الخطة تستهدف تسديد ضربات قوية تدمّر القوات المسلحة العربية ، وتحسم الصراع بقوة السلاح في مكان وزمان محددين وصغيرين ، وتجرّد الأمـة العربية من درعها ، وتجبرها على الخضوع لإرادتها السياسية .

وفي حوار الارادات الدائر بين الطرفين على جميع المسارح العسكرية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية تحاول الخطة العربية تفتيت إرادة العدو وإنهاكها على المدى الطويل عن طريق الاقناع المسلح الطويل العنيف (فوق أرض المعركة) بأن قوتـه المسلحة عاجزة عن إيصاله الى النصر . على حين تحاول الخطة المعادية كسر الارادة العربية بضربة حاسمة سريعة لا يجد العرب الوقت اللازم لدرئها أو لجمع القوى واستخدامها ضدها .

وهكذا يتجابه مفهومان مختلفان وأسلوبان متباينان . وتشير الدلائل كلها الى أن الأسلوب العربي قد حقق في المرحلة الماضية من القتال جل أغراضه ، وحصل في مجال الاستراتيجية على ثلاثة انتصارات :

١- لقد أحبط خطة العدو ومنعه من استخدام أسلوبه، ٢ – حدد حرية عمل العدو ، ٣ – فرض على العدو شكل الحرب ومكانها وزمانها ومدتها ، وجعله يعترف بأنه مضطر لخوض حرب طويلة شاقة باهظة التكاليف .

والآن وقد جررنا العدو من مواقعه وفرضنا عليه حربنا بأسلوبنا وبالشكل الذي يلائمنا ، لا بد لنا من ذكر العوامل التي تدفعنا الى تبني أسلوب الحرب طويلة الأمد الرامية الى تعديل ميزان القوى لصالحنا ، عـن طريق التدعيم المتدرج لقوانا المادية والمعنوية، والضرب المتدرج لقوى العدو المادية مع تفتيت قواه المعنوية بتأثير الملل وفقدان الأمل بنصر عسكري على مسارح العمليات.

وبالرغم من أن المبدأ الاستراتيجي الذي يحكم هذه الحرب طويلة الأمد هو نفس المبدأ الاستراتيجي « الماوي » للحرب طويلة الأمد ، فإن ميكانيكية حربنا الدائرة حالياً، ومراحلها متميزة عن الميكانيكية والمراحل التي طُبّقت

في الصين أو فيتنام ، وهي أقرب الى الميكانيكية والمراحل التي شهدتها حرب التحرير الوطنية الكورية (١٩٥٠ – ١٩٥٣) مع بعض الفروق في المجالين الدولي والعملياتي .

وتعتمد حربنا طويلة الأمد على العوامل التالية :

١ - العامل النفسي :

ان أول نتائج حربنا الطويـلة الإيجابية على الوضع النفسي لجماهيرنا هي تخلص الجماهير من تأثيرات الردع الإسرائيلي ، وتصاعد قدرتها على الصمود وتحقيق النجاحات المتراكمة التي تنتهي بالنصر . والنتيجة الثانية هي التفاف الجماهير أكثر فأكثر حول قياداتها وقواتها المسلحة ، وتصعيد مشاركتها في المعركة . أما النتيجة الثالثة فهي تزايد صلابة ووعي جماهيرنا وقواتنا المسلحة المشتبكة مع العدو في حرب تحريرية عادلة تستهدف هدفاً عادلاً .

وعلى الطرف الآخر من الخندق تؤثر الحرب الطويلة بصورة سلبية على نفسية العدو ، فهي تجرده من إحساسه بالتفوّق ، وتحطم في أعماقه الأوهام القائلة بقدرته على تحقيق النصر بسرعة خاطفة ودون جهد أو خسائر . وتطرح طول مدة الحرب أمام الجماهير والقوات المسلحة المعادية الأسئلة التالية : الى متى ؟ وماذا تفيدنا الحروب والانتصارات ما دام العرب ينهضون بعد كل نكسة ، ويستعدون لشن حرب جديدة ؟ فإذا أضفنا الى ذلك الحقيقة التي يعرفها كل إنسان عن أن سبب اندلاع هذه الحرب بكل مآسيها وويلاتهـا يتمثل في سياسة التعنّت والغطرسة والتوسع التي مارستها السلطات الاسرائيلية الحاكمة منذ عـام ١٩٦٧ ، ورفض هذه السلطات لكل المبادرات العربية والعالمية التي كان من الممكن أن تؤدي الى السلام منذ وقت بعيد وبطريق سهل لا ترسمه الدماء والدموع ، تصوّرنا مدى التفتت النفسي الذي سيصيب معسكر العدو ، ومدى الهوّة التي ستنفتح بالتدريج بين سلطـات تل أبيب وجماهير العدو التي تدفع على جبهات القتـال غالياً ثمن أخطاء هذه السلطات وسوء فهمها لحقائق الوضع وطبيعة الإنسان العربي ، وعماهـا السياسي الذي

منعها من الإمساك بفرص السلام في السنوات الست الماضية عندما كان بوسعها الوصول الى السلام في ظروف مريحة جداً .

ان طول مدة الحرب وضراوتها ضروريتان لحصول مثل هذا التفتت على المدى البعيد . ولا ينبغي علينا أن نتصور انالتحول الذهني لدى العدو يمكن أن يتم بين عشية وضحاهـا . فالجماهير الاسرائيلية معبأة حتى نخاع العظم بعقيدة ديناميكية عنصرية دينيـة (الصهيونية) ، وخاضعة لعملية غسل دماغ طويلة تستند الى اسطورة تفوّق الإنسان الاسرائيلي ، وفظائع المذابح التي تعرض لهـا اليهود في العالم عبر التاريخين القديم والحديث وضرورة حماية المجتمع الاسرائيلي « المتحضر(!) » المزروع وسط بحر عربي معادٍ لا يفكر إلا بإبادة العنصر اليهودي (!) . وطول مدة الحرب وضراوتها ضروريتان أيضاً لخلق التناقض الطبقي وزيادة حدته ، خاصة وان الطبقات الكادحة في اسرائيل والمستغَلة من قبل البنيات الفوقية السياسية والاقتصادية قد خضعت طوال السنوات الماضية لعملية تدجين كبيرة، وشاركت في عملية نهب العرب، وغدت جزءاً من النظـام الاستغلالي كله ، الأمر الذي أخمد حدّة التناقضات الطبقية في مجتمع العدو ودفعها الى صفوف خلفية .

٢ ـ العامل الدولي :

لقد نجح العرب قبل بدء الحرب في كسب «المناورة السياسية الخارجية»، واستطاعت الدبلوماسية العربية عزل واشنطن وتل أبيب عالمياً ، وكشفت طبيعة العدو وأطماعه ، وجمعت الرأي العام الأوروبي والافريقي والآسيوي ضده . وستعزز الحرب العادلة طويلة الأمد وما تحققه من انتصارات هذا الكسب وتعمّق جذوره ، خاصة اذا طرحت قضايا الحرب والسلام بمهـارة وتكتيك ناجحين،مع استغلال المواقف السياسية والعسكرية بتناوب وتناسق جيدين ، والتركيز على عدالة الحرب العربية وعدوانية حرب العدو وعـدم عدالتها ومحاولتها لا لتجاهل الحق العربي فحسب ، بل لتجاهل إرادة العـالم وجميع المؤسسات الدولية وقراراتها .

وتعتبر الحرب طويلة الأمد ، في الوقت نفسه ، دعاية مسلحة حيّة نابضة لحقنا العادل نكتسب بهـا مزيداً من التأييد العالمي وتعاطف الدول التقدمية المحبة للسلام ومساعدتها التي لا غنى عنها .

٣ ـ العامل الاقتصادي :

تستنزف الحرب طويلة الأمد اقتصـاد الطرفين المتحاربين ، بل ان حجم الخسارة الاقتصادية التي ستتعرض لها الشعوب العربية ستكون أكبر من الخسائر التي يتعرّض لها العدو، نظراً لاستخدام العدو لوسائطه الجوية بغية تدمير القاعدة الاقتصادية العربية . بيد أن تجارب الحروب طويلة الأمد (كوريا ـ فيتنام) قد أكدت بمـا لا يقبل الشك أن المجتمعات غير الصناعية تستطيع التلاؤم مع اقتصاد الحرب طويلة الأمد وتكييف حياتها وفق متطلبات هذه الحرب أكثر من المجتمعات المعقدة الصناعية ـ التجارية .

وبالإضافة الى ذلك فإن من الصعب أن يؤثر الاستنزاف الاقتصادي مباشرة على حجم القوات المشتركة في الحرب القائمة حالياً ، لأن أسلحة هـذه القوات لدى الطرفين مستوردة من ترسانات المعسكرين السوفياتي والاميركي .

وتستطيع اسرائيل تعويض خسائرها الاقتصادية من المساعدات الاميركية والصهيونية ،كما تستطيع الدول العربية المشتركة في القتال تعويض هذه الخسائر من مساعدات الدول العربية النفطية الغنية اذا ما ألقت هـذه الدول وزنها الاقتصادي في المعركة . بيد أن المساعدة الاقتصادية الاميركية لإسرائيل ستخلق على المدى الطويل انعكاسات اقتصادية محدودة داخل المجتمع الاميركي يمكن أن تأخذ حجماً كارثوياً اذا مارست الدول العربية النفطية الغنية ضغطاً مالياً واقتصادياً متصاعداً على واشنطن، وهذا أمر تؤكده قرارات ١٧/١٠/٧٣ التي أخذها مؤتمر وزراء النفط والمال الذي انعقد في الكويت .

أما على صعيد اليد العاملة وأثرها على الاقتصاد الداخلي، فإن الحرب طويلة الأمد تؤثر على اسرائيل أكثر من تأثيرها على الدول العربية ، لأن اسرائيل المضطرة لحشد غالبية اليد العاملة المنتجة وإرسالها الى جبهات القتال ، ستجد

أن عجلتها الاقتصاديةوالصناعية والزراعية مصابة بالشلل أو بفقر اليد العاملة، على حين أن بوسع الدول العربية حشد قوات عسكرية كبيرة متفوقة بشرياً على قوات العدو دون أن يشكو اقتصادها الصناعي أو الزراعي من فقر اليد العاملة التي تزيد في الأساس عن حاجات الاقتصاد العربي من اليد العاملة. ومن المؤكد أن تعثر العجلة الاقتصادية الاسرائيلية سيتزايد كلما طالت مدة الحرب، وارتفع مستوى مشاركة عرب الأرض المحتلة في مقاطعة العمل الاسرائيلي، الأمر الذي سيجبر تل ابيب على اتخاذ تدابير جدية تشبه معسكرات العمل الاجباري التي طبقها النازيون في الحرب العالمية الثانية، وكان من أبرز انعكاساتها زيادة حدة المقاومة السرية، وتصعيد عمليات تخريب الانتاج (السابوتاج). وانضمام أعداد كبيرة من الشبيبة الأوروبية الى منظمات الكفاح المسلح تخلصاً من معسكرات العمل الاجباري.

٤ ـ العامل البشري :

تستنزف الحرب طويلة الأمد قوى الطرفين. وكلما زادت مدة الحرب تزايد عدد الخسائر من قتلى وجرحى وأسرى ومفقودين. ولسنا بحاجة هنا الى إجراء مقارنة بين الاحتياط البشري الذي تملكه الدول العربية المشتبكة في الصراع، والاحتياط البشري الاسرائيلي.

إن كل جندي عربي يسقط في ساحة القتال يجد أكثر من جندي احتياطي يحل محله. أما الجندي الاسرائيلي الذي يسقط فإنه يترك فراغاً ليس هناك من يملؤه. وقد تستطيع اسرائيل في الحرب القصيرة تعويض خسائرها بالمتطوعين اليهود وبالمرتزقة التقنيين. ولكن ما هو مدى استعداد المرتزقة للتضحية، وما هو مستواهم المعنوي، وما هو مدى التزامهم وإمكانات استمرار تدفقهم على اسرائيل في حالة وجود صراع طويل حادّ شرس كبير الخسائر؟

لقد أثبتت الحروب الاستعمارية أن المرتزقة يصلحون للحروب القصيرة التي تقوم بها قوات متفوقة ضد شعوب فقيرة عزلاء، لأن نسبة خسائر القوات

المتفوقة تكون محدودة، الأمر الذي يزيد الاغراءات أمام المرتزقة. ولكن المرتزقة لا يصلحون بأي شكل من الأشكال للحروب الطويلة المنهكة التي تنخفض فيها الى حد بعيد إمكانات نجاتهم من الموت.

أما بالنسبة للمتطوعين اليهود، وخاصة يهود الولايات المتحدة الاميركية من ذوي الجنسية المزدوجة، فهو أمر محتمل وبالغ الخطورة. ولكن حالة هؤلاء المتطوعين النفسية لن تكون أفضل من حالة جنود اسرائيل. فهم يعرفون انهم يحاربون حرباً غير عادلة، ويعرفون انهم يقاتلون دفاعاً عن دولة قال مؤسسوها بأنها ستخلّص يهود العالم من حملات الاضطهاد والابادة، فإذا بها تنقلب الى دولة تشن حملات الاضطهاد والابادة. وأنهم يقاتلون دفاعاً عن دولة حلم مؤسسوها بأن تكون جنة سلام لليهود، فإذا بسياسة زعمائها تحولها الى مكان يتعرض فيه اليهود للخطر أكثر من أي مكان في العالم.

وعلينا رغم كل هذا أن لا نقلل من الدور الذي سيلعبه المتطوعون اليهود. ولكن ما هو حجمهم؟ إن يهود العالم كلهم ١٤ مليوناً، منهم ٣ ملايين تقريباً في اسرائيل، و ٣ ملايين تقريباً في الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشرقية. فإذا أسقطنا هذا الرقم من الحساب، لأن الاسرائيليين موجودون بالفعل في ساحة المعركة، ولأن الاتحاد السوفياتي لا يمكن أن يسمح بهجرة اليهود من بلاده على نطاق واسع، وخاصة في فترة الحرب طويلة الأمد، وإلا تناقض مع سياسته المؤيدة للعرب، وجدنا أن لدى يهود العالم ٨ ملايين انسان (٥ ملايين منهم في الولايات المتحدة). ولقد اندمج قسم كبير من هؤلاء اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، كما ان شرائح كبيرة منهم معادية للصهيونية. والملايين الباقية المؤيدة للصهيونية لا تقارن بملايين الجماهير العربية الاحتياطية التي لم تشترك في المعركة بعد.

ويؤثر طول مدة الحرب على صعيد التعبئة العسكرية، فلقد بنت اسرائيل قواها الاحتياطية ونظام التعبئة فيها على سرعة دعوة الاحتياط والقدرة على جمعه خلال يومين أو ثلاثة، وحسم الحرب في معركة خاطفة قبل أن يحشد العرب قواهم. ولقد استطاعت تحقيق ذلك بفضل التنظيم الجيد وضخامة

جهــاز التعبئة ، ودقة المواصلات . وكلما طالت مدة الحرب استفاد العرب من الزمن لإجراء التعبئة .

وتلعب الخسائر البشرية في الحرب طويلة الأمد دوراً معنوياً غير متساوٍ في البلدان العربية وإسرائيل . فالتأثير المعنوي السلبي لخسارة ١٠٠٠ جندي مصري مثلاً لا يعــادل التأثير المعنوي السلبي لخسارة ١٠٠٠ صهيوني . لأن نسبة الخسارة لدى المصريين في هذه الحالة ستكون ١/٣٢،٠٠٠ من السكان على حين انها ستكون لدى الاسرائيليين ١/٣٠٠٠ . فإذا ما وزعت الخسائر على القرى والأحياء ... الخ ، وجدنا ان مقابل كل جندي مصري يخسره هذا الحي أو تلك القرية ... الخ ، يقابله عشرة جنود تخسرهم القرية أو الحي الاسرائيلي ، الأمر الذي يؤدي الى تركيز الأثر المعنوي السلبي للخسائر في المجتمع الاسرائيلي وتحلل هذا التأثير وسط المجتمع المصري . ولا يصل التأثير المعنوي السلبي للخسائر في المجتمع المصري الى المستوى الذي يصل فيه داخل اسرائيل إلا اذا ارتفعت الخسائر المصرية الى عشرة أضعاف الخسائر الاسرائيلية. وينطبق هذا الحساب على المجتمعات السورية والعراقية والمغربية... الخ بنسبة أقل ، ولكنه يبقى مع ذلك صحيحاً وقابلاً للتطبيق .

٥ ـ عامل المشاركة العربية :

لقد فجرت الحرب كثيراً من الإمكانات وفتحت الكثير من الآفــاق وأخمدت العديد من التناقضات . ولكن المشاركة العربية لم تأخذ حجمهــا المنتظر بعد . وتملك الدول العربية قوات برية وجوية لم تزل حتى الآن خارج مسارح العمليات ، ولم تقترب من أماكن تمركزها الى العمق العملياتي أو الاستراتيجي رغم امكانية القيام بهذا الاقتراب.ولا شك أن طول مدة الحرب ستساعد عملية الانتقال والحشد ، كما ستلغي تردد الكثير من الدول العربية التي لم تحسم موقفها العسكري بعد .

وكلما طالت مدة الحرب وطال الدعم الأميركي للعدو كلما ازداد حجم

تدخل الدول العربية في القتــال ، وازداد دفع الجماهير الشعبية على الأنظمة العربية لإجبارها على أخذ مواقف راديكالية تجاه واشنطن .

ان الحرب طويلة الأمد هي حربنا التي تتلاءم مع ظروفنا . ولقد بدأناها بثبات وإصرار ولا بد لنا من الاستمرار فيها حتى النصر . انها الحرب التي تخيف العدو لأنهــا لا تتلاءم مع ظروفه وتصوراته للحرب . ولكن العدو اضطر أمام الانتصارات العربية في الأسبوعين الأولين من القتال الى الاعتراف بأن حربه ستكون طويلة ، وأن عليه أن يستعد لذلك . لقد فرض عليه العرب أسلوبهم بعد أن كان يفرض عليهم أسلوبه ، وفي هذا انتصار للعرب على المستوى الاستراتيجي وفي مجال حوار الإرادات .

٧ - استراتيجية العدو في حرب تشرين(*)

« يجب أن نعيد استمرار وقف اطلاق النـــار لمدة ثلاثة أعوام — ولست أتوقع خرق وقف اطلاق النـار خـلال الفترة القريبـة — الى علاقات القوى ، وقوة ردعنا » .

(دافيد اليعازر، عل همشمار، ٣/٨/١٩٧٣)

وصلت القوات المسلحة الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ الى ذروة انتصاراتها العسكرية ، وقمة احساسها بقدرتها على لعب دور الدولة العظمى في المنطقة . وظهرت هذه القوات أمام العـالم كقوة منظمة منضبطة مدربة تتحلى بروح معنوية عالية وقيادة جيدة ، وتستطيع خوض المعركة الحديثة بكل تعقيداتها وحركيتها وعنفها . ولم تكرس هـــذه الحرب أسطورة الجيش الاسرائيلي المتفوق فحسب ، بل رسخت أيضاً المفهوم الأمني عنـد اسرائيل ، وأكدت صحة الاستراتيجية العسكرية التي تتبعها .

ولقد خلقت اسرائيل في هذه الحرب حقائق جديدة لم تكن تتوقعها أصلاً ، ووجدت أن هذه الحقائق ستقرر التطورات السياسية للصراع العربي — الاسرائيلي ، وأنـه سيكون من الممكن توظيفها لخدمة السياسة التوسعية الـتي كانت تقول « ليست التطورات السياسية هي التي ستقرر وضعنا ، بل بالعكس ، فإن

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة **الاسبوع العربي** ، عدد ٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، تحت عنوان « ٦ اكتوبر من خط بارليف الى خط آلون » .

الوضع في المنطقة – كما نشأ بعد حرب الأيام الستة ، وكما صنعناه بأنفسنا – هو الذي سيقرر التطورات السياسية »[1] .

ولكي يتحقق ذلك ، كان على الاسرائيليين أن يهربوا من السلام الذي طالما نادوا به ، وأن لا يلجأوا الى الحرب الشاملة حتى لا يستفزوا دول العالم التي لم تنس بعد تجاهلهم للقرار رقم ٢٤٢ ، ورفضهم للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، وحتى لا يضطروا الى احتلال أراض عربية جديدة ، وإخضاع جماهير عربية إضافية قبل أن تتم عملية هضم سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، واحتواء النقمة العارمة في صدور سكانها . وكان الحل الأمثل ، في رأيهم ، هو الحفاظ على حالة « اللاحرب واللاسلم » . وكان ساسة اسرائيل يعتقدون أن هذا الحل يضمن لهم استمرار الدعم الاميركي ، واستنزاف إرادة الصمود العربية ، وخلق التناقض بين الدول العربية وحلفائها السوفيات ، دون أن يجبرهم على قبول السلام الذي غدا بالنسبة اليهم خطراً لا بد من تجنبه وتجنب الثمن الذي ينبغي عليهم دفعه عند تحقيقه .

ولقد حددنا في الدراسة الرابعة من هذا الكتاب العوامل الأساسية (١٢ عاملاً) التي جعلت الاسرائيليين يتصورون أن بوسعهم الهروب من السلم وإبقاء المنطقة في حالة « اللاحرب واللاسلم » .

ومن هذا التصور السياسي الخاطىء نبع المفهوم الأمني الاسرائيلي المبني على الاحتفاظ بالمناطق المحتلة بقوة السلاح ، وإقلال العمل العسكري ما أمكن ، والاستعاضة عنه بالردع النشط .

ولتجسيد هذا المفهوم بنى المنظرون الاستراتيجيون الاسرائيليون استراتيجية عسكرية تتلخص في أخذ مواقع حصينة على الخطوط التي وصلوا اليها في حرب ١٩٦٧ ، وبناء مستوطنات دفاعية في المناطق المحتلة لخلق حقائق جديدة ، وإعداد قوة مسلحة عاملة قوية قادرة على تحقيق الردع ، والقيام بعمليات

(١) عل همشمار ، ١٩٧٣/١١/١٢ .

انتقامية محدودة في فترة « اللاحرب واللاسلم » ، وتسديد الضربات الاجهاضية اذا ما تطلبها الوضع وتوفرت الشروط اللازمة لتحقيقها ، أو الاكتفاء بتنفيذ مهمات الصد اذا ما قام العرب بالهجوم ، والانتقال بعد تعبئة الاحتياط الى عمليات الرد ، لتدمير القوات المسلحة العربية ، ونقل المعركة الى داخل الأراضي العربية المجاورة . ولا تخرج هذه الاستراتيجية في جوهرها عن استراتيجية اسرائيل التعرضية السابقة ، بعد تعديلها جزئياً عن طريق إدخال مفهومين جديدين هما « الحدود الآمنة » و « الردع بالقوة الضاربة المتفوقة » .

وعندما اندلعت الحرب الرابعة في يوم ٦ تشرين الاول ، كانت القيادة الاسرائيلية غارقة في فهم مغلوط للفكرة الكلاوزفيتزية القائلة بأن « تدمير القوات المسلحة لأمة ما خلال القتال يجردها من درعها ، ويفرض عليها الخضوع لإرادة الخصم ، وأن احتلال جزء من أراضي دولة ما ، والاحتفاظ به وبالسكان المقيمين فوقه ، يجعل في يد المحتل رهينة هامة ، وورقة رابحة للمساومة والضغط على إرادة الخصم لإجباره على تقديم تنازلات تتناسب مع حجم الرهينة وأهميتها » . ولقد نسيت هذه القيادة المخدرة بأوهام تصوراتها أن الفكرة الكلاوزفيتزية ، التي كانت صحيحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، قد فقدت في العصر الذي نعيشه جزءاً كبيراً من صحتها بسبب ثلاثة عوامل متعلقة بطبيعة العصر هي :

١ – انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي والصين ، وتزايد قدرة المعسكر الاشتراكي السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ووقوفه (سياسياً واقتصادياً) الى جانب حركات التحرر الوطني والدول المناضلة ضد الامبريالية واستعداده لدعم صمود القوى التحررية المعادية للامبريالية وإعادة تسليحها ، وتنظيم جيوشها ، ومساعدتها على البدء بجولة نضالية جديدة ، حتى ولو سددت لها الامبريالية في الجولة السابقة ضربة قوية جرّدتها من درعها .

٢ – ان تطور نظام النقل الجوي ، يجعل المعسكر الاشتراكي قادراً على أن يدعم حلفاءه بسرعة وفاعلية خلال القتال وبعده ، وأن يزودهم بالأسلحة

والمعدات التي تمنع انهيارهم مهما كانت قوة الضربة العسكرية التي يتعرضون إليها .

٣ – ان التحول الجذري الذي أصاب طبيعة الحرب نفسها قد حوّل هذه الحرب من صراع بين قوتين مسلحتين الى صراع بين شعبين أو مجموعة شعوب، تحركها أهواء قوية وعقائد راسخة ولا ينتهي حوار الإرادات فيها باحتلال أجزاء من الأرض أو عدد من القرى ، ولا يتوقف القتال خلالها إلا بعد تحطيم إرادة أحد الخصمين أو استنزافها ، أو تدخل الدول الكبرى لفرض وقف اطلاق النار .

ولقد زاد من خطأ القيادة الاسرائيلية في فهم طبيعة العصر خطؤها في تقدير التحولات التي أصابت العالم العربي ، وتقييم حقيقة موازين القوى في المنطقة ، واعتقادها ان الجيش الاسرائيلي قادر على هزيمة الجيوش العربية دون عناء ، وان أية مغامرة عسكرية ستنتهي بكارثة تفوق في فظاعتها هزيمة حزيران ١٩٦٧ . وكان من الطبيعي أن ينجم عن هذه الأخطاء حالة نفسية مرضية شملت المجتمع الاسرائيلي من القاعدة الى القمة (ولقد أتينا على وصف هذه الحالة في الدراسة الرابعة من هذا الكتاب) . وفي هذه الحالة النفسية المرضية ، وبسبب هذه الحالة بالذات فوجىء الاسرائيليون باندلاع الحرب ، وميكانيكية سيرها وضخامة خسائرها . وعندما ظهر أمامهم بجلاء حقيقة خطر الإبادة الذي تعرضت له الدولة في الأيام الأولى للحرب ، ووعوا الدور الانقاذي الذي لعبه الأميركيون ، والثمن السياسي الذي قد يدفعونه مقابل هذا الانقاذ ، أصيبوا بخيبة أمل مريرة ، ونقموا على أنفسهم وعلى زعمائهم الذين خدعوهم طوال ٢٥ عاماً ، كما نقموا على العالم الذي وقف يتفرج على مأساتهم بسلبية ، ووجهوا النقد لأصدقائهم « الذين كانوا قد أعاروهم المظلة في يوم صحو ، ثم استردوها في يوم ماطر » ، وأخذوا يتساءلون : « أين الخطأ ، ومن المخطىء ؟ » .

لقد وقع الاسرائيليون خلال الحرب الرابعة في أكثر من خطأ على صعيد

السياسة والتعبئة والاستراتيجية والتكتيك واللوجيستيك والإعلام . ولكل خطأ من هذه الأخطاء ولا شك سببه الخاص . ولكن هناك سبباً يكمن وراء جميع الأخطاء : **وهو الثقة المفرطة بالنفس ، وعدم وعي التحولات العالمية والمحلية** . ويهمنا هنا أن نسلط الأضواء على الأخطاء الاستراتيجية بعد اجراء مقارنة بين ما وقع بالفعل وما كان من المنتظر أن يقع .

هامش الأمن بالزمان :

اعتمدت الاستراتيجية الاسرائيلية على أجهزة الاستخبارات « المعصومة عن الخطأ » وأعطتها وزناً أكبر مما ينبغي ، وحصلت من رئيسها الياهو زعيرا على تأكيدات قاطعة بأنه سيعلم قيادة الأركان بشكل مسبق عن أية تحركات عربية تنذر بالخطر ، وسيعطيها الزمن اللازم لاستنفار القوات المسلحة وتعبئة الاحتياط ، قبل أن يبدأ العرب بتسديد ضربتهم . واعتمدت القيادة الاسرائيلية على هذه التأكيدات فخفضت قواتها العاملة النظامية والاحتياطية لتخفيف العبء عن الاقتصاد الاسرائيلي ، وقررت الاعتماد على الجيش الاحتياطي .

ولقد أصبح معروفاً ، كما ذكرنا من قبل ، ان الاستخبارات الاسرائيلية حصلت من عدة مصادر محلية وعالمية على معلومات تفيد بأن القوات العربية تستعد لشن هجوم ، ولكنها أهملت هذه المعلومات وقررت ان احتمالات الهجوم العربي تعادل صفراً . وعندما تبدلت هذه القناعات وتأكد للاستخبارات الاسرائيلية ان الهجوم واقع في يوم ٦ تشرين الأول ، أعطي الإنذار للقوات للقوات العاملة ، وبدأت تعبئة الاحتياط ، ولكن بعد فوات الأوان . وهكذا لم تستطع الاستخبارات خدمة الاستراتيجية ، ولم تقدم للقيادة هامش الأمن بالزمان الذي تعهدت به ، وانهار أساس من أسس التعبئة وحشد القوات في استراتيجية العدو .

وبسبب قصر مدة الانذار لم تصمد القوات العاملة التي استنفرت ، ولم تنفذ « مناورة الصد » وفق الخطة الدفاعية ، ولم يعط الاحتياط الأمن اللازم للتجمع وتنفيذ « مناورة الرد » ، فسقط خط بارليف ، واجتاح السوريون الجولان بسرعة مدهشة ، واضطرت القيادة الى زج القطعات الاحتياطية التي

تتجمع لديها بالتتابع (بالتقسيط) بدلاً من زجها بكتلة ضاربة كبيرة، ومراعاة أبسط مبادىء الحشد في الزمان والمكان الملائمين .

الحدود الآمنة :

وبدأ الخلل الثاني في الاستراتيجية الاسرائيلية عندما انهارت الحدود الآمنة التي تبناهـا العسكريون الاسرائيليون لأسباب سياسية ، وبنوا على أساسها خطي « بارليف » و « الون» . ولقد أدت هذه النظرية ، والاعتماد على حدود منيعة يسهل الدفاع عنها ، الى خلق وهم أمني لا أساس له ، وقناعة كاملة بأن هذه الخطوط ستردع العرب وتمنعهم من البدء بالهجوم ، وستوقفهم في حالة المغامرة والاندفاع الى القتال، وستكمل القوة الضاربة بعد ذلك مهمة تدميرهم ومطاردتهم . ولكن القوات العربية لم تتأثر بالردع ، ولذا لم تتمكن الخطوط من إيقاف اندفاع ارتال الهجوم العربية ، وتفككت التحصينات وانقسمت الى جيوب ، ولم تنجح القبضة الحديدية في تكنيس رؤوس الجسور من الضفة الشرقية للقناة ، بل وقعت في كائن مدبّرة ، نصبها جنود المشاة المصريون المسلحون في شكل كثيف وغير معهود بقواذف الصواريخ المضادة للدبابات ، والمدعومون ببطاريات الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات . وعندما تدخل الطيران لتكنيس رؤوس الجسور قبل تعزيزها ، وتدمير الجسور العائمة التي نصبها المهندسون المصريون في ليلة ٦ – ٧ تشرين الاول ، جابهته الصواريخ المضادة للطائرات،ومنعته من تنفيذ مهمته، وألحقت به خسائر تعادل ٧٠ بالمئة من الطائرات المغيرة .

وبالرغم من نجاح القبضة الاسرائيلية في الجولان من ايقاف اندفاع القوات السورية التي ابتعدت عن مظلة الصواريخ ، وإعادتها الى مـا وراء « الخط البنفسجي (*) » ، فإن الفشل في تصفية رؤوس الجسور المصرية كان يعني انهيار أساس من أسس الاستراتيجية المعادية .

(*) « الخط البنفسجي» هو خط وقف اطلاق النار عند نهاية حرب ١٩٦٧ . أمـا «الخط الأحمر» فهو الخط المحدد باتفاقات هدنة ١٩٤٩ .

هامش الامن بالمكان :

وظهر الخلل الثالث بالنسبة الى هامش الامن بالمكان. فلقد كان الاسرائيليون في الماضي يشكون من قلة عمق بلادهم الاستراتيجي ، ويعتبرون ذلك نقطة ضعف هامة لا بد من تجاوزها . وعندما احتلوا قسماً من الأراضي العربية في حرب ١٩٦٧ ، اعتقدوا أن وجودهم على هذه الأرض سيمنحهم حرية مناورة واسعة ، ويسمح لهم بالقتال بعيداً عن المناطق الحيوية والتجمعات السكانية ، ويبعد خطر القتال عن الأهالي والمنشآت الصناعية .

والحقيقة ان احتفاظ اسرائيل بالأراضي المحتلة ساعدها بالفعل على ابعاد مناطقها الحيوية والآهلة بالسكان عن أخطار الحرب ، ولكنه جعل قواتها تقاتل بعيداً عن مناطق الحشد ومراكز الامداد والتموين ، وتجابه معضلات لوجيستيكية صعبة . وبالإضافة الى هذه السلبية فقد أدى اتساع الأراضي المحتلة ، وتباعد الجبهتين المصرية والسورية الى فشل الاسرائيليين في تطبيق المناورة على « الخطوط الداخلية » التي تطبقها الدول المركزية المضطرة الى مجابهة خصوم يحيطون بها من عدة اتجاهات ، والتي طبقتها القوات المسلحة الاسرائيلية بنجاح في حربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ . فلقد كانت اسرائيل في هذين الحربين تنفرد بإحدى الجبهات العربية وتحسم الموقف معها ، ثم تنتقل الى جبهة اخرى بعد أن تكون قد اطمأنت الى هدوء الجبهة الأولى . وكان يساعدها في ذلك صغر رقعتها وارتفاع مستوى حركية قطعاتها .

وفي حرب ١٩٧٣ واجهت هذه المناورة وضعاً صعباً نظراً لاتساع المساحات ، الأمر الذي عرقل حركة القطعات من جبهة الى أخرى ، وخفّض عدد الطلعات القتالية التي يستطيع الطيران تنفيذها في اليوم الواحد. وبالإضافة الى ذلك ، فإن القوات الاسرائيلية ركزت جهدها البري والجوي على الجبهة السورية في الأيام الأولى للحرب ، واستطاعت استعادة الأراضي التي خسرتها وفتح جيب على محور القنيطرة – سعسع ، وقبل أن تحسم الموقف على هذه

الجبهة نقلت محور الجهد الى الجبهة المصرية، لمنع المصريين من التقدم نحو الشرق والقيام بالهجوم المضاد في اتجاه القناة ، وفتح ثغرة الدفرسوار .

هنا ارتكب الاسرائيليون خطأً استراتيجياً كبيراً . فبدلاً من أن يتابعوا ضغطهم في الشمال حتى يحسموا الموقف وينتقلوا بعد ذلك الى الجنوب ، اتجهوا بقواتهم الى سيناء للقيام بعمليات هجومية لا يملكون الأداة اللازمة لتنفيذها أو لاستثمار الفوز الذي يمكن أن تحققه ، ولا يستطيعون الحصول على هذه الأداة على حساب قوات الجبهة الشمالية ، لأن القوات السورية التي استعادت توازنها ، وأعادت تنظيم قواتها وعززت مواقعها أصبحت جاهزة لضرب الجيب وتطهيره . وهكذا وجدت اسرائيل نفسها ، ولأول مرة منذ عام ١٩٤٨ ، تقاتل على جبهتين تضغطان في آن واحد تقريباً، وعاجزة عن الحسم في الشمال أو الجنوب، ومضطرة بالتالي الى تحديد أغراضها وتقليص طموحاتها.

الردع :

لقد اعتقدت اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ أن الردع قادر على منع العرب من القتال . ولقد سقط الردع تلقائياً منذ أن أخذت القيادتان المصرية والسورية قرار الحرب ، وتحطيم حالة « اللاحرب واللاسلم » ، وحرمان اسرائيل من الاستمرار في استنزاف العرب معنوياً ، وتكبيدها خسائر كبيرة تجعلها تفهم معنى الاحتفاظ بالأراضي المحتلة واتباع سياسة التعنت والغطرسة والسباحة عكس تيار التاريخ .

ومن المؤكد ان ضخامة حتمية «هدف الرهان» بالنسبة الى الدول العربية، واعتقاد هذه الدول انها تملك من القوى البشرية والاقتصادية ما يسمح لها بالانتصار على العدو، والتبجح الاسرائيلي المستمر، قد استفزت القوى العربية المادية والمعنوية ، وخفضت قيمة الردع الاسرائيلي الى الحد الأدنى ، وخلقت الظروف الملائمة لبدء القتال .

وإذا كان انخفاض الردع الاسرائيلي الى « عتبة » متدنية جداً قد شجع العرب على الاندفاع الى الهجوم ، فإن وجود قوة صاروخية عربية تكتيكية

وعملياتية قد وازن الردع الجوي الاسرائيلي ، وجعل القوات البرية والبحرية العربية تمارس عملياتها على نطاق واسع دون أن تخشى ضربة انتقامية جوية في العمق يمكنها أن ترد عليها بضربة صاروخية مضادة في العمق . وهكذا تبخر مفهوم الردع التقليدي (غير الذري) الذي أدخله بن غوريون وشمعون بيريس على الاستراتيجية الاسرائيلية ، وعاد الاسرائيليون في هذا المجال الى حقبة ما قبل حرب ١٩٥٦ .

الهجوم الاجهاضي المسبق :

والمفهوم الأخير في الاستراتيجية الاسرائيلية هو « الهجوم الاجهاضي المسبق » الذي طوّره ونظّر له ييغال الون ، واعتبره شرطاً لازماً لبقاء اسرائيل . ولقد حدد الون الحالات التي يصبح فيها من حق اسرائيل ، بل ومن واجبها ، شن « هجوم اجهاضي مسبق » ، ومن بينها « حشد القوات العربية على حدود اسرائيل في حجم هجومي »[١] .

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ احتشد الجيشان المصري والسوري على الحدود في حجم هجومي يهدد أمن اسرائيل ، وكان على القوات المسلحة الأسرائيلية أن تنفذ الاستراتيجية المرسومة لها وتشن « هجومها الإجهاضي المسبق » ، ولكنها لم تفعل ذلك ، لأن شروط هذا الهجوم لم تكن آنذاك مؤمنة : فلقد اختفى الإحساس الداخلي بالخطر بعد تبجحات القادة الاسرائيليين وادعاءاتهم ، وتصريحاتهم حول سلامة الوضع الأمني ، وانتقاداتهم لفكرة خطر الإبادة[٢] . كما اختفى الدعم السياسي الخارجي بعد ست سنوات من

---

(١) راجع ييغال آلون « **الستار الرملي** » ص ٨٥ من الترجمة العربية، مركز التخطيط، بيروت. وآلون « **انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي** » ، المذكور سابقاً ص١٨٤ و٢٤٧ .

(٢) ذكر العميد الاحتياطي متتياهو بيليد ، رئيس قسم الإمداد والتموين في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧ ، والباحث في معهد شيلواح ، وأستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب في مقال نشرته (هآرتس ١٩/٣/٧٢) أن ←

تجاهل الرأي العام العالمي وتحديه ، واتجاه العالم كله نحو تأييد حق العرب في استعادة أراضيهم بجميع الوسائل ، بما في ذلك الوسيلة العسكرية . ولم تكن القوة المسلحة اللازمة لشن « الهجوم الاجهاضي المسبق » جاهزة للعمل ، ولم تكن اسرائيل راغبة في تعبئة الاحتياط الضروري للعملية حتى لا يفسر ذلك بأنه استفزاز للدول العربية . ولم يكن في وسع الاسرائيليين الادعاء بأن الحشود العربية تهدد أمنهم طالما انهم رددوا طوال ست سنوات ان هذه الحشود عاجزة عن العمل ، وان سيناء والجولان ستصبح مقبرة كبيرة لها اذا ما تجرأت الدول العربية على الانتقال من التلويح بالقوة الى استخدام هذه القوة . وعندما تأكدت جدية نوايا الحشود العربية كانت فرصة القيام «بالهجوم الاجهاضي المسبق » قد مرَّت . وتبرهن كل هذه الحقائق أن إحجام اسرائيل عن استخدام « الهجوم الاجهاضي المسبق » لم يكن نابعاً من موقف أخلاقي لا عدواني ، وإنما كان ناجماً عن عدم توفر الظروف السياسية والعسكرية اللازمة لهذا الهجوم .

* * *

← الفكرة القائلة بأن اسرائيل تعرضت في حزيران ١٩٦٧ لخطر الإبادة ، وأنها حاربت من أجل كيانها عبارة عن «خدعة ولدت ونمت بعد الحرب فقط» . كما قال بأن الاسرائيليين لم يتعرضوا في أيار ١٩٦٧ « لخطر الإبادة » كأفراد أو كجماعات ، ثم تساءل : « ما هي آخر مرة كانت اسرائيل فيها مكشوفة لهجوم عربي ؟ كان ذلك سنة ١٩٤٨ ، كما أقرأ التاريخ » . وبالرغم من عدم موافقة الجنرال ييغال آلون على كل أفكار بيليد فقد أكد في صحيفة (دافار ٧٢/٦/١٥) « اننا لم نكن عرضة لخطر الإبادة وقتهـــا » . وفي مقابلة أجراها دوف غولدشتاين مع العميد الاحتياطي عيزر وايزمان ، رئيس شعبة العمليـــات في القيادة العامة للجيش خلال حرب ١٩٦٧ ورئيس حركة « حيروت » ، قال وايزمان : « لم يكن هناك خطر إبادة ! ومع هذا فقد كان لا بد من مهاجمة المصريين ، ولم يكن ثمة مفر من ذلك » (معاريف ٧٢/٤/٤) . ثم كرر وايزمان أفكاره في صحيفة (يديعوت احرونوت ٧٢/٦/٦) فكتب : « لم تكن دولة اسرائيل فعلاً معرضة للفنـــاء لو لم تشن الحرب في الوضع الذي كنا عليه خلال أيار — حزيران ١٩٦٧ ، ولو لم نتغلب على المصريين والاردنيين والسوريين . ولكن وجودها لم يكن ليستمر بالصورة نفسها التي كانت قائمة آنذاك أو كما هي اليوم » .

لقد تبنت اسرائيل الاستراتيجية التعرضية منذ منتصف حرب ١٩٤٨ ، ونجحت في تطبيقها الى حد ما بعد الهدنتين الأولى والثانية في الحرب العربية — الاسرائيلية الأولى . ثم طبَّقتها بنجـــاح أكبر في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . وكانت تعتقد ان في وسعها تطبيقها في الحرب الرابعة بنجاح أيضاً ، ولكنها اضطرت خلال المرحلة الأولى من هـــذه الحرب الى اتباع سياسة دفاعية لم تخطط لها ، وعندما انتقلت الى الهجوم في المراحل التالية من الحرب كان هجومها محكوماً بظروف العمل على جبهتين متناسقتين تمارسان استراتيجية هجومية . لذا بقيت عمليات اسرائيل الهجوميـــة محدودة القوة والعمق . وتبخرت النظرية « الرائعة » وسط نيران مسارح العمليات الملتهبة !

٨ ـ الملامح الثورية
في الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة (*)

« تكون الحرب كما يكون القائد الذي يقودها ،
وكما تكون النظرية التي تحكمها »
(كلاوزفيتز)

يعتقد القادة العسكريون الذين يخوضون الحرب أنهم غدوا خبراء في العلم العسكري ، وأن تجربتهم العملية في مسارح العمليات أو في غرف هيئات الأركان تسمح لهم بتقنين الأحداث التي عاشوها،وتحليل المعارك التي شهدوها، واستخلاص القواعد والأسس والمبادىء ، والوصول في بعض الحالات الى صياغة «القوانين» . ثم يرتكز هؤلاء القادة بعد ذلك على استنتاجاتهم ولمحات الضوء التي رأوها من خلال دخان المعارك ، ويصيغون عقيدة عسكرية تعدل عقيدة الحرب السابقة، ويعتقدون أن الحرب ستجري على هديها في المستقبل، ويعدّون قواتهم المسلحة وخططهم لتتلائم مع العقيدة الجديدة التي تمتزج فيها توقعات المستقبل مع التجربة الذاتية بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات .

وتتبلور العقائد في فترات الهدوء بين الحروب وتترسخ ، وكلما طالت فترات الهدوء ازداد تمسك القادة بالعقائد التي وضعوها ، وازداد تلاؤم القطعات وقادة الوحدات الصغرى مع الأساليب القتالية المنبثقة عنها.وتتكون

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة **شؤون فلسطينية** عدد ٢٩ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ ، ص ٢٥ – ٣٤ .

مع مرور أعوام السلم حالة ذهنية معينة وتصوُّر خاص للحرب المقبلة ، وقد تتعرض هذه الحالة وذاك التصور لبعض التعديلات الناجمة عن المخترعات والابتكارات ، ولكنها تبقى تعديلات جزئية ، نظراً لأن المؤسسة العسكرية في جميع البلدان هي أقل المؤسسات قدرة على التطور الشامل السريع ، وأكثرها تعلقاً بالتقاليد والأفكار المسبقة ، و « لأن رجال الدولة والقادة العسكريين متخلفون عادة عن العلماء بما يعادل جيلين » [١] . ويتعارض هذا الأمر مع التطورات السريعة التي تتعرض لها النشاطات الانسانية في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية . ويبدو هذا التعارض كبيراً خطير النتائج في عصرنا ، عصر التحولات السريعة والمفاهيم المتبدلة ، لأنه يجعل المؤسسة العسكرية ، المبنية وفق أسس معينة ، والمستعدة لخوض حرب تقليدية [٢] تلائم ظرفاً سابقاً ، تشتبك في القتال في ظروف جديدة غير متوقعة ، أو متوقعة جزئياً ، وتتعرض من جراء ذلك لكثير من المفاجآت الأليمة أو الكارثوية .

ويقل حجم هذه المفاجآت ولا شك كلما ازدادت قدرة القيادة العسكرية على التوقع والإبداع والعمل بخيال واسع . بيد ان ضخامة عدد العوامل ، التي تؤثر على الحرب وتطبعها بطابعها ، وسرعة تحول هذه العوامل ، وظهور عوامل جديدة باستمرار ، تعطي عملية التوقع والخيال حجماً معيناً لا تتجاوزه إلا اذا كان في قيادة القوات المسلحة عبقريات عسكرية نادرة (نابليون ، ديغول ، ماوتسي تونغ ، جياب ، غودريان ، رومل) قادرة على استشفاف المستقبل من دراسة الماضي والحاضر واتجاه حركة التطور المستقبلية بكل جوانبها ، والإعداد لمعركة الغد وفق معطيات الغد المتوقعة .

والملاحظ هنا أن الإبداع الفكري العسكري ، والبحث عن وسائل

---

(١) الجنرال ج. ف. س. فولر ، الحرب الميكانيكية ، ص ٣٦ من الترجمة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

(٢) تعني « الحرب التقليدية » هنا ، الحرب التي تتم وفق الأفكار والأساليب المتعارف عليها ، والتي لا يتم فيها استخدام اسلحة الدمار الشامل .

المستقبل القتالية يتمان داخل الجيوش المهزومة بسرعة لا يتمان بها داخل الجيوش المنتصرة ، إذ تهز الهزيمة العقائد التقليدية القديمة وتطرحها للمناقشة وتلقي على عاتقها جزءاً من مسؤولية الفشل ، على حين يثبت الانتصار المفاهيم التي انتصرت ، ويدفع القادة الى التمسك بالعقائد والأساليب التي أثبتت فاعليتها على أرض المعركة . ويحاول القادة المنتصرون نقل تصوراتهم الى جيل القادة الذي يليهم ، فإذا ما تبنّى هذا الجيل مفاهيم أسلافه المكللة بغار المجد ، وحاول تطبيقها بشكل حرفي ، سار أول خطوة على طريق الفشل ، وخاصة اذا كانت هزيمة الخصم في الحرب السابقة قد حفزته بشكل قوي ودفعته الى البحث عن مفاهيم جديدة ، وتطوير أساليبه القتالية وتثويرها لتتلاءم مع الحرب المستقبلية .

ومهما كانت الزاوية بين خطي تطور مفاهيم الخصمين صغيرة في البداية ، فإن المسافة بين الخطين تتباعد باستمرار طوال سنوات السلم ، حتى تخلق بين عقيدتي جيشي الخصمين هوّة ليس من السهل ردمها . وتظهر أهمية هذه الهوّة عندما يصطدم الجيشان من جديد ، وتبدو عيوب الجيش التقليدي أمام ديناميكية الجيش الذي حطم التقليدية بأساليب ثورية حديثة مبتكرة ، ويحقق الجيش الثاني عدداً من الانتصارات بفضل المفاجأة بأسلوب القتال أو نوع السلاح ، ويتعلم الخصم بالتدريج قواعد اللعبة ، ويبدأ تطبيقها ، وتفقد المفاجأة حجمها وأهميتها ، وتغدو أساليب الأمس الثورية الجديدة أساليب تقليدية ، ويعود مجال المفاجأة محصوراً في اختيار زمان المعركة ومكانها . ويبدأ البحث من جديد عن طريقة ملائمة لتثوير الأساليب أو الأسلحة بغية زيادة امكانات المفاجأة التكتيكية والاستراتيجية .

وتنطبق كل هذه الأمور على الصراع العربي – الاسرائيلي ، مع تعديل ناجم عن خصوصية هذا الصراع . ويتمثل هذا التعديل في أن اهتمام الدولتين العملاقتين بمنطقتنا ، ووقوفهما سياسياً وتسليحياً وراء الطرفين المتنازعين ، يجعل أية مجابهة عربية اسرائيلية نقطة احتكاك ساخنة في إطار التنافس الأميركي – السوفياتي الذي خفّت حدته الى حد بعيد بعد انتهاء مرحلة الحرب الباردة وبدء مرحلة الوفاق الدولي دون أن تختفي كل آثاره بشكل كامل .

ويؤدي اهتمام الدولتين العملاقتين بأي صراع يندلع في منطقتنـــا الى قيامها ببذل الجهود المكثفة لتسليح الجيوش وتدريبها وتطوير أساليبها وتثوير وسائلها وخططهـــا القتالية ، الأمر الذي يجعل التثوير والتطوير غير متناسبين مع الامكانات المادية والمستويات الحضارية للطرفين المتنازعين ، وغير نابعين من ظروف المنطقة ، ولا يمثلان انعكاساً لهذه الظروف ، بل يمثلان بالأحرى انعكاساً محلياً مصغراً للتطور العسكري الأميركي والسوفياتي في مجالات العقائد الحربية والتكتيكات والأسلحة ومعدات القتال ، مع قسط من الاسهام الذاتي يتناسب مع ديناميكية القيادات المحلية المتفهمة لحقائق المنطقة ومعطياتها .

ومن المهم قبل الخوض في بحث الملامح الثورية في الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة أن نشير الى أن التثوير الذي نقصده هنـــا يقتصر على الخروج عن التقليدية ضمن إطار الحرب التقليدية . وهو لا يشمل التثوير بمعناه « الماوي » ولكنه أقرب الى التثوير بمعناه « النابليوني » أو « الغودرياني » أو « الفابي » (نسبة الى فابيوس ماكسيموس) نظراً لأنه يتعلق بوسائط الحرب وأساليبها أكثر من تعلقه بروحهـــا . ولتفسير ذلك لا بد من العودة قليلاً الى جوهر الحرب . يقول الجنرال أندريه بوفر بأنه « اذا كانت أشكال الحرب تتبدل فإن جوهرها ثابت لا يتغير : انه يتمثل في تحطيم إرادة الخصم لاجباره على قبول الشروط التي نود فرضهـا عليه »[1] . وتحاول الحرب التقليدية تحقيق هذا الهدف عن طريق الانتصار العسكري في ساحة القتـال ، مع استخدام استراتيجية مباشرة أو غير مباشرة . ولا يستهدف هذا الانتصار العسكري التدمير المادي لقوات العدو فحسب، بل يستهدف أيضاً ايقاع الاضطراب بين صفوفها . والتثوير « النابليوني » أو «الغودرياني» ... الخ في هذه الحرب يعني استخدام وسائل أو أساليب مفاجئة غير متوقعة تساعد على الاسراع في عملية التدمير وإيقاع الاضطراب، وتعجل في احراز الانتصار العسكري في ساحة القتال .

---

(١) الجنرال اندريه بوفر ، الحرب الثورية ، ص ٣٢ من الترجمة العربيـــة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ .

أما التثوير بمعناه « الماوي » فهو الخروج عن اطار الحرب التقليدية الى اطار الحرب الثورية التي لا تبحث عن الانتصار العسكري في ساحة القتال ، ولا تفتش دائماً عن المعركة، ولكنها تسعى الى تحاشي المعركة ما أمكن،واستنزاف إرادة الخصم في مجابهة (سياسية – ايديولوجية – معنوية – عسكرية) طويلة الأمد، لا تدمّر القوى المادية للخصم بشكل حاسم، ولا توقع الاضطراب بين صفوفهـا ، ولكنها تتوصل الى خلق حالة من الملل المتزايد لدى العدو ، وتنتزع منه القناعة بقدرته على الحسم في ساحة القتال ، وتجبره على التخلي عن أهدافه تحت تأثير التفتت المعنوي الداخلي والضغط العالمي . وإذا كان الانتصار في الحرب التقليدية يتم بفضل تحطيم إرادة القتال لدى الخصم ، فإن الانتصار في الحرب الثورية يتم بفضل استنزاف هـــذه الإرادة بعملية اقناع مسلح طويلة تصل بالخصم الى الاستنتاج بأن القتال لن يحسم الصراع .

وإذا عدنا الى تحليل أحداث الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة وجدنا أنها دارت بأساليب الحرب التقليدية التي رافقهـــا من الجانب العربي حرب عصابات ثورية فلسطينية وراء خطوط العدو . وبالرغم من المشاركة الجدية التي قدمتها قوات الثورة الفلسطينية خلال القتال ، فقد كان الطابع العـــام للحرب تقليدياً بالمعنى « الكلاوزفيتزي » للكلمة ، أي أنه كان قتال جيوش نظامية ، تستخدم أحدث معدات الدمار ، وتحاول تحقيق الانتصار بواسطة الحسم في « المعركة الدامية » . ولقـــد دارت المعارك على الجبهتين المصرية والسورية على شكل مصادمات جبهية واختبارات قوى مادية عنيفة في الأراضي المكشوفة . وكان من الواضح أن كل طرف من الطرفين يحاول تحطيم ارادة القتـال لدى الطرف الآخر عن طريق تدمير قواته المسلحة أو قلب توازنهـا الاستراتيجي وخلق الاضطراب بين صفوفها بواسطة الصدام المادي المباشر ، دون استخدام المناورة الاستراتيجية على نطاق واسع ، رغم قدرة قوات الطرفين الميكانيكية على الحركة ، ورغم وجود مجال واسع للمناورة في صحراء سيناء . ويمكننا أن نذكر هنا أن الحركتين الاستراتيجيتين الهامتين الوحيدتين في هذه الحرب كانتا : ١ – تحرك القوات العراقية وتحرك القوات

الجزائرية بسرعة لتأمين الحشد والانتقال من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي ، ٢ – تحرك الاحتياط الاستراتيجي الاسرائيلي من منطقة الحشد الى منطقة خرق الدفرسوار والتوجه بعد ذلك بحركة نصف مروحة لتطويق مدينة السويس .

وهكذا كانت المجابهة على الجبهتين مادية لا تحمل في طياتها سوى قسط ضئيل من عناصر التفتيت الأيديولوجي والنفسي . وكانت الاستراتيجية المطبقة على الجبهتين ومن كلا الجانبين مباشرة أكثر مما ينبغي . فإذا استثنينا خرق الدفرسوار والحركة التي تلته ، والخنق الاستراتيجي العربي عند مضيق باب المندب، وجدنا أن الحرب بمجملها كانت أشبه بمبارزة ضخمة، استخدمت فيها وسائط نارية كثيفة متقدمة لا تتناسب مطلقاً مع واقع دول المنطقة الحضاري أو امكاناتها الاقتصادية وقدراتها الانتاجية . ويمكن القول انها أخذت بمجملها شكل معركة من معارك إحدى الحملات التي تمت خلال الحرب العالمية الثانية على جبهة من الجبهتين الشرقية أو الغربية، مع الاعتماد على الهجوم والصد والرد أكثر من الاعتماد على المخاتلة والتملص والتجنب والتهديد والانهاك .

ولم تكن القاعدة المادية للطرفين المتحاربين تسمح باستمرار القتال بالوتيرة نفسها أكثر من عدة أيام، ولولا الجسران الجويان السوفياتي والأميركي لتوقفت الآلتان الحربيتان بعد الأسبوع الأول من القتال على أبعد تقدير ، ولاضطرتا الى استخدام وسائل أكثر بدائية ووسائط نارية أقل كثافة ، ولعادتا حتماً الى الاعتماد على القوى البشرية والامكانات الهائلة الكامنة في الانسان .

وبالرغم من هذا الطابع المادي المباشر للحرب التقليدية التي دارت رحاها في الجولان وسيناء، وبالرغم من ظهور بصمات فوش وكلاوزفيتز بصورة أوضح من بصمات فابيوس مكسيموس وليدل هارت ، فقد ظهر في هذه الحرب عدد من الملامح الثورية في مجالي التكتيك واستخدام وسائط القتال . ويمكن اعتبار هذه الملامح اسهاماً في تطوير العلم العسكري التقليدي الحديث ، ومدخلاً لاجراء تعديلات جذرية على تنظيم وتسليح وتدريب الجيوش بما في ذلك

جيوش الدول الكبرى . وتتمثل هذه الملامح في : ١ – اختيار لحظة بدء الهجوم ، ٢ – إحباط التفوق الجوي من الأرض ، ٣ – استخدام المشاة ضد الدبابات ، ٤ – تبادل المهمات في الثنائي « طائرة – دبابة » .

١ – اختيار لحظة بدء الهجوم

تختار القوات المهاجمة لحظة بدء الهجوم على الخط الدفاعي الأول المحصن بشكل يؤمن لها مفاجأة العدو والتوغل في عمق دفاعاته مسافة كافية قبل حلول الظلام ، ويسمح لها بعد ذلك بالتمركز عند حدود المهمة اليومية استعداداً لصد الهجمات المعاكسة الليلية أو النهارية . أما اختيار لحظة بدء الهجوم على الخطوط الدفاعية الثانية والثالثة (وهي عادة أقل تحصيناً من الخط الأول) فيتم بشكل يؤمن المفاجأة ، ويسمح بالتوغل في العمق، ويعطي المهاجم فرصة كافية لمطاردة العدو واستثمار النصر قبل حلول الظلام، وقبل أن يتمكن العدو المنسحب من قطع التماس .

ويأخذ المهاجم بالحسبان عند عملية الاختيار عدة عوامل: كطبيعة الدفاع، وطبيعة الأرض ، والزمن اللازم للخرق الأوّلي ، وطول ساعات النهار ، وساعة أول ضوء، واتجاه الشمس والريح، ودرجات الحرارة في النهار والليل، وعادات العدو في الحراسة والنوم والأكل ، وبعد قوات العدو الاحتياطية ومستوى قدرتها على الحركة ، ومستوى السيطرة الجوية للطرفين ... الخ . وتقوم الجيوش عادة بشن الهجوم عند الفجر أو في ساعات الصباح الأولى ، ويسمح لها هذا التوقيت بحشد القوى وتقديمها الى خط الانطلاق خلال الليل، كما يسمح لها بمفاجأة العدو قبل أن يستيقظ ، ويقدم لها امكانية تحقيق الخرق الأولي قبل وضوح الرؤية تماماً ، والانطلاق بعد ذلك بالعمل طول النهار للتقدم الى أعمق مسافة ممكنة قبل حلول الظلام .

وتعتبر ساعات الصباح الأولى أفضل توقيت للهجوم على الجبهة السورية ، لأنها تدخل في الحسبان عامل الشمس التي تكون عند شروقها مقابل دفاعات العدو ، الأمر الذي يزيد امكانية الرؤية بالنسبة للسوريين ويحرم الاسرائيليين

من الرؤية الواضحة والرمي الدقيق . ويختلف الوضع بالنسبة للجبهة المصرية التي لا تستطيع الإفادة من عامل الشمس إلا بعد الظهيرة حيث تكون الشمس في وجه المدافعين على الضفة الشرقية للقناة ، وتكون في الوقت نفسه في وجه القوات السورية المهاجمة في الجولان . ولقد أعطيت الأفضلية في هذا المجال للجيش المصري نظراً لأن اقتحام المواقع الدفاعية المعادية مع عبور القناة أصعب من اقتحام المواقع الدفاعية التي لا تستند الى حاجز طبيعي منيع . وكان اختيار الساعة الثانية بعد الظهر إبداعاً جيداً ، وكان وراءه العوامل التالية : إعطاء المصريين أفضلية العبور والشمس في وجه العدو ، مفاجأة المدافعين في فترة لا يتوقعونها ، انهاء المرحلة الأولى من القتال (العبور على الجبهة المصرية وخرق خط آلون على الجبهة السورية) في ساعات الضوء القليلة لمنع العدو من استخدام طيرانه بفاعلية كبيرة ، والافادة من ساعات الليل لتعزيز المواقع المستولى عليها وبناء الجسور على القناة دون أن يتمكن الطيران المعادي من التدخل على نطاق واسع .

وكانت العقبة الوحيدة أمام هذا التوقيت تتمثل في كيفية تأمين الحشد ، وتقديم قوات الهجوم على خط الانطلاق خلال النهار دون اثارة انتباه العدو. ولقد وجدت هذه المعضلة حلّها عندما استعاضت القوات العربية عن الغطاء الليلي اللازم بغطاء إعلامي استطاع اقناع العدو بأن كل التحركات التي تتم عبارة عن تدابير دفاعية وقائية يقوم بها الجيشان المصري والسوري خوفاً من هجوم اسرائيلي انتقامي . وهكذا تمّ الحشد تحت بصر العدو وسمعه ، وتحققت المفاجأة الكاملة، وأُخذ الجنود الاسرائيليون في الجولان على حين غرة – كما يذكر الجنرال حاييم بارليف – وفوجىء المدافعون عن القناة وهم يلعبون كرة القدم – وفق رواية مراسل الفيغارو في اسرائيل – . ويمكن اعتبار هذا الاختيار الثوري (غير التقليدي) وما نجم عنه من مفاجأة ، إبداعاً في مجال التخطيط العسكري العربي ، وسبباً من أسباب نجاح المرحلة الأولى بأقل خسارة ممكنة في صفوف القوات العربية .

٢ – إحباط التفوق الجوي من الأرض

ظهرت نظرية السيطرة الجوية في الثلاثينات عندما أعلن الجنرال الايطالي جوليو دوهي أن الطيران المتفوق بشكل ساحق قادر على حسم المعركة الدفاعية والهجومية ، وتدمير القوات المعادية بشكل يجعل القوات البرية المدعومة بالطيران قادرة على العمل بحرية تامة ، ويجعل مهمة هذه القوات استثمار النصر الذي يكسبه الطيران لوحده . ولم تثبت صحة هذه النظرية خلال الحرب العالمية الثانية ، كما لم تتمكن الدول الاستعمارية من اثباتها خلال الحروب التي جرت بعد ذلك في كوريا وفييتنام والجزائر . وكانت نتائج القصف الجوي عادية في مسارح العمليات ، كما كانت أقل من عادية عندما استُخدم الطيران لقصف المدن بغية تحقيق الحسم الاستراتيجي عن طريق انهيار الجبهة الداخلية . ولقد رأى أنصار نظرية السيطرة الجوية أن هذا الفشل راجع الى طبيعة الأرض المغطاة كلياً أو جزئياً ، وعدم امتلاك التفوق الجوي الساحق إلا في المراحل الأخيرة للحرب ، وصغر الأهداف التي يقدمها العدو وخاصة في فيتنام والجزائر .

وفي العام ١٩٥٦ استطاع الطيران الانكلو– فرنسي تطبيق النظرية بنجاح عندما شل القوات الجوية المصرية ، وسمح للجيش البري الاسرائيلي بالتقدم في سيناء بسرعة ودون مقاومة تقريباً، ومنح البحرية الاسرائيلية حرية عمل لا تتناسب مع حجمها الحقيقي ومع موازين القوى البحرية المصرية – الاسرائيلية . وفي العام ١٩٦٧ تمكن الطيران الاسرائيلي من تطبيقها بنجاح أكبر عندما أخذ المبادرة ودمَّر القوات الجوية المصرية بضربة مفاجئة ، وأعطى القوات البرية والبحرية حرية عمل واسعة ،وشل عمل الجيش والبحرية في مصر وسورية والاردن .

ولقد بنى الاسرائيليون على تجربتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ استنتاجات كثيرة . ويقول كتاب انشاء وتطوير سلاح الطيران الاسرائيلي : « شكلت عملية سيناء تحولاً في العلاقات بين الأركان العامة وسلاح الطيران . ولقد دعمت المدرعات

وسلاح الطيران في هذه الحرب موقفها دون اعتراض . وكانت وجهة النظر البرية القائلة بأن سلاح الطيران هو مجرد سلاح مساعد هي وجهة النظر السائدة ، وابتداء من عملية قادش [حرب ١٩٥٦ كما يسميها الاسرائيليون] أصبح واضحاً أن لسلاح الطيران أهمية خاصة كبيرة في القدرة على الحسم في الحرب » [1] . ثم يقول في مكان آخر عن حرب ١٩٦٧ : « ان ضربة البداية التي قام بها سلاح الطيران الاسرائيلي حسمت سير الحرب » [2] .

وانطلاقاً من كل هذه الاستنتاجات حاولت القيادة الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ ، والحظر الذي فرضه الجنرال ديغول على بيع الطائرات المقاتلة لاسرائيل ، الحصول على الطائرات المتطورة من الولايات المتحدة الأمريكية ، وحصلت بالفعل على طائرات « سكاي هوك » و « فانتوم » وضمنت لنفسها التفوق الجوي اللازم . ولقد استخدمت هذه الطائرات بفاعلية خلال حرب الاستنزاف والاشتباكات التي جرت بعدها . واحتلت القوات الجوية مركز الصدارة في القوات المسلحة الاسرائيلية [3] ، وأخذت دوراً هاماً في نظرية الأمن وميكانيكية الردع وأساليب العمل ضد الدول العربية المجاورة وقوات الثورة الفلسطينية . ويلخص موشي‌دايان وزير الدفاع الاسرائيلي وجهة النظر الاسرائيلية بالنسبة الى سلاح الطيران بقوله : « ومع احترامنا لخط بارليف ولخط الأردن ، إلا أن العنصر الأساسي في قوتنا هو أولاً سلاح الطيران الذي يعتمد على الأعين الألكترونية الواقعة على النقاط الطبوغرافية العالية في شرق البلاد وغربها » [4] .

---

(١) زئيف شيف وآخرون ، « **انشاء وتطوير سلاح الطيران الاسرائيلي** » ، ص ٥٤ من الترجمة العربية ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩٤ .

(٣) صرح موشي دايان في معهد وايزمان العلمي بتاريخ ١٩٧٢/٥/٢٤ ، ان مصروفات سلاحي الطيران والمدرعات ستكون في الميزانية حوالي ٨٢ ٪ من مجمل مصروفات الدفاع في اسرائيل .

(٤) **معاريف** ، ١٩٧٣/٦/٨ .

وأمام هذا التضخيم في أهمية سلاح الطيران المعادي لجأت كل من مصر وسورية الى تقوية سلاحها الجوي بغية التصدي للطائرات وفق نظرية « الطائرة تجابه الطائرة » . ولكنهما لم تكتفيا بذلك ، بل قامتا بتقوية جهاز الدفاع الأرضي بصورة متوازية مع تقوية الطيران . وأنشأتا شبكة صواريخ أرض – جو « سام – ٢ » و « سام – ٣ » . وكان العدو يعرف قواعد هذه الصواريخ ويمتلك الأجهزة اللازمة لتشويش راداراتها وتضليل الصواريخ بعد اطلاقها . وعندما وصلت صواريخ « سام – ٦ » الى سورية ومصر حاول العدو اختبار هذا السلاح الجديد الذي لا يعرف ميزاته ولا يمتلك الأجهزة اللازمة لتشويشه ، فقام بعدة طلعات جوية استفزازية في ٧٣/٩/١٣ قبل اندلاع الحرب بثلاثة أسابيع . بيد أن القيادتين المصرية والسورية لم تردا على الاستفزاز ، ولم تستخدما السلاح الجديد . وكانت غايتهما من ذلك الحفاظ لا على سرية وجود هذا السلاح فحسب ، بل على سرية فاعليته أيضاً ، ليحقق عند استخدامه أكبر قسط من المفاجأة المادية والمعنوية .

ولقد تحققت هذه المفاجأة كما رأينا . ولا أدلّ على ذلك من اندفاع الطائرات المعادية في الأيام الأولى للحرب بكثافة كبيرة لصد الهجمات السورية والمصرية أو لتدمير الجسور على قناة السويس . وكان أسلوب اندفاعها يدل على جهلها الكامل بامكانات الصواريخ « سام – ٦ » واعتقاد الطيارين بقدرتهم على التملص من شبكات الصواريخ بأقل خسارة ممكنة . ونجم عن هذه المفاجأة سقوط عدد كبير من الطائرات في الأيام الأولى ، وعجز سلاح الطيران عن دعم قواته البرية أو قطع الجسور التي نصبها المصريون في ليلة ٦ – ٧ تشرين الأول (اكتوبر) . ويقول مراسل نيوزويك نقلاً عن أحد مسؤولي الأمم المتحدة ممن شهدوا المعارك الجوية على قناة السويس ان الاسرائيليين خسروا ٣ طائرات من كل ٥ طائرات حاولت الاقتراب من منطقة العبور ، وان الطائرات كانت تقوم بالقصف من ارتفاعات عالية هروباً من الدفاعات الأرضية ، لذا فإن رماياتها كانت غير دقيقة [1] . وتذكر المصادر الأميركية

---

(١) **نيوزويك** ؛ ١٩٧٣/١٠/٢٢ .

أن ٨٠ ٪ من الطائرات التي خسرها سلاح الجو الاسرائيلي سقطت بفعل الدفاعات الأرضية ، في حين سقط ٢٠ ٪ منها فقط في الاشتباكات الجوية . وهكذا استطاعت القوات المصرية والسورية تقديم إسهام ثوري في فنون القتال عندما حققت الحفاظ على سرية السلاح الجديد ، ولم تستخدمه للرد على الاستفزازات رغم قوتها ، واحتفظت به ليوم المعركة الفاصلة ، حيث أخذت تستخدمه على نطاق واسع، حارمة الطيران المعادي من حرية العمل، ومبرهنة على أن بوسع الدفاعات الأرضية الجيدة الحديثة ، بالتعاون مع المطاردات المعترضة ، شل سلاح الطيران ، وتجريده من التفوق الذي يملكه ، ومنعه من تحقيق الحسم على مسرح العمليات .

٣ – استخدام المشاة ضد الدبابات

اعتمد الاسرائيليون على سلاحهم المدرع الذي كان القوة الثانية في الثنائي «طائرة – دبابة» . وكانت ضخامة هذا السلاح (حوالي ٢٠٠٠ دبابة متوسطة وخفيفة) ، وارتفاع مستوى تدريبه ، وتحسين مدافع الدبابات (ركبت على جميع الدبابات المتوسطة الاسرائيلية مدافع عيار ١٠٥ مم الموحد المستخدم في دبابات حلف شمالي الأطلسي) ، تجعل القيادة العسكرية الاسرائيلية تعتبر هذا السلاح قبضتها البرية الحديدية الضاربة القادرة على الخرق والمطاردة في العمق ، وتدمير أية دفاعات في حالة الهجوم ، وصد أية هجمات مدرعة في حالة الدفاع.ويقول ييغال آلون في معرض الحديث عن دروس حرب ١٩٦٧ : « ويبدو لي انه في تنظيم القوات البرية يجب اعطاء أفضلية أخرى للمدرعات كقوة رئيسية بين القوات البرية »[١] . وكان قد ذكر خلال الحديث عن التطور الذي أعقب حرب ١٩٦٥ : « أصبح سلاح المدرعات الفرع الحاسم في القوات البرية . وعلى هذا الأساس تم توسيعه وتحسينه ... في عدد دباباته ، وطاقتها من النيران ، وقدرتها على اجتياز أراض لم تعتدها ليلا ونهاراً ، وقوة

(١) آلون « الستار الرملي » المذكور سابقاً ، ص ٤٨ .

المناورة . لقد أصبحت هذه المدرعات قادرة على اختراق الخطوط الدفاعية القوية ، والالتفاف حول مدرعات العدو ، وتطويقها وسحقها »[١]

وفي عام ١٩٧١ تحدث الجنرال ابراهام ايدن قائد تشكيلات المدرعات عن تطور الدروع في المستقبل فقال : « اننا في مرحلة تعاظم وسنواصلها في فترات الهدوء والقتال ... والصورة التي أعطيت للدروع في الميدان تمنحنا الثقة العالية بقدرتنا ، ليس فقط للصمود في حرب الدفاع أو لتحطيم عملية العبور ، بل كذلك لاستخدام الطرق التقليدية التي نتطلع فيها الى الوصول بالقوة المدرعة الى العمل السريع بعمق فوق أرض العدو »[٢] .

أمام هذا السلاح الكبير الحاسم كان لا بد من تكتيك جديد لا يحل محل تكتيك « الدبابة ضد الدبابة » أو تكتيك « الدبابة والقانص – ضد الدبابة » ولكنه يتطابق معهما الى حد بعيد ليصبح « المشاة ، والصواريخ المضادة ، والدبابة – ضد الدبابة » . ولقد أوجدت القوات العربية هذه المعادلة ، فاستخدمت وحدات المشاة المزودة بأعداد كبيرة من قاذفات الصواريخ ر ب ج – ٧ ، ووحدات الصواريخ المضادة للدبابات « ساغر وسنابر » المحمولة على عربات مصفحة للعمل ضد دبابات العدو لوحدها أو بالاشتراك مع الدبابات المتوسطة العربية . وقامت هذه الوحدات بدورها بشكل فعّال مفاجىء ، وألحقت بالعدو على الجبهتين المصرية والسورية خسائر لم يكن يتوقعها لدرجة جعلت الكتاب العسكريين الاسرائيليين يتساءلون بهلع : هل ماتت الدبابة ؟

ويتحدث المعلق العسكري زئيف شيف عن ضخامة المفاجأة التي حققها الأسلوب القتالي العربي الجديد : «ان أكبر المفاجآت في المجال التكتيكي والتقني في حرب يوم الغفران [حرب ١٩٧٣] كانت دون أدنى شك الأسلحة المضادة للدبابات التي يمتلكها العدو . أو بشكل أدق : بأيدي مشاته ...

(١) آلون « انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي » المذكور سابقاً ، ص ١٧٣ .
(٢) بمحانيه ، ١٣/١٠/١٩٧١ .

والأمر المذهل بصورة خاصة كان كميات الأسلحة هذه ، والكميات التي كانت بأيدي سلاح المشاة المصري بشكل خاص . ومن الواضح ان هذه غلطة فادحة عندما لا يعلم أحـد الأطراف بأن عدوّه قد أدخل الى وحداته قواذف ر ب ج – ٧ بدل قاذفة واحدة لكل مجموعة (كانت كل مجموعة تملك ٣ قواذف) . وينطبق القول نفسه عندما لا تعرف كميات الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات في وحدات المشاة العادية » ، ثم يتابع حديثه : « لقد بنى الجيش الاسرائيلي مدرعاته لمنازلة مدرعات العدو . وبالفعل ففي اللحظة التي أمكن فيها لدباباتنا أن تخوض معارك دبابات كانت دباباتنا متفوقة ... والمشكلة كانت أن العدو خلق وضعاً لم ننجح فيه دائماً بخلق مواجهة بالدبابات . ففي مواجهـة دبابات الجيش الاسرائيلي وضع أكثر من مرة سلاح المشاة المزوّد بأسلحة مضادة للدبابات . وعلى الرغم من أنه قد ضحى بكثير من جنوده ، إلا انه حقق مفاجأة تكتيكية ... لقد ظننا ان الدبابة تلقي الرعب دائماً في سلاح المشاة المواجه لهـا ، وكانت المفاجأة أن رأينا المصريين يتجرأون في مهاجمة الدبابات ... وفجأة اتضح لنـا ، كما قال أحد الزعماء الاسرائيليين ، ان فلاحي وادي النيل أصبحوا صيادي دبابات [١] .

ويدل هذا القول الاسرائيلي ، في معرض دروس حرب ١٩٦٧ ، على أثر المفاجأة المادية والمعنوية الناجمة عن الطريقة الثورية العربية في استخدام سلاح المشاة بكثافة كبيرة ضد الدبابات. وجاء دور الاسرائيليين ليقولوا : انتظرناهم من الشرق فجاؤوا من الغرب . واستطاع التطوير في استخدام السلاح مفاجأة العدو الذي كان يعرف وجود السلاح وميزاته، ولكنه لا يتوقع هذا الاسلوب المكثف لاستخدامه [٢]. وكان بوسع القيادة الاسرائيلية لو أنها كانت أخصب

---

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٤ .

(٢) كان القاذف الصاروخي « ر ب ج – ٧ » المضاد للدبابات موجوداً في الجيشين المصري والسوري قبل حرب ١٩٦٧ . بزمن بعيد . ولقد حصل الاسرائيليون على أعداد منه في هذه الحرب . وكانت صواريخ « سنابير » الموجهة المضادة للدبابات موجودة مع الوحدات المصرية العاملة في سيناء خلال حرب ١٩٦٧. ولقد استخدمتها هذه الوحدات ضد العدو ←

خيالاً وأقل دوغماسية أن تتوقع هذا المصير للدبابة . ولم يكن مستقبل الدبابة المظلم خافياً على عدد كبير من المفكرين العسكريين الاسرائيليين ، فلقد كتب العقيد السابق الدكتور يهودا فالخ في مجلة **معرخوت** (آب ١٩٧٢) مقالاً حول هذا الموضوع بعنوان « هل ماتت الدبابة ؟ » وكان مقاله دراسة حول ما كتبه المقدم الأمريكي « و . لنون » بهذا الصدد . ولقد نشرت مجلة **معرخوت** نفسها أقوال المقدم لنون الذي ذكر « ان دبابـة اليوم هي درع مثل درع الجسم في العهود الغابرة . ومعروف أنها تتمتع بمزايا أكثر . إلا أنها قد وصلت الى مرحلة تحطمها المتقدمة ، لأن أهميتها تقل في مرحلة تتطلب من المعدات أكثر مما طلب منها في أي وقت مضى [١] . وكان المقدم الالماني ف . ميكشه قد تحدث عن هذا الموضوع أكثر من مرة ، ونشر عدة مقالات يتنبأ فيها بنهاية هذه الأداة القتالية عندما ستتطور أجهزة الدفاع ضـد الدبابات ، تماماً كما اختفت الخيالة كسلاح فعال بعد ظهور الرشاشات . وذكر أن أسلحة الدفاع ضد الدبابات أرخص من الدبابات وأكثر منها فائـدة . وطرح بشكل سافر التحدي الكبير الذي يجابه سلاح المدرعات في أية حرب مقبلة . ولكن القيادة الأسرائيلية لم تسمع أجراس الانذار هذه ، وتابعت بناء سلاحها المدرع بالأسلوب القديم التقليدي نفسه ، ولم ترفع عدد وحدات المشاة المرافقة للدبابات لحمايتها ، فساعدت المشاة العربية بذلك على تحقيق مفاجآتها الثورية الكبيرة .

→ الاسرائيلي وكان لها دور كبير في المعركة التي جرت يوم ٦٧/٦/٩ على مسافة ١٥ كيلومتراً شرقي موقع « القنطرة شرق » وغنم العدو عدداً من بطارياتها . ثم استخدمها المصريون في حرب الاستنزاف . وكان العدو يعرف ميزاتها وأساليب استخدامها ؛ كما يقول حاييم بارليف في مقال « **كان لدى الاستخبارات معلومات ، ولكن تقديرهـا لم يصمد بالامتحان** معاريف ، ١٩٧٣/١١/٢ .

(١) **معرخوت** ، آب ١٩٧١ ، عدد ٢٠٩ .

ولم يقتصر مجال تثوير مجابهة الدبابات على الجانب العربي ، فلقد استخدم الاسرائيليون في هذه المجابهة أسلوباً ثورياً يتمثل في مقاومة الدبابات بطائرات الهليكوبتر المسلحة بصواريخ جو – أرض من طراز « تاو » و « س . س – ١١ » . وكان الاميركيون قد ابتكروا هذا الأسلوب من قبل . وأعدوا طائرات « بيل ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢١٢ » ، و « هواي كوبرا – بيل ٢٠٩ » و « كينغ كوبرا » المقاتلة ، و « سيكورسكي – س – ٦٧ بلاك هوك » لمجابهة الدبابات بعد تزويدها بصواريخ جو – أرض . ولكن الاسرائيليين كانوا أول من أدخل هذا الأسلوب الثوري الى المنطقة .

وبالاضافة الى ذلك ، طور الاسرائيليون أسلوب استخدام « الاحتياط المضاد للدبابات » ، وخلقوا المجموعات الاحتياطية المضادة للدبابات ، المزودة بصواريخ م/د موجهة ، والمحمولة مع صوريخها بطائرات الهليكوبتر . ولقد أمن هذا التطوير لقادة التشكيلات احتياط مضاد للدبابات ، قادرة على الحركة بسرعة ومرونة في المناطق الوعرة (هضبة الجولان) وفي القتال على جبهة عريضة (سيناء) ، لتنفيذ مهمات سد الثغرات وصد الهجمات المدرعة في الدفاع ، ومرافقة التقدم وصد الهجمات المعاكسة في الهجوم . وأدى هذان التطويران الثوريان إلى إلحاق الخسائر بالمدرعات العربية ، على الجبهتين المصرية والسورية .

٤ – تبادل المهمات في الثنائي « طائرة – دبابة »

اكتشف الالمان أهمية الثنائي « طائرة – دبابة » خلال الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) التي كانت حقل تجارب عملي واسع النطاق للعقائد الحربية والأسلحة الحديثة . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية والحروب التي تلتها لتؤكد هذه الأهمية . ولقد بنى الاسرائيليون عقيدتهم الحربية على هذا الأساس ، وطبقوا الاسلوب التقليدي في تعاون الدبابات مع الطائرات.

وكانت مهمة الطائرات بصورة عامة دعم القوات البرية (دبابات ومشاة ميكانيكية) ، وتدمير المقاومات المعادية ، وفتح الطريق أمام الدبابات لتتقدم بسرعة في عمق ترتيب العدو ، مع الافادة الى الحد الاقصى من الامكانات الحركية الكبيرة التي تملكها التشكيلات المدرعة الحديثة . وكانت ميكانيكية عمل الثنائي « طائرة – دبابة »تتمثل في **تطهير الأرض من الجو**، بغية السماح للقوات البرية بالتقدم لتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها .

وفي حرب ١٩٧٣ ، استطاعت شبكة الصواريخ أرض – جو إبطال عمل الطائرة ، واختل عمل الثنائي « طائرة – دبابة » في معسكر العدو الى حد ما . وهنا وجد الاسرائيليون ان آلتهم الحربية مهددة بالعطب اذا ما تمسكوا بالمفهوم التقليدي للقتال ، أو أصروا على ضرورة تطهير الأرض من الجو قبل التقدم ، فلجأوا الى تدبير ثوري أعاد للآلة الحربية المعادية حرية العمل . ويتمثل هذا التدبير في **تطهير الجو من الارض** ، أي في تدمير قواعد الصواريخ المضادة للطائرات بهجوم أرضي مفاجىء بحيث تحصل الطائرات على ممر أمين مفتوح في الجو يسمح لها بحرية العمل ، والعودة الى اسلوب تطهير الارض من الجو عند متابعة التقدم .

ولقد طبق العدو هذا الاسلوب في خرق الدفرسوار الذي كان عبارة عن اغارة مدرعة على الضفة الغربية،كان من نتائجها تدمير قواعد الصواريخ، وإعطاء الطائرات « ممراً » ضيقاً أميناً لبدء العمل . ولقد وجدت الطائرات الاسرائيلية في بداية الأمر صعوبة بالغة في المرور عبر هذا « الممر » ولكنها استطاعت رغم ذلك دعم القوة البرية على توسيع الممر الجوي من الأرض . ولما اتسع الممر وأخذ سلاح الجو الاسرائيلي حرية العمل الكافية ، بدأت طائراته مهمتها في تطهير الأرض أمام القوات البرية التي نفّذت مناورة نصف المروحة باتجاه السويس .

هذه هي أهم الملامح الثورية في الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة .

وهي تتسم بالثورية لما فيها من إبداع وتطوير وخروج عن الأساليب التقليدية. وستتحول هذه الأساليب « الثورية » مع الزمن الى أساليب تقليدية ، وتفقد ما كانت تتمتع به من مفاجأة . ولا شك في أن التطور في مجالي التسليح والتكتيك سينتزعان من هذه الأساليب الكثيرة من أهميتها . وقد تجد الصواريخ نفسها في الحرب الخامسة عاجزة عن انتزاع السيطرة الجوية من الطائرات بعد زيادة سرعة هذه الطائرات ، او رفع مستوى مناورتها ، او تزويدها بأجهزة تشويش ملائمة . وقد تفقد الهليكوبتر قدرتها على مجابهة الدبابات بفاعلية نظراً لاتساع نطاق استخدام الصواريخ الخفيفة المضادة للطائرات (سام – ٧ ، وبلوبايب ، وريد آي) ، وقد تزيد القطعات المدرعة عدد المشاة الميكانيكية المرافقة لها لمجابهة المشاة المعادية وحماية الدبابات من القانصين . وستظهر في أية مجابهة مقبلة أساليب « ثورية » جديدة تتناسب أهميتها وفاعليتها مع مدى ديناميكية فكر القيادات وسعة خيالها . ويكمن الخطر في اعتبار الأساليب « الثورية » التي نجحت في هذه الحرب « وصفة » جاهزة للحرب المقبلة ومفتاحاً سحرياً يضمن النجاح ، **فالحرب نشاط انساني متحول يرفض الحلول الجاهزة** ولا يقبل سوى الحلول العملية الملموسة الملائمة لكل ظرف على حدة . ويمكننا اعتبار فشل الجيوش الاوروبية المجمعة بكتل كثيفة أمام مناورات جيش نابليون المتمفصل « بنظام فرقي »، وتكسر حدة هجمات الخيالة أمام نيران الرشاشات ، وانهيار خط ماجينو الحصين بعد التفاف المدرعات الالمانية عبر الأردين في عام ١٩٤٠ ، وتراجع الفِرَق الأمريكية السريع أمام هجمات كتل المشاة الكورية – الصينية الضخمة في حرب ١٩٥٠ – ١٩٥٣ ، وفشل القوة المادية الأمريكية في احراز النصر في فيتنام (١٩٦٥ – ١٩٧٢) ، وتشتت المدرعات الاسرائيلية واضطراب تشكيلاتها بسبب المفاجأة الناجمة عن ضربات مشاة كثيفة ملسحة باعداد كبيرة من الاسلحة المضادة للدبابات . أمثلة تاريخية مختلفة الأهمية والحجم والنوعية ، ولكنها تمتلك عاملاً مشتركاً هو أنها تبرهن برهاناً قاطعاً على فشل

العقلية التقليدية التي تقدس تجربة الماضي ، وترفض التطور وفق خط التطور الاجتماعي – الاقتصادي – السياسي – العسكري العام . ولا تحسن توقع الأساليب « الثورية » التي يمكن أن يجابهها العدو بها في جميع المجالات ، وتدخل حرب اليوم بأفكار حروب الأمس، كأن حركة التاريخ تتوقف عند حدود لحظات الانتصار .

٩ ـ النتائج المعنوية للحرب الرابعة (*)

« لقـد كشفت حرب يوم الغفران فجأة الدولة اليهودية على حقيقتها : قوية عسكرياً كفرنسة ، ضعيفة سياسياً كلبنان » .

(اموس أوز) .

كان لحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ آثار معنوية كبيرة داخل المعسكرين المتنازعين لا تقل أهميتها عن أهمية الآثار المادية . ولقد زاد من ضخامة هذه الآثار الأسلوب الذي تم به إعداد الطرفين النفسي للحرب، والتناقض الكبير بين الخط الدعائي والخط العمـــلي . واذا كان التناقض بين الخط الاعلامي المهدد المتوعد ، والهزيمة الساحقة في العمليات العسكرية قد دفع المعنويات العربية الى حضيض قاتل، فإن التناقض بين خط اسرائيل الاعلامي المتمحور حول الخوف من خطر الابادة وبين الانتصار السريع في الحرب ، قـد دفع المعنويات الاسرائيلية الى قمة ، كانت في النتيجة قاتلة أيضاً (انظر الدراسة الرابعة) . واذا أردنا إيجاز النتائج المعنوية للحرب الرابعة قلنا أنها كانت تصفية للآثار المعنوية لحرب ١٩٦٧ لدى الطرفين المتنازعين ، مـع إعادة التوازن النفسي في الشرق الأوسط الى حالته الطبيعية المتناسبة مع موازين القوى الحقيقية ، بعد ان أخلّت حرب ١٩٦٧ بهذا التوازن الى حـد غير معقول .

---

* نشرت هذه الدراسة في مجلة **دراسات عربية** عـدد أيار (مايو) ١٩٧٤ ، ص ٤٨ — ٧٦ .

انعكاس الحرب على العرب

خرج العرب من حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بنفسية محطّمة ، ومعنويات متدنية الى أبعد مدى . وكانت آثار هذه الحرب على الصعيد النفسي أخطر من آثارها المادية المتمثلة بتدمير القوات العربية المسلحة ، واحتلال أراض عربية واسعة ، وتشريد عشرات الألوف من سكان المناطق المحتلة . ويرجع ذلك الى أن الهزيمة الاستراتيجية في « حوار الارادات » تبدأ نفسية أساساً ، وتتحقق بالفعل عندما يشعر أحد الطرفين بأنه لم يعد هناك أمل في متابعة النزاع ، عندها ، وعندها فقط ، يبدأ الخصم في اقتطاف ثمار المعركة ، ويجسد انتصاره على شكل احتلال للارض، والمساومة عليها في سبيل تحقيق أغراضه .

ولقد حاولت الدعاية الصهيونية والامبريالية استغلال حالة الذهول المطلق الذي أصاب الانسان العربي بعد معارك حزيران (يونيو) ، وشن حملة لاستثمار الظفر ، تستهدف احتلال النفس العربية بعد ان احتلت الارض العربية ، وتأمين السيطرة الروحية على المواطن من الداخل بعد ان حققت السيطرة المادية عليه من الخارج . واتجهت محاور الخرق الدعائي المعادي نحو النقاط التالية :

١ ـ ان الهوة التكنولوجية بين العرب واسرائيل كبيرة تتسع باستمرار، وان من المتعذر انتصار شعب « متخلف » حضارياً على شعب متقدم يمتلك ناصية الحضارة .

٢ ـ ان القوات الاسرائيلية المنظمة المدربة المنضبطة المسلحة حتى الاسنان أقوى من الجيوش العربية مجتمعة ، وقادرة على الضرب في كل زمان ومكان ، واحتلال أية بقعة من أرض العرب .

٣ ـ ان التعاون العربي ، والوحدة العربية ، والتضامن العربي ان هي إلا مسميات لأمور موهومة ، ولا يمكن تجسيدها إلا لفظياً .

٤ ـ ان التخلف الاقتصادي والاقليمية والعشائرية والجهل وكل مظاهر التخلف الموروث عبر القرون ستجعل العرب دائماً عاجزين عن تعبئة قواهم ، او الافادة من عامل تفوقهم العددي على الدولة الصهيونية .

٥ ـ ان المجتمع الصهيوني مجتمع متماسك رغم تباين ايديولوجيات ابنائه ، والتناقضات الاجتماعية الكامنة في أعماقه .

٦ ـ ان الزعماء العرب يؤثرون مصالحهم الخاصة والاقليمية على المصالح القومية ، ولا يمكن أن يندفعوا الى حرب يخسرونها ويخسرون معها مواقعهم المتميزة ، ومكاسبهم الذاتية .

٧ ـ ان السوفييت لا يمكن أن يزودوا العرب بالسلاح الحديث الفعال ، لأنهم من أول المستفيدين من حالة « اللاحرب واللاسلم » ، ولأن العرب لا يتقنون استخدام هذه الأسلحة المتطورة .

٨ ـ ان على العرب أن يصالحوا اسرائيل الباحثة عن « السلام ! » ، شريطة أن يسود في المنطقة « سلام يهودي » يجعل اسرائيل الدولة الكبرى الوحيدة في المنطقة .

ومن المؤكد ان الدعاية الاسرائيلية ـ الامبريالية وجدت من يسمعها ، وحققت الخرق النفسي في كثير من المجالات ، وان لم تستطع تحقيق الاحتلال النفسي الكامل رغم مرور أكثر من ست سنوات على الاحتلال المادي . ولقد ظهرت آثار الخرق النفسي على شكل استعداد للتساهل وتقديم التنازلات وتجاوز « لاءات الخرطوم الثلاث » بل وعقد صفقة منفردة مع اسرائيل (الاردن) كما ظهرت في أماكن أخرى على شكل انحناء أمام الردع (لبنان) أو على شكل لا مبالاة وسلبية وقرف جماعي سادت بعض الشرائح الاجتماعية داخل الارض المحتلة وخارجها . بيد أن أهمية « هدف النزاع » وحيويته ، واندلاع حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس ، وتصاعد عمليات الثورة الفلسطينية داخل الارض المحتلة ، ووقوف الدول الاشتراكية والدول المحبة للسلام الى جانب العرب مادياً ومعنوياً ، أوقفت هذا الخرق

النفسي في بعض المجالات ، ومنعت الانهيار المعنوي الكامل ، وان لم تمنع التفتت المعنوي البطيء المتزايد مع الأيام .

ومع انطلاق القنبلة الأولى ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ، ومع اندفاع الدبابات العربية من أرض سيناء والجولان بـدأ تحرير الانسان العربي من الاحتلال النفسي . فلقد كان اتخاذ قرار الحرب في حد ذاته انتصاراً نفسياً ، وشرارة أيقظت الكثير من الآمال الهاجعة ، وهزة قوية نقلت الكثيرين من مواقع اللامبالاة الى مواقع الرغبة في العمل . وكان لا بد من انتظار نتائج المعارك الأولى ، وسماع أنباء الانتصارات العربية ، وفشل القوات المسلحة الاسرائيلية في « تحطيم عظام العرب » لتتحول حالة نصف الوعي الى حالة وعي كامل بقوة العرب ويقظتهم وقدرتهم على مجابهة غطرسة العدو وتبجحاته، وإلحاق الهزائم بقواته « الاسطورية التي لا تقهر » . وفي ١٥ تشرين الأول (اكتوبر) وعندما كانت المعارك دائرة على الجبهتين بعنف لم تشهده المنطقة من قبل أعلن الرئيس حافظ الأسد في خطاب وجهه من تلفزيون دمشق : « قبل عشرة أيام خاطبتكم في اليوم الذي كان نهاية مرحلة أراد منها العدو أن تكون اعتداءاته المتكررة تثبيتاً لواقع الاحتلال والتوسع ، وتمهيداً لفرض ارادته على أمتنا . واليوم أحدثكم وقد اتخذت المعركة شكلها الحقيقي ، شكل حرب تحرير كاملة ، **كان أول انجاز لهـا تحرير الارادة العربية من عوامل الضغط عليها** »[1] ثم كرر الرئيس الأسد المقولة نفسها في خطاب ٢٩ / ١٠ / ٧٣ عندما أكد بأن تحرير الأرض لم يتم وانه « ما زال قسم من الأرض في منطقة الخرق في يد العدو لأن وقف القتال جاء مفاجئاً لنا ومغايراً لتصوراتنا عن سير المعركة . إذ كنا نتصور معركة طويلة الأمد » ولكنه أكد في الوقت نفسه « لم نحرر الأرض ، لكننا حررنا ما هو الأساس ، وما لا بد من تحريره أولا . حررنا ارادتنا من كل قيد . حررنا ارادتنا في القتال من أجل حياة شريفة وكريمة . حررنا نفوسنا من الخوف والتردد واللامبالاة .

١ – البعث السورية ، ١٦ / ١٠ / ١٩٧٣ .

حررنا نفوسنا من عقدة الذنب والقصور طالما اننا في السابق ومنذ قيـام اسرائيـل لم نحارب كما يجب أن نحارب »[1] . ويمكن القول ان الحرب الرابعة انعكست على معنويات العرب بشكل واضح تمثل بالحقائق التالية :

١ – أثبتت المعارك الطاحنة ، والجرأة التي قاتل بها الجندي العربي في ظروف المعركة المعقدة، والاستخدام المبدع الخلاق للاسلحة والمعدات المتطورة الحديثة ، ان الانسان العربي قادر على خوض الحرب الحديثة بكل أبعادها ، وان القيادات العربية مؤهلة للقيام بتخطيط علمي هادىء بعيد عن العشوائية، كما أنها قادرة على تأمين السرية الكاملة اللازمة للمفاجأة .

ولا شك في أنه كان للتدريب الطويل الشاق أثره على الوصول الى هـذه النتائج ، كما أن تطويع عشرات الألوف من المثقفين داخل القوات المسلحة (جنود المؤهلات) رفع مستوى هـذه القوات العلمي ، وجعلها قادرة على التعامل مع أحدث مـا أنتجته المصانع السوفيتية من أسلحة ومعدات . وتذكر الغارديان « لقد قاتل العرب على الجبهتين كجنود ، فهم منضبطون ، مقاتلون ومقادون بشكل ذكي ، وليس هناك أي أثر لدبابات متروكة »[2] . أما نيوزويك الأميركية فقد كانت أكثر حماسة للعرب عندما قالت : « ان كل يوم يمر يحطم الأساطير التي بُنيت منذ انتصار اسرائيل السابق عام ١٩٦٧. وكانت هناك أولاً أسطورة تقول ان العرب ليسوا محاربين . والذين قالوا ذلك في غمرة ذكريات هزيـمة ١٩٦٧ نسوا ان المقاتلين العرب اجتاحوا في أحد الأيام جزءاً كبيراً من أوروبا ، ونشروا الدين الاسلامي »[3] .

وليس علينا أن نذهب بعيداً في مجال الاستشهاد فلقد اعترف الاسرائيليون أنفسهم بمقدرة الجندي العربي على الصمود والقتال ، وذكر اللواء الاحتياطي متتياهو بيليد : « من الواضح حتى الآن ، ان الجندي المصري لا يزال يُظهر

١ – البعث السورية ، ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٣ .
٢ – الغارديان ، ١١ / ١٠ / ١٩٧٣ .
٣ – نيوزويك ، ٧٣/١٠/١٥ .

روحاً قتالية قوية ... اننا نعرف هذه الظاهرة ، ونذكرها جيداً منذ حرب التحرير (١٩٤٨) » [١] ، ويذكر تيدي برويس : « كانت هناك ثغرة بين توقعات الجمهور وبين ما أحرز . لقد برزت هذه التوقعات من خلال مبدأ **الحرب ليست لهم** (للعرب) ولذا خاف الكثيرون من ظاهرة ان العدو حارب ولم يهرب . وهكذا توصل الجمهور الى استنتاج انه حدث تحول كبير في الكفاية القتالية لجنود العدو ، وان الجندي المصري والسوري هما اليوم غير ما كانا عليه في سنة ١٩٦٧ . ان الثغرة بين التوقعات والنتائج التي أحرزت هذه المرة ، تكمن في الحقيقة التي نسيها شعبنا ، وهي ان العربي لم يكن خلال الأعوام العشرين الماضية مقاتلاً سيئاً . وفي أماكن كثيرة قاتل بشجاعة وتصميم . — إلا أن آباء مبدأ **الحرب ليست لهم** طمسوا ذلك وشوهوه . وأوضح برهان على ذلك هو حرب الاستنزاف ، فعلى الرغم من الضربات الرهيبة التي أنزلها الجيش الاسرائيلي ، خاصة سلاح الجو ، بالجندي المصري ، فقد أظهر قدرة على التحمل لا تصدق . وقد برزت هذه الصفة ، بصورة واضحة ، في المعارك والحروب السابقة، إلا أن هذا الأمر نسي بسبب أقوال العجرفة والتعالي التي كانت تصدر عن بعض القادة والسياسيين » [٢].

ولقد قال العميد يتسحاق حوفي قائد المنطقة الشمالية :« كانوا (السوريون) متفوقون في العدد ، **ولقد اندفعوا الى الداخل كاللهب** ، حدث هذا ليلاً ، حتى اني لا أذكر متى ، ويخيل لي أنه كان في الليلة الثانية » [٣] وهكذا أنست بسالة الجندي السوري العميد قائد المنطقة الشمالية تواريخ الأحداث مع أنه لم يكن قد مضى عليها شهر واحد . وذكر ابريك شارون يصف عملية اجتياز القناة « كنت في معارك عديدة ، ولكن هذه كانت حرباً فعلية » [٤] أما كتاب التقصير (هامحدال) فهو يصف الهجوم العربي — على

١ — معاريف ، ١٩٧٣/١٠/٢١ .
٢ — دافار ، ١٩٧٣/١٠/٢٥ .
٣ — معاريف ، ١٩٧٣/١٠/٢١ .
٤ — معاريف ، ١٩٧٣/١١/١٣ .

لسان القادة الاسرائيليين في الجولان وسيناء — بأنه هجوم مستمر قوي على موجات ، إذا سقطت منها موجة ظهرت موجة أخرى ، ويكرر مع القادة الاسرائيليين ، أكثر من مرة ، التعبير الذي ساد داخل الجيش الاسرائيلي « **أنهم يتقدمون جماعات كالصينيين** » ، ويؤكد الكتاب الروح الصدامية التي تحلى بها جنود المشاة العرب المسلحون بالأسلحة المضادة للدروع ، والذين كانوا يجابهون الدروع بأجسادهم حتى تسحقهم سلاسل **الدبابات. وعندما** يتحدث عن الهجمات المعاكسة الاسرائيلية على الجبهة الجنوبية ، يصفها بأنها كانت « **كمن يناطح الحائط** » ، ثم يحدد الخلل الفكري الذي أدى الى هذا التصرف الأخرق بقوله : « ويبدو ان القيادة قدرت أن هذا **بمثابة اليوم السابع من حرب الأيام الستة** ، فقد اشترك الكثير من القادة في حرب الأيام الستة ، واعتقدوا أنه **تكفي خبطة على صفيحة لتطير العصافير مذعورة** . وعلى الرغم من أن أول يومين كانا مريرين ، وتم فيهما سحق قوات كبيرة (اسرائيلية) ، فلم يكونوا كافيين ، كما يبدو ، للتوضيح . ان هذه الحرب تختلف كلياً . » [١] . ثم يصف الكتاب تكتيك قتال المشاة المصريين قائلاً : « ووجد الرجال أنفسهم يواجهون كتائب (فالانكسات) عصرية : تمركز المصريون كتلاً كتلاً ، حيث كان جنودهم مزودين بالصواريخ تحميهم وحدات من الرشاشات والدبابات . هكذا كانوا يقفون، وهكذا كانوا يتحركون الى الأمام والى الوراء بالتناوب » [٢] .

٢ — كسرت الحرب جدار الوهم الذي كان يشل الارادة العربية ويصيبها بكل تأثيرات الردع . وتعرت أسطورة « الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر » بكل زيفها . وكانت قيادات تل أبيب قد أقنعت من يود سماعها من العرب والاسرائيليين والعالم أجمع بأن جيشها العصري من أفضل جيوش العالم وأكثرها

(١) **التقصير** ، (هامحدال) ص ١٠٨ من الترجمة العربية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٤ .
(٢) المرجع السابق . ص ١٠٨ .

ديناميكية وقدرة على القتال ، وان ارتفاع مستوى الجندي الاسرائيلي الثقافي والتدريبي والتسليحي والمعنوي يجعله أفضل من أي جندي ، وان القوات الاسرائيلية المسلحة لا تمثل قوة محلية محدودة ، ولكنها قوة كبرى قادرة لا على التغلب على العرب مجتمعين فحسب ، ولكنها تستطيع أيضاً مجابهة جيوش دول اوروبية عظمى . ولقد بلغ الغرور بقادة العدو حداً جعلهم يتسابقون في الاحتفالات الرسمية الى اطلاق تصريحات طنانة مفعمة بالصلف ، كتصريح وزير الدفاع موشي دايان بأن الجيش الاسرائيلي « قادر على إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية كلها » (١) ، وتصريح قائد سلاح الطيران السابق عيزر وايزمان بأن اسرائيل كانت خلال حرب الاستنزاف « قادرة على مجابهة القوات السوفييتية مجابهة ظافرة » (٢) ، وتصريح اريك شارون قبل الحرب بشهرين « بأن اسرائيل ، بصفتها أقوى دولة – بعد الدولتين العملاقتين – قادرة على احتلال العالم العربي كله من العراق الى تونس » (٣).

ولقد أكثر الاسرائيليون الحديث عن بطولاتهم الخارقة ، وانجازاتهم العسكرية الخلاقة ، واستخدموا في حملتهم الاعلامية الديماغوجية المقولة المضللة بأنهم شعب صغير لا يتجاوز تعداده الملايين الثلاثة جابه أكثر من مائة مليون عربي ثلاث مرات ، وانتصر عليهم انتصارات باهرة . ولكنهم كانوا يخفون حقيقة ان حجم القوات المسلحة الاسرائيلية (في حربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧) والاسرائيلية – الفرنسية – البريطانية (في حرب ١٩٥٦) كانت تتفوق على القوات العربية المشتركة في القتال بالعدد والعدة والتسليح والقوة النارية ، وان ظروف العرب الاقتصادية والسياسية لم تسمح لهم بأن يجندوا في أي يوم من الأيام (قبل حرب ١٩٧٣) قوة مسلحة متفوقة على قوة اسرائيل او معادلة لها . وان الدعم الامبريالي الاقتصادي والعسكري كان يقلب موازين

---

(١) ذكره اريك رولو ، في لوموند ، ١٩٧٣/٣/٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

القوى دائماً لصالح الجيش الاسرائيلي . ولقد صدّق العالم الخدعة الاسرائيلية ، حتى ان كتّاباً عسكريين فرنسيين وبريطانيين واميركيين وألماناً غربيين أخذوا يتحدثون في كبريات المجلات العسكرية العالمية عن التجربة العسكرية الفذة لهذا الجيش المتطور الذي يتقن فن النصر (١) .

وصدّق العرب أيضاً هذه الخدعة **حتى غدت أفكارهم متجهة نحو درء خطر هذا الجيش لا نحو مجابهته وتحطيمه** ، ثم جاءت حرب تشرين الأول (اكتوبر) لتكشف ان الجيش الاسرائيلي قوة مسلحة كغيرها من القوات المسلحة ، تخطىء استخباراتها « العبقرية » في تحليل المعلومات ، ويخطىء قادتها في نشر القوات وتحريكها وزجها في المعركة ، ويخاف جنودها « السوبرمان » ويجرحون ويقتلون ويبكون ويقعون في الأسر ، وتتدمر تحصيناتها ووحداتها المدرعة ، وتسقط طائراتها ، وتغرق مراكبها ، وتقطع « ذراعها الطويلة » وتتحطم « قبضتها الفولاذية » **عندما تجابهها** قوات مدربة ومنظمة وحسنة القيادة، في ظل موازين قوى معقولة . ولقد كتبت مجلة **نيوزويك** الاميركية خلال الحرب « كانت هناك اسطورة ثانية تقول ان الاسرائيلي سوبرمان أي رجل الاستخبارات الذي يكشف سلفاً مخططات العرب ، وقائد الطائرة الذي لا يخسر معركة جوية أبداً ، وجندي المشاة الذي يستطيع احتلال أية عاصمة عندما يصدر إليه الأمر بذلك » .. « ولكن العرب اكتشفوا خلال الاسبوع الماضي ان الاسرائيلي رجل عادي . وقال لي رجل لبناني بحماسة : بغض النظر عن نتيجة الحرب الحالية فإن اسطورة الاسرائيلي الذي لا يقهر قد انهارت . واذا خسرنا هذه المرة فنحن نعرف ان الهزيمة ليست أبدية . فسوف نعود ونحاول أيضاً وأيضاً»(٢) . كما كتبت صحيفة **الغارديان** البريطانية

---

(١) ان من يقرأ مقالات Revue de défense nationale منذ حرب ١٩٥٦ حتى حرب ١٩٧٣ ، ومقالات Aviation Week & Military Review التي مجدت الجيش الاسرائيلي قبل حرب ١٩٧٣ وتابعت تمجيده بعدها ، يشعر بمدى التأثير الاسرائيلي على الفكر العسكري الغربي .

(٢) نيوزويك ، ٧٣/١٠/١٥ .

تقول : « ان الاسطورة التي دامت ربع قرن قد اختفت ، واسرائيل معتبرة الآن نهائياً كشيء لم يعد منيعاً لا يمكن الانتصار عليه » (١) ، أما صحيفة **لوموند** الفرنسية فقد كتبت في اليوم الخامس للحرب « وهكذا ، لم يعد الاسرائيليون وحدهم يعرفون كيف يحاربون ، ولم يعد العرب وحدهم يخطئون ويداسون وينسحبون ، أو يرون طائراتهم تسقط ، وطياريهم يقعون في الأسر . ان الزعماء الاسرائيليين يحاولون بشتى الوسائل ان يمحوا من الأذهان هذه الحقيقة الجديدة كل الجدة (٢) .

٣ – أثبت الدور القومي التحريري الذي سعت القوات العربية المسلحة الى تحقيقه وفق استراتيجية الحرب المحدودة ، ان الجيوش العربية لا تشكل قوات اقليمية ذات أهداف سياسية داخلية بحتة ، ولكنها قوات قومية لا تتوانى عن خوض المعركة بكل ثقلها في سبيل قضية تحرير فلسطين ، القضية المحور في حياة العرب . ولقد انعكس هذا الواقع على نفسية الانسان العربي الذي بدأ ينظر بتعاطف أكبر الى العسكرية العربية التي كانت نظرته اليها مشوبة ببعض الحذر . وأدى هذا الأمر الى تزايد التلاحم بين الشعب والجيوش ،بعد ان أثبتت هذه الجيوش أنها أمينة على الأهداف القومية ، متطلعة لتحقيقها .

٤ – كانت المشاركة العسكرية العربية (العراقية والجزائرية أساساً) والمشاركة الرمزية العسكرية (الليبية ، السعودية ، المغربية ، الكويتية ، السودانية) ، والتضامن العربي الذي تمثل بالدعم المالي واستخدام سلاح النفط بأسلوبي التأميم او القطع ، تجسيداً لوحدة الإرادة العربية في معركة المصير ، وتأكيداً ملموساً على تراجع الخلافات العربية الى الصف الثاني عند مجابهة التناقض الرئيسي مع العدو الصهيوني – الامبريالي .

ولقد اعتبر البعض ان وحدة الارادة هذه كانت عاملاً إيجابياً رفع

---

(١) الغارديان ، ١٤/١٠/١٩٧٣ .
(٢) لوموند ، ١٠/١٠/١٩٧٣ .

معنويات الجماهير العربية ، وأكد ان ثقتها بنفسها مبنية على أسس قوية وطاقة بشرية واقتصادية زاخرة . خاصة وان رقم المائة مليون عربي وقوة سلاح النفط لم يعودا في نظر هذه الجماهير أموراً غامضة ،وقوة لا يمكن استخدامها، بل أصبحا قوة ملموسة مادية تتمثل بفرق واسراب تتحرك نحو مسارح العمليات ، كما تتمثل بنفط يضغط على معسكر العدو الامبريالي ويفتته خلال حوار الارادات الذي لا يشمل المجال العسكري وحده ، بل يمتد الى مجالات الاقتصاد والسياسة والدبلوماسية .

ولكن البعض الآخر نظر الى الأمر نظرة مخالفة تماماً ، ورأى ان لقيام فكرة التضامن العربي ، والتبشير بها كبديل عن فكرة الوحدة ، تأثيراً سلبياً على معنويات الجماهير العربية ونضالها الوحدوي الاشتراكي ، خاصة وان الولايات المتحدة الأميركية كانت المستفيد الأول من استخدام سلاح النفط .

والحقيقة ان التضامن العربي الذي ظهر خلال القتال ، والمشاركة العربية – بنسب متفاوتة وأشكال مختلفة – وتقديم التناقض الرئيسي على التناقض الثانوي خلال مجابهة العدو الرئيسي ، كانت من العوامل الهامة في تدعيم القوى المعنوية العربية عامة ، والقوى المعنوية في دول المجابهة بشكل خاص. ولو طال أمد الحرب فترة أكبر لتجسدت هذه الحقيقة بوضوح وجلاء ، ولكانت عامل توعية يومية للجماهير . وكان من المعقول جداً، في هذا الحالة، أن تؤدي هذه التوعية إلى افهام الجماهير العربية بشكل ملموس الفرق القائم بين الوحدة العربية الاشتراكية والتضامن العربي المعزول عن المفهوم الاجتماعي ، وخلق مد جماهيري يدفع الأنظمة العربية المترددة الى تبني مواقف وحدوية واشتراكية أكثر راديكالية ، ودفع طاقاتها العسكرية والاقتصادية كلها الى المعركة ، او السقوط تحت ضربات الانسان العربي التوّاق الى المشاركة الفعلية الحاسمة في معركة المصير .

٥ – استعاد العرب بعد هذه الحرب ثقتهم بأنفسهم ، كما استعادوا

احساسهم بكرامتهم ، وكان عبورهم الجغرافي في الجولان وسيناء عبوراً تاريخياً تجاوز الهزيمة ودخل عصر الانتصارات بثقة وثبات. ويذكر س.فيكلر مراسل **اسوشيتدبرس** من القاهرة: « بعد ثمانية أيام من القتال العنيف، استعاد الجيش المصري شعوره بالفخار القومي ، وحطم الخرافات التي كانت تسود في الماضي » [١] .

وهكذا لم يعد الانسان العربي يرزح تحت وطأة عقدة الهزيمة المذلة للحروب السابقة . وتقدم صحيفة **لوموند** صورة لهذا الانجاز الضخم عندما تقول : « لقد حققت الشعوب العربية بالفعل نصراً كبيراً . وبدأت تستعيد اعتزازها بنفسها. إن الجنود المصريين على القناة،والجنود السوريين في الجولان، والذين كانوا يرون العلم الأجنبي يرفرف على أرض بلادهم ، يحسّون الآن بأنهم قادرون على أن يرفعوا علمهم الوطني على هذه الأرض . وهم لا يعرفون كم سيدوم الصراع، ولكنهم واثقون الآن بأنه أمر ممكن . أما الجماهير العربية، فقد بدأت منذ الآن تشعر بأن زمن العار قد ولّى . ان ابناءهم ، هؤلاء الفلاحون المصريون والسوريون والفلسطينيون ، يقاومون سيل القذائف ، ويقفزون بالمظلات وراء خطوط العدو، ويستخدمون طائرات ودبابات حديثة. وهذا الشعور يمنحهم ثقة مثمرة بالنفس » [٢] .

ولقد أشار الجنرال بوي الى الحقيقة نفسها عندما قال : « حصيلة اسبوع من الحرب تتلخص في جملة: ان مصر وسورية تخلصتا من عقدهما . انها النتيجة الأولى في هذه الحرب » [٣] .

وتقلق هذه الثقة العدو الاسرائيلي الى حد بعيد ، فهو يعرف إنها قوة دافعة قادرة على تفجير كثير من الطاقات العربية الكامنة التي كانت مصابة بالشلل ، وعرقلة المخططات الاسرائيلية المبنية أساساً على إركاع العرب ،

(١) المحرر ، ١٩٧٣/١٠/١٤ .
(٢) لوموند ، ١٩٧٣/١٠/١٠ .
(٣) النهار ، ١٩٧٣/١٠/١٦ .

وإفقادهم ثقتهم بأنفسهم ، وإجبارهم على قبول « السلم اليهودي » . ويعبّر وزير خارجية اسرائيل ابا ايبان عن هذا القلق بقوله:« الشيء الهام هو مدى تأثير هذه الحرب على العرب من الناحية النفسية ... إن أكبر عائق في وجه السلام هو ثقة العرب بالنفس » [١] .

٦ — ومن النتائج المعنوية داخل المعسكر العربي انتصار الكلمة العلمية المبنية على أسس واقعية ومنطقية ، على الكلمة النابعة من متاهات الخيال والتصورات الذاتية ، وارتفاع مستوى دقة البيانات العسكرية ، ومستوى الموضوعية في التصرفات والخطب والتوجيهات اعتماداً على الثقة بالنفس، والثقة بقدرة الكلمة الهادئة الصحيحة على التأثير أكثر من الكلمة الجوفاء . ولقد أدى هذا الأسلوب الجديد في استخدام الكلمة الى **استعادة العرب لمصداقيتهم حتى عند أعدائهم** ، وعودة الانسان العربي الى البحث عن الخبر الصحيح في أجهزة الإعلام العربية ، بعد أن كان يبحث عن هذا الخبر في مصادر الإعلام الأخرى ، بما في ذلك اذاعة العدو الاسرائيلي .

ويذكر ميشيل بينيون مراسل اللندن تايمز من عمان أن سكان العاصمة الاردنية يرون « أن الفرق بين الآن والعام ١٩٦٧ يكمن في أن العرب الآن يصدقون ما يسمعون من اذاعاتهم » [٢] . ثم يصف ما تقوله الاذاعات العربية بقوله : « ان اللهجة أقل حدة ، والتفصيلات أشد دقة ، والأهداف أكثر اعتدالاً ، والدعاية أكثر حذقاً » [٣] .

ولقد أشاد ديفيد ويلي مراسل الاذاعة البريطانية في القاهرة ، في رسالة أذاعها راديو لندن مساء ١٩٧٣/١٠/١٥، بالتزام البيانات المصرية بإعطاء صورة دقيقة لمجريات الأمور. كما أشاد بوسائل الإعلام المصرية والتزامها بالدقة في ذكر

(١) المحرر ، ١٩٧٣/١٠/١٥ .
(٢) لندن تايمز ، ١٩٧٣/١٠/١٣ .
(٣) المرجع السابق .

الحقائق بناء على أوامر من الرئيس أنور السادات [1] . ويكرر بول بالتا في صحيفة **لوموند** الحقيقة نفسها عندما يقول عن الاذاعات العربية : « لقد حل الحذر والاعتدال والدقة، في أغلب الأحيان، محل الشتائم والحماسة والتبجحات التي سادت خلال حرب الستة أيام » ... « ان المعلومات الآتية من مصدر عربي تهمل عادة . ولقد استقبلت في الأيام الأولى بحذر وشك . ثم **اكتسبت المصداقية بالتدريج** . وتذكر المعلومات الآتية من مصادر اسرائيلية أحياناً، ولكن ذلك يتم لإظهار التناقضات القائمة بين مختلف البيانات العسكرية الآتية من تل أبيب ، والتناقضات بين هذه البيانات والوضع العسكري على الأرض » [2] .

وتعكس هذه الحقائق كلها وضعاً جديداً ، يتمثل في أن ثقة العرب بأنفسهم ، وايمانهم بالعلم ، ورغبتهم في تعلم الدروس من نكسات الماضي ، كانت كلها وراء الاعلام الموضوعي الذي أعطاهم مزيداً من القوة المعنوية والثقة بالنصر .

انعكاس الحرب على عرب الارض المحتلة

تمثل الحالة النفسية لعرب الأرض المحتلة « بارومترا » صادقاً وحساساً لحجم ارتفاع الحالة النفسية أو هبوطها داخل المعسكر الصهيوني ، وتأتي دقة هذا « البارومتر » من كونه مغروساً في جسم العدو ، يحتك بالانسان عن كثب ، ويرى آثار الانفعالات النفسية على حقيقتها دون زيف أو تصنع .

ولقد كان هذا « البارومتر » يتأثر في الماضي بما تقوله أجهزة الدعاية العربية ، ولذا كانت حركته قبل حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ معرَّضة للخطأ . وكان ارتفاع معنويات عرب الأرض المحتلة أو انخفاضها لا يرتبطان بالحقائق الموضوعية لما يجري في اسرائيل فحسب، بل يرتبطان أيضاً بالرغبات

(١) ذكرتها الحياة ، ١٩٧٣/١٠/١٦ .
(٢) لوموند ، ١٩٧٣/١٠/١٩ .

الذاتية ، والأمل بتحوّل هذه الرغبات الى حقائق يرسمها الاعلام الاذاعي العربي . بيد أن نتائج حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وتناقضها الكامل المأساوي مع الخط الاعلامي العربي ، علّمت عرب الأرض المحتلة أن يفتحوا عيونهم أكثر من آذانهم . وأعاد « للبارومتر » الكثير من دقته المفقودة . لذا كان بوسع المراقبين تحديد تأثيرات حرب الاستنزاف والعمل الفدائي على المجتمع الاسرائيلي من مراقبة مستوى معنويات عرب الأرض المحتلة ، ومدى مشاركتهم النضالية ضد الاحتلال [1] . وكانت المعنويات والمشاركة تسيران على منحنى يعاكس مسار منحنى حركة معنويات الاسرائيليين ، ويتطابق الى حد كبير مع مسار منحنى تصاعد حرب الاستنزاف وعمليات الثورة الفلسطينية . ولقد وصلت الحالة المعنوية لسكان الأرض المحتلة الى درجة منخفضة بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة ، ثم أخذت تتصاعد مع تصاعد المد الثوري الفلسطيني ، وتصاعد معها نضال الداخل بوتيرة متسارعة ، ووصلت المعنويات (والنضال بالتالي) الى القمة في أواخر العام ١٩٦٩ والنصف الأول من العام ١٩٧٠ ، عندما خلقت ضربات الثورة الفلسطينية المترافقة مع حرب الاستنزاف حالة أمنية مزعجة لقوات الاحتلال . ثم بدأ المنحنى بالنزول بعد توقف اطلاق النار على قناة السويس ، ليصل بعد هجمة النظام الاردني على قوى الثورة في ايلول (سبتمبر) الى درجة متدنية نسبياً ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى الصعود عندما استعادت الثورة الفلسطينية نشاطها ، وجمعت قواها ، وعادت الى شن الهجمات التي تسمح بها إمكاناتها وظروف عملها الجديدة بعد خسارة قواعد انطلاقها في الاردن .

واذا كان العرب في الأرض المحتلة قد تعلّموا بعد حرب ١٩٦٧ أن يغلقوا آذانهم ويفتحوا عيونهم ، فقد تعلّموا بعد ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ أن يكونوا أكثر شكاً ، وأن يفتحوا عيونهم أكثر ، ويغلقوا آذانهم أكثر .

(١) المقصود بالمشاركة هنا كل أنواع النضال .. بدءاً من التظاهر والاضراب والتوقف عن العمل في المشاريع الاقتصادية الاسرائيلية ، وانتهاء بالكفاح المسلح السري .

وعندما اندلعت حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ساد في الأرض المحتلة جو من التساؤل : الى أين ؟ وكان الشك العنصر السائد في الأيام الأولى ، وكانت القلوب المفعمة بالحقد على المحتلين تخفق خوفاً على العرب من نكسة جديدة ، ونازحين جدد ، وخيام ممزقة أخرى تنصب في العراء . ولكن أنباء الانتصارات العربية على الجبهتين الشمالية والجنوبية لم تلبث أن جاءت لتحيي الأمل في النفوس . ولم تكن الانتصارات هذه المرة اذاعية ، ولم يسمعها عرب الأرض المحتلة فحسب ، بل رأوها مرسومة على وجوه الاسرائيليين الكئيبة ، وتصرفاتهم العصبية ، ومستشفياتهم المليئة بالجرحى ، وعربات قطاراتهم المغلقة المليئة بجثث القتلى ، ومحاولات ممثلي سلطات الاحتلال المدنية والعسكرية للتقرب من الانسان العربي وكسب ودّه .

وأدت هذه الرؤية الجديدة الى خلق مد معنوي جديد ، فتصاعد النضال بكل أشكاله . وعادت الخلايا السرية المسلحة الى ممارسة نشاطها القتالي الذي تمثل بإلقاء القنابل على دوريات العدو وآلياته المنعزلة ، ونصب الكمائن لدورياته ، وقطع طرق مواصلاته ، وتفجير الحشوات الناسفة في منشآته الحيوية [1] . ولم يقتصر النضال على الكفاح المسلح وحده ، بل أخذ أشكالاً متعددة أخرى كتوزيع المنشورات ، ومقاطعة البضائع الاسرائيلية ، والامتناع عن العمل في مؤسسات العدو الاقتصادية ، ورفض التعامل بالعملة الاسرائيلية ، وإخفاء رجال المقاومة السرية وتسهيل هربهم ... الخ ..

ولقد ذكرت صحيفة « الشعب » التي تصدر في الأرض المحتلة ، في عدد ٨ تشرين الأول (اكتوبر) نقلا عن صحيفة « معاريف » ، أن سكان القدس والضفة الغربية رفضوا التعامل بالليرة الاسرائيلية وأصروا على التعامل بالدينار

---

(١) بلغ عدد العمليات العسكرية التي جرت داخل الأرض المحتلة (غير عمليات القشرة وعمليات الجولان وعمليات القصف) في فترة الحرب من ٦ – ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) أكثر من ٨٣ عملية، قابلها في فترة زمنية مماثلة سابقة (من ١٤/٩ الى ٥/١٠/٧٣) ١٩ عملية فقط (راجع جداول عمليات الثورة ، « شؤون فلسطينية » ، عدد تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ .

الأردني . وأن العمال العرب توقفوا عن العمل في مصانع العدو ومشاريعه ، وأن مدن الأرض المحتلة شهدت موجة من المنشورات التي تدعو الجماهير الى عدم العمل مع العدو . وأنه قد وزّعت في غزة منشورات تعلن تشكيل لجنة سرية للنظر في أمر المتعاونين مع العدو ، وإعدام الخطرين منهم [1] . ولقد أكد كل هذا تقرير بعث به مراسل رويتر من القدس المحتلة في ١٨/١٠/١٩٧٣ ، وأكد فيه أن التجار يرفضون التعامل بالليرة الاسرائيلية ، وأن سعر الدينار الأردني ارتفع من ١٤ الى ٢٠ ليرة اسرائيلية [2] .

ومع تراخي قبضة العدو الصهيوني عن المناطق المحتلة ، وانشغال كلتا يديه بصدّ الضربات المنهالة عليه في الجبهتين الشمالية والجنوبية ، بدأ عرب الأرض المحتلة يعبّرون عن مشاعرهم بشكل مكشوف ، ويعقدون حلقات الرقص في ساحات القرى والمدن ، ويتبادلون التهاني علناً في كل مكان .

ويذكر جان كلود غيلبود مراسل صحيفة « لوموند » نقلاً عن شخصية سياسية فلسطينية معروفة : « لا شيء سيبقى كما كان . لقد نسي العرب ذاتهم واستعادوا كرامتهم . وحتى لو انتصرت اسرائيل غداً في جميع الجبهات العسكرية ، فإن ما حدث هو بذاته انتصار كبير لنا » [3] .

وينسب الصحفي الفرنسي الى طبيب فلسطيني شاب قوله : « لقد تهدمت أسطورتان . الأولى أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر . وهذا التهديم مهم جداً بالنسبة الينا ... والثانية هي العقدة العسكرية العربية » [4] .

ثم ينقل رأي فلسطيني آخر من أبناء الشعب يقول فيه : « ما يهم ؟ حتى لو كلفت (الحرب) ضحايا كثيرة بالأرواح ، إذ ماذا يعني ذلك بالنسبة الى أشخاص بلا مستقبل ولا أمل ... ثم أن خسارتنا ستزداد ما دامت اسرائيل

---

(١) عن صحيفة الشعب ٨/١٠/١٩٧٣ نقلتها مجلة فلسطين الثورة ١٦/١٠/١٩٧٣ .
(٢) الرأي العام الكويتية ، ١٨/١٠/١٩٧٣ .
(٣) لوموند ، ١٣/١٠/١٩٧٣ .
(٤) المرجع السابق .

في غطرستها »(١) . ويصف الوسط العربي في الضفة الغربية بأنـه « متفائل بصورة عامة » .

وفي ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) نقل مندوب وكالة « رويتر » من الأرض المحتلة أن مدرّساً عربياً في القطاع الشرقي من القدس قال له: «لقد كان العرب بحاجة لهذه الحرب لإستعادة الثقة بأنفسهم . لقد أصبحنا نشعر بالحياة لأول مرة منذ عدة سنوات » ... « جاءت هذه الحرب كصدمة لنـا ، ولكنها تحمل لنـا الأمل »(٢) . وكان الوضع في قطاع غزة مماثلا لذلك ، إذ أعلن السكان العصيان المدني منذ بداية الحرب . وكان الوضع قـد توتر في المدينة قبل اندلاع الحرب بيومين (في الرابع من شهر تشرين الأول) عندمـا قتل الفدائيون الفلسطينيون معاون مدير الشرطة وطوقت سلطات الاحتلال المدينة لعزلها عن مختلف مدن القطاع .

ولقد عددت « معاريف » عناصر التغيير التي طرأت على اتجاهات سكان الضفة الغربية خلال الحرب وبعدها بمـا يلي : ١ – هبوط أسهم الزعماء التقليديين من مؤيدي الملك حسين . ٢ – ارتفـاع صوت مؤيدي المنظمات الفدائية . ٣ – تزايد المعارضة لعودة الحكم الاردني . ٤ – تصلب موقف السكان الذين لم يعودوا متواضعين بمطالبهم الاقليمية (٣) .

وينقل يهودا ليطاني صورة حيـة لوضع المواطنين العرب النفسي فيقول : « ان من يحادث مواطنين في الضفة الغربية يلاحظ ان الحديث يدور الآن على أساس الند للند . ويردد مواطنون كثر : لقد حققت الحرب لنا ما لم يحققه الكلام طوال ستة أعوام ونصف العام » ... « وفي فترة المد الوطني الحالية يعمل كثير من المواطنين في الضفة الغربية والقدس الشرقية للتخلص من علاقاتهم السابقة بالاسرائيليين » . ثم يشير الى أن المواطنين يرفضون التسليم « بالوضع

(١) المرجع السابق .
(٢) الرأي العام الكويتية ، ١٨/١٠/٧٣ .
(٣) معاريف ، ٢٣/١١/٧٣ .

القائم » كما كان الحال من قبل و « لن يتعاونوا مع الحكم العسكري مهما كان ليبرالياً إلا اذا فرض عليهم ذلك بالقوة » ... « وقد اختفت اللامبالاة التي اتسم بهـا معظم السكان حتى الحرب الأخيرة . وهم يشعرون الآن بأنهم جزء من الخريطة السياسية ، بل جزء مهم ومقرر فيها .. »(١) .

وينطبق قول يهودا ليطـاني بصورة أوضح على الوضع النفسي الذي ساد غزة المستنفرة مسبقاً ضد العدو الصهيوني . ويمكن اعتبار هذا الوضع النفسي الذي شمل الضفة والقطاع تجسيداً حقيقياً لتصفية الآثار النفسية لحرب ١٩٦٧. ولقد كان ولا شك وراء تصاعد العمليات الفدائية داخل الأرض المحتلة، وتزايد عددها وجرأتها بعد توقف القتال وبدء فصل القوات .

انعكاس الحرب على معنويات الاسرائيليين

هزت الحرب الرابعة المجتمع الاسرائيلي من أساسه . ولقد وصفها مناحيم بيغن بأنها « كارثة قومية »، واعتبرها اريك شارون «أقسى حرب واجهتها» الدولة الصهيونية منذ تأسيسها . ومهما كانت النتائج المادية التي حققتها هـذه الحرب كبيرة ، فـإن نتائجها المعنوية اتسمت بخطورة آثارها وعمق الشرخ الذي خلفته في نفسية الانسان الاسرائيلي . ولقد زاد من أهمية هذه النتائج المعنوية داخل مجتمع العدو ، كون الاسرائيليين – كما ذكرنا من قبل – عبارة عن أناس سريعي التبدل ، انفعاليين متقلبين على صعيد العواطف الجمـاعية . وإذا كان الانتصار في معركة تكتيكية محدودة يرفع معنويات جيش العدو وشعبه الى درجـة لا تتناسب مع حجم الانتصار وظروفه ، أو مع الثمن السياسي – العسكري المدفوع لتحقيقه،فإن آثار أية هزيمة عسكرية محدودة، تنتقل بسرعة من مجالها التكتيكي الى العمق الاستراتيجي ، وتأخـذ في كثير من الحالات بعداً يشمل الأرض المحتلة كلها، وتؤثر على التوازن النفسي الفردي

(١) هآرتس ، ٧/١٢/٧٣ .

والجماعي بين صفوف المدنيين والعسكريين على حـد سواء . ويمكن تلخيص النتائج المعنوية للحرب الرابعة داخل المجتمع الاسرائيلي بما يلي :

١ – فقدان التوازن النفسي :

وقد ظهر هذا الخلل منذ الأيام الأولى للحرب . ولم يكن ناجماً عن أن الاسرائيليين علموا آنذاك بحجم الضربة العربية ، وضخامة الخسائر، وفداحة الهزة التي تعرّضت لها نظرية الأمن الاسرائيلية، ومدى الخطر الذي يمكن أن يقع اذا استمر القتال بعد أن تناقص مخزون الذخائر والمحروقات وقطع الغيار وأجهزة القتال المعقدة (إذ لم تكن هذه المعلومات قد كُشفت بعد) ، ولكنه نجم عن مجرد عجز القوات المسلحة الاسرائيلية عن صـد الهجمات العربية ودحرها ، والانتقال بعد « الصد » الى « الرد » بحرب حركة تحتل خلال أيام معدودات هذه العاصمة العربية أو تلك. ولقد ظهر فقدان التوازن النفسي على شكل انتظـار قلق متذمر لا ينبع من تصور حجم « المأساة » ولكنه ينبع من التأخر في رفع الستار عن « الملهاة » .

وكان من الطبيعي أن يتصرف الاسرائيليون بهذا الشكل ، فقـد غسلت الدعاية الرسمية أدمغتهم طوال ٢٥ عاماً ، وقلبت عقدة النقص التاريخية الكامنـة في أعماقهم الى عقدة « السوبرمان » ، وأقنعتهم بأنهم من طينة غير طينة البشر، وأنهم قادرون على التصرف في المنطقة كسادة حقيقيين، وتجاهل الرأي العـام العالمي والقوانين الدولية ، وخلق حقائق جديدة يفرضونهـا ويتمسكون بهـا طالما أنها تحمي مكاسبهم وتثبت أقدامهم على كل أرض يحتلونها .

بيد أن إحساس الاسرائيلي بالتفوق لم يجرّده نهائياً من حساسيته المفرطة أزاء الهزيمة التي لا يمكن أن تكون إلا كخطيئة اللغّامين «وحيدة ونهائية» . ويذكر يعقوب تلمون استاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية : « لقد كررنا على مسامعنا الحقيقية المريعة لنـا ، وهي أن خسارة معركة واحدة تعني ،

في وضعنا الخاص ، الدمار العام » (١) . ولقـد تضافرت الدعاية المضللة ، وانتصارات الحروب السابقة ، والإحساس المطلق بالتفوق « الحضـاري ! » على شعوب المنطقـة ، والحساسية المفرطة أزاء الهزيمة ، على جعل المجتمع الاسرائيلي عاجزاً عن فهم الهزيمة ، واستيعابها ، واحتواء سلبياتها الى أبعد حد ممكن ، بغية الافادة من دروسها في أي صدام مقبل . الأمر الذي جعل الهزّة المعنوية الناجمة من حرب ١٩٧٣ أكبر من أبعاد هذه الحرب الحقيقية .

ولسنا نريد هنا بالطبع الإقلال من أهمية أبعاد حرب ١٩٧٣ أو إلقـاء الظلال على الحقائق الكبيرة التي خلقتها على الصعيدين المحلي والعالمي ، ولكننا نود الاشارة فقط الى أن هـذه الأبعاد وتلك الحقائق ، لا تتناسب مع عمق الشرخ المعنوي الناجم عن الهزة .

لقد اعتاد الاسرائيليون طويلاً على أن يلعبوا دور « المطرقة» ، لذا تعذر عليهم احتمال الضربات عندما جـاء دورهم ليصبحوا « سنداناً » ، رغم أن الضربات ، على شدتهـا ، لم تكن بالشدة المطلوبة . ويذكر الدكتور حاييم غولدمان رئيس المنظمة الصهيونية سابقاً ، ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي : « ان التشاؤم والكآبة والقلق التي تسود الآن معظم الاسرائيليين ويهود العالم على السواء، جاءت نتيجة تحطم نماذج ومفاهيم وأوهام كثيرة، عاشها معظمنا، ونمت وتدعمت بواسطة سلسلة من الانتصارات المذهلة خلال بضع سنوات » . ويعدد غولدمان هذه الأوهام بقوله : « الوهم الخاص بتفوق اسرائيل المستمر على العرب ، الذي – بحسب عدد كبير من الخبراء المزعومين – سيزداد بمرور الوقت » ، « الوهم بأن الوحدة العربية .. مستحيلة في المستقبل المنظور » ، « الوهم بأننا نتمتع بعطف معظم شعوب العالم »، « الوهم بأننا سنحظى بدعم الولايات المتحدة الكامل لكل ما نعمله » (٢) . ثم أشار غولدمان الى أنـه كما كانت هناك مبالغة في تقدير قوة اسرائيل والشعب اليهودي ، فإن هناك الآن

(١) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
(٢) هآرتس ، ١٩٧٤/١/١١ .

مبالغة في الاتجاه المعاكس . وأن « الوهن الحالي » اذا استمر وقتاً طويلا جداً ، قد يؤدي الى أعمال يائسة تنطوي على كارثة »[1] .

٢ – خاض الاسرائيليون في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ حربهم الرابعة، ثم توقف القتال قبل أن تحسم المعركة عسكرياً ، وإذا بهم يكتشفون أنهم عادوا الى نقطة البدء وأن عليهم أو على أولادهم أن يخوضوا حرباً خامسة وسادسة .. « الى متى ؟ » . هذا هو السؤال الذي يطرحه الاسرائيليون على أنفسهم . لقد قالوا لهم بعد حرب ١٩٦٧ « انها الحرب التي ستكون آخر الحروب » ولكنها لم تكن كذلك ، ولا يتوقع أن تكون حرب ١٩٧٣ آخر الحروب أيضاً .

ومن المؤكد أن معظم من خاضوا حرب ١٩٧٣ لم يخوضوا حربي ١٩٤٨ و ١٩٥٧ ، وقسم كبير منهم كان في المدرسة عندما اندلعت حرب ١٩٦٧ ، لذا كانت حرب ١٩٧٣ حربهم الأولى عملياً ، ولكنها كانت حربهم الرابعة معنوياً ، لأنهم يعرفون تمام المعرفة ان الدولة بنيت على الحرب، وعاشت بها، ولا بقاء لها بدونها . وكونهم لم يخوضوا الحروب السابقة لا يعني أنهم لا يفكرون بها ، فهي تمثل لهم حروباً أخرى في المستقبل سيضطرون لخوضها أو دفع أبنائهم الى أتونها .

وينتقد اهرون غيفع أنصار حسم النزاع عن طريق القوة ويقول : ان مظاهرات القوة لم تعط مع العرب أكلها : « لم تكن هناك مظاهرة قوة أكبر من حرب الأيام الستة.. وماذا كانت النتيجة ؟ الرضوخ للغة القوة ؟ لقد أعدَّ السادات حرباً جديدة »[2] . ويذكر مراسل الفيغارو على لسان أحد أساتذة جامعة تل ابيب : « انني أعلق كل آمالي على محادثات جنيف . لقد قتل ابني في الجولان ، ولا أود أن يقتل أخوه أيضاً »[3] .

(١) المرجع السابق .
(٢) دافار ، ١٩٧٣/١٢/١٠ .
(٣) فيغارو ، ١٩٧٣/١٢/٢٢ .

حروب ، حروب ، حروب ... والنتيجة صفر . لا يمكن اخضاع أكثر من مائة مليون عربي ، كما لا يمكن احتلال الأرض العربية كلها ، ومن يقول بغير ذلك بحاجة لمكان في مصح الأمراض العقلية . هذا هو ما يفكر به الاسرائيليون بعد حرب تشرين الأول (اكتوبر) « اننا نلاحظ لدى من قاتلوا أكبر قسط من التشويش ، لقد رأوا اخوتهم يسقطون . وهم مستعدون للثأر لهم . ولكنهم تعبون من الحرب ، ومن تحطيم العربي باستمرار دون أن يوجد أي حل دائم»[1] . والذي يزيد تعقيد الأمور أمام الانسان الاسرائيلي هو انه يجابه معضلة لا حل لها (Dilemme) وتتمثل هذه المعضلة، كما يقول دانييل بلوخ، في شعوره **«بأنه لا يمكن احراز السلام مع الاحتفاظ بالمناطق (المحتلة) كلها ، كما لا يمكن احراز الامن بالتنازل عن كل المناطق[2]»** .

ان أخطر النتائج المعنوية داخل معسكر العدو هي القناعة بأن حسم الصراع مع العرب عن طريق الحرب أمر مستحيل . فمن هذه النتيجة يبدأ الانهيار . هنا تكمن المعضلة. لأن الهزيمة الاستراتيجية تبدأ عندما يعتقد أحد الطرفين أن لا فائدة ترجى من استمرار النزاع حتى لو تحقق النصر مؤقتاً . وتزداد خطورة هذه النتيجة اذا كان الوضع الجديد لا يسمح حتى بهذا النصر المؤقت . ويصف حاييم هرتزوغ الوضع الجديد الذي نجم عن الحرب الرابعة بأنه « صعب وغير مريح » . انه كما يقول هرتزوغ « واقع عزلة سياسية دولية ، وضعف مخيف في الغرب ، واستعداد للخضوع أمام التهديد الروسي والابتزاز العربي ، واقع الاعتماد الكبير على الولايات المتحدة وتقليص مجال مناوراتنا السياسية . واقع نجد فيه أنفسنا فجأة في منطقة قررت الدولتان الكبيرتان تولي أمورها بنفسيهما ، من خلال تقليص كبير للامكانات الممنوحة للجهات المحلية[3] » .

(١) فيغارو ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
(٢) دافار ، ١٩٧٣/١١/١٤ .
(٣) هآرتس ، ١٩٧٣/١١/١٣ .

في هذا الوضع يصعب انتزاع أي نوع من النصر العسكري المؤقت، وحتى في حالة انتزاعه فماذا تكون النتيجة الاستراتيجية؟ ان فشل الفكرة السياسية يبتلع أي نصر عسكري . وآمنون روبنشتاين يعي ذلك بجلاء ، فهو ينتقد عبثية متابعة بذل الجهود لاحراز نصر عسكري على العرب ويقول : «خرجت اسرائيل من جميع الحروب التي نشبت الى الآن منتصرة ، ولكن نظراً الى أن من طبيعة الأشياء ألاّ تستطيع اسرائيل اخضاع الدول العربية ، ونظراً الى ان الكراهية لاسرائيل تتغذى ، بين أشياء أخرى ، من التفوق الاسرائيلي ، تولدت حلقة مفرغة من الحروب المتكررة بحيث ان كل حرب تكون أكبر وأشد من سابقتها . » ... « خلافاً لجوهرنا ونظامنا الاجتماعي فقد أصبحنا روديسيا جديدة ، بفارق واحد هو انه لا يوجد تهديد عسكري ملموس لروديسيا . ويخشى الكثيرون من أن يؤدي استمرار الحرب الى الأبد ، بين اسرائيل والعرب الى تورط متزايد للدول غير العربية ، وإلى أن نقع فريسة لديماغوجية من قبل العالم بأسره[1] » .

وإذا كان آمنون روبنشتاين لا يقدم الحل للمسألة ، فإن الدكتور ناحوم غولدمان يطرح المسألة والحل كما يراه ، فهو يقول « انه لا مستقبل لدولة يهودية في الشرق الأوسط ، دون تفاهم كامل مع العالم العربي . وقد أثبتت أحداث السنوات الأخيرة ، خصوصاً حرب يوم الغفران ، هذه المقولة . فقد انتصرت اسرائيل في ثلاث حروب، وانتصرت تقريباً في الرابعة ، ومع ذلك لم يتم احراز أي تقدم نحو السلام . هذا الأمر كان يجب أن يقنع أكثر الناس تشككاً ، بأنه لا أمل في إجبار العرب على التسليم بكيان اسرائيل بالانتصارات العسكرية فقط . والاستنتاج الوحيد من هذا الوضع هو انه لا بد من بذل محاولة جادة للتوصل الى التفاهم معهم بالوسائل السياسية والنفسية[2] » .

(١) هآرتس، ١٦/١١/١٩٧٣ .

(٢) هآرتس ، ١٤/١/١٩٧٤ .

٣ – أعادت حرب تشرين الأول (اكتوبر) الى بساط البحث مقولة « خطر الإبادة » بعد أن دفعت حرب ١٩٦٧ هذه المقولة الى الصفوف الخلفية من اهتمامات الانسان الاسرائيلي . ولقد خلقت الحرب ، وخاصة في أيامها الأولى ، إحساساً عاماً بالخطر يشبه الاحساس الذي عرفته الدولة الصهيونية في أيامها الأولى . لذا يتساءل كل اسرائيلي : « اذن ماذا فعلنا طوال هذه السنوات ، وأين المنجزات الأمنية ؟ » . لقد صرّحت رئيسة الوزراء غولدا مائير أنها شعرت في اليومين الأولين للحرب **ان تعرّض اسرائيل للهزيمة أمر ممكن**، وفي ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ تحدث دايان في جلسة الكنيست شارحاً الموقف العسكري بقوله : « والواقع انه قبل اسبوع (أي قبيل وقف القتال) لم تكن لدينا ذخيرة ، ولا يمكن أن نخوض الحرب من دون ذخائر » . وعندما سئل رئيس الأركان السابق بيغال يادين « هل تشعر بأننا نجونا بأعجوبة ؟ » أجاب «لقد نجونا بصورة دراماتيكية» . وفي ١٣/١٠/٧٣ نشرت **لوموند** تحليلاً لأوضاع الحرب تحت عنوان مثير « ان وجود الدولة اليهودية ، كما يرى سفير اسرائيل في باريس ، مطروح على بساط البحث » .

وإذا كان «خطر الابادة» بمعناه الجماعي غير وارد في مخيلة العرب أنفسهم، وغير ممكن أصلاً في معطيات العصر الحاضر ، فإن خطر انهيار بنيان الكيان الصهيوني الاستعماري ، وتدمير الهياكل الأساسية لبنية رأس الجسر الامبريالي، بغية بناء دولة فلسطين الديموقراطية ، غدا أمراً وارداً ، بل ومعقولاً في نظر الكثيرين داخل اسرائيل وخارجها . ولكن حتى في حالة استبعاد تحقيق الإبادة بمعنييها المذكورين ، فإن حرب تشرين الأول (اكتوبر) خلقت لدى المواطن الاسرائيلي احساساً بأنه معرض شخصياً للإبادة ، وأن الحروب مع العرب لم تعد حروباً « دولوكس » كما يسميها ايتان هيفر المراسل العسكري لصحيفة **يديعوت احرونوت** ، ولم تعد عبارة عن « تعبئة ، ثم قتال لبضعة أيام ، فانتصار، وعودة الى المنزل ، الى الأب والأم والزوجة والأولاد والأعمال[1] » . ولكنها غدت حرباً طويلة الى حد ما، قد يدفع فيها الجندي

(١) **يديعوت احرونوت** ، ٧/١٢/١٩٧٣ .

الاسرائيلي دمه ، وقد يعود الى بيته مشوهاً ، وقد لا يعود أبداً . ويعبّر هو ناثان غيفن ابن شقيقة موشى دايان ، وأحد مؤلفي كتاب التقصير (هامحدال) السبعة ، عن هذا الخوف من خطر الابادة الفردية، حتى ولو كان خطر الابادة الجماعية ، ابادة الدولة غير مطروح . فيقول : « سيدي الوزير – القائد – الموهوب – رئيس الأركان – الجنرال – المحدال – الرئيس – المحترم – والوطني ! أنا ابن ست وعشرين ، ولي ولدان ، وليس عندي بيت . الامن والسلام شيئان رائعان أكيداً ، لكن حياتي أهم بالنسبة اليّ من كلامكم . لست غبياً ، وعندما اقاتل اريد أن أعرف بالضبط من أجل ماذا اقاتل . أمن أجل السلام ، فعندها أي سلام بالضبط ؟ سلام أبيض – أسود ؟ سلام ملوّن ؟ سلام مرصّع ؟ سلام الثلاثة أشهر؟ سلام حتى يجند ابني لاجل الجيش ويحارب من أجل السلام نفسه بالذات ؟ لأن سلامي وأمني هما أن اعيش أكثر قدر ممكن ، وألا أموت ، وألا افقد اذناً في معركة ما » (١) . ثم يذكر في مكان آخر من الفصل نفسه « انتهى القصف ، وأنا أتلمّس كل عضو في بدني ، سعيد اني بقيت على قيد الحياة، وأقسم انني سأهرب من هنا، سأهرب بعيداً، سأهرب حتى البحر، وأقول : لا أريد أن أسقط بين كراسيكم . أنا خائف . أنا خائف . اريد أن أحيا . ما أجمل الحياة من أجل بلادنا !! » (٢) .

هكذا عاد «خطر الابادة» الفردية كعامل حقيقي بالنسبة الى الاسرائيليين، وهكذا تأكدت الفكرة القائلة « بأن اسرائيل التي انشئت في الأصل لجمع اليهود وانقاذهم من الخطر والبوغرومات غدت في نهاية المطاف بوغروماً كبيراً يتعرض فيه اليهود الى الخطر أكثر من أي مكان آخر في العالم .

٤ – اتساع الفجوة بين المواطن والسلطة :

بنيت الدولة الصهيونية على أرض فلسطين وفق شعار تيودور هرتزل « وطن بلا شعب لشعب بلا وطن » . وسارت الحكومات الاسرائيلية

(١) التقصير ، يشعياهو بن فورات وآخرون ، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٤٤ – ٣٤٥ .

المتعاقبة على هدي هذا الخط ، متبعة سياسة طرح السلام بعد تفريغه من محتواه ، واحتلال الأرض وتهجير أصحابها ، وخلق حقائق جديدة وفرضها على العالم بحجة رفض العرب لأي صلح مبني على مباحثات مباشرة بين الأطراف المعنية ، وبناء مجتمع ديناميكي متقدم متماسك تختفي فيه الصراعات الداخلية، وخلق قوة مسلحة قادرة على تحقيق التوسع وحمايته .

ولم تخرج حكومتا اشكول ومائير بعد حرب ١٩٦٧ عن هذا الخط . وسارتا على هدي تثبيت « الوضع الراهن » ، والافادة من كافة العوامل الملائمة لتأمين « الضم الزاحف » خارج الخط الأخضر ، مع التستر وراء متطلبات الأمن لتبرير كافة التقصيرات في مجال التطور الاجتماعي . ولقد حظيت هاتان الحكومتان بتأييد المواطنين الاسرائيليين أو صمتهم ، وكانت هالة انتصار ١٩٦٧ العسكري تعطيها سلطة وهيبة ، وتمنحها حرية عمل سياسية واسعة ، وقدرة كبيرة على تنفيذ مخططاتها التوسعية العدوانية .

ومع اندلاع الحرب اهتزت كل هذه القناعات ، واهتزت ثقة الانسان الاسرائيلي بجيشه وحكومته . فقد ثبت له ان الوضع الامني لم يكن سليماً كما يدّعون ، كما ان الجيش لم يبرهن عن قوته الاسطورية التي حدثه المسؤولون عنها صباح مساء . ولم تستطع الخطوط الدفاعية « المنيعة » منع دبابات السوريين والمصريين من الاندفاع عبر التحصينات ، وتدمير القوات المسلحة المتمركزة عليها أو أسرها . ولم تنجح سياسة « الضم الزاحف » واستغلال الوقت في تحطيم إرادة العرب وإركاعهم وإجبارهم على الجلوس الى طاولة المفاوضات، ولكنها استثارتهم على العكس ودفعتهم الى جولة عسكرية جديدة دفع الاسرائيليون ثمنها، وجولة بترولية أفقدت اسرائيل الكثير من مؤيديها وحلفائها.

لقد قال المسؤولون الاسرائيليون في كل مناسبة ان أميركا ستقف الى جانبهم بلا حدود ، فهي بحاجة لاسرائيل لحماية مصالحها في المنطقة . والعالم كله لا يهم، ولن تستطيع اوروبا الممزقة أخذ موقف موحد حاسم معاكس للموقف الأميركي ، أما الاتحاد السوفياتي فإن دوره سيبقى محدوداً ، وخاصة بعد خروج الخبراء السوفييت من مصر، وهو مضطر لمراعاة ظروف الوفاق الدولي

بسبب أوضاعه الاقتصادية الخاصة وحساسية وضعه في الشرق الأوسط . ولكن الأمر كان مخالفاً لذلك . ولم يصمد من التحليلات السياسية القديمة الرسمية وغير الرسمية سوى التحليل الخاص بالموقف الأميركي . وحتى هذا الموقف لم يكن وفق تصورات الاسرائيليين تماماً ، لأن السياسة الأميركية لا تتأثر بالضغط الصهيوني ومكانة كيسنجر وهزال موقف نيكسون فحسب ، ولكنها تتأثر أيضاً ، وقبل كل شيء ، بالمصالح الامبريالية الاميركية التي لا يمكن أن تتطابق على المدى البعيد مع مصالح اسرائيل المحجّمة والمقزّمة من جراء ضربة تشرين الأول (اكتوبر) .

هنا ظهر الشرخ بين السلطة والمواطن ، وانهارت الثقة كقصر من الورق . وبدأ الاسرائيليون توجيه الاتهامات للحكومة التي خدعتهم ، وللثلاثي « مائير – دايان – غاليلي » بصورة خاصة . وانصبّت اللعنات على « وثيقة غاليلي » المشؤومة . ففي ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) تحدث الطيار الاسرائيلي الأسير النقيب الاحتياطي محار يورام من تلفزيون دمشق ، ووصف قادته « بأنهم مجرمو حرب ، تسببوا في قتل العرب واليهود بآن واحد[1] » ، وقال دافيد جلعادي « ان المؤسسة كلها بكل أجزائها ، هي في الدرك الأسفل في نظر الجمهور[2] » . ونشرت صحيفة **هآرتس** مقالاً قالت فيه « ان الجمهور الاسرائيلي غارق في حيرة كبيرة في كل ما يتعلق بمواقفه تجاه الزعامة السياسية...لقد حدث حقاً تضاؤل في شعبية رئيسة الحكومة ووزير الدفاع، ولكن غالبية الجمهور عاجزة اليوم كلياً عن الإشارة الى الأشخاص الذين تعتمد عليهم لقيادة اسرائيل في هذه الفترة[3] » . وجاء في بيان منظمة « الفهود السود » الذي نقلته صحيفة **الاتحاد** « اننا نتهم حكومة اسرائيل بإهمال الامن لأجل أغراض سيطرتها علينا[4] » . ولقد خلص زئيف شيف، بعد الاحاديث

(١) **المحرر** ، ١٩٧٣/١٠/١٢ .
(٢) **معاريف**، ١٩٧٣/١١/١٦.
(٣) **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
(٤) **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١١/٢٧ .

التي تبادلها مع العديد من الجنود والقـادة السياسيين والعسكريين بعد وقف القتال ، الى ان هناك عدة نتائج محزنة أولاها : « أنه نشأ انفصام واضح بين غالبية القيادة السياسية والعسكرية ، وبين جماهير الشعب والجنود . فالذين في القمة لا يحسّون كما ينبغي بمشاعر الشعب . ولا أقصد بقولي الجبهة الداخلية المتأرجحة من النقيض الى النقيض فحسب ، بل أيضاً جمهرة الجنود النظاميين والاحتياطيين الذين في أذهانهم أسئلة لا حد لها ولا يجدون أجوبة عنها »[1] .

ولم يتجه النقد نحو تصرفات الحكومة وممارساتها وسياستها الأمنية فحسب، بل امتد أيضاً حتى شمل جذور السياسة العامة التي بنت عليها الحكومة سياستها الأمنية . ويذكر اريك رولو ان أشخاصاً مثل آريه ايلياف ، ويتسحاق بن اهارون ، ودافيد شاهام، وكلهم أعضاء في قيادة حزب العمل، يرون « ان فلسفة كاملة انهارت يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر) الماضي » .. « انه افلاس سياسة مبنية على وضع الحواجز على طريق السلام ، بغية كسب الوقت اللازم لضم الأراضي[2] » . ولقد هاجم الدكتور ناحوم غولدمان على صفحات **هآرتس** (من ١١ حتى ١٦ – ١ – ٧٤) سياسة الحكومة وجذورها وفلسفتها ، كما هاجمها عدد كبير من المفكرين البارزين في اسرائيل [3] .

ويمكننا هنا أن نذكر انتقادات البروفسور يشعيا هو ليبوفيتش ، استاذ العلوم وفلسفة العلوم في الجامعة العبرية بالقدس ، والذي قال : « بماذا أخطأنا طوال السنوات الست الأخيرة ؟ لم يكن الخطأ طوال هذه السنوات فحسب،

(١) **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٠ .
(٢) **لوموند** ، ١٩٧٤/٣/١١-١٠ .
(٣) من هؤلاء المفكرين اهارون كوهين ، أحـد المستشرقين البارزين (**عال همشمار** ٢٥ و ١٩٧٣/١١/٢٧) ، و ا. شفيتسر (**هآرتس** ٧٣/١٢/٢١) ، واليعاد بيليد المدير العام لوزارة المعارف والثقافة (**عال همشمار** ٧٣/١٢/٤) ، ودان طولكوفسكي القائد السابق لسلاح الطيران (**هآرتس** ٧٣/١٢/٤) ، والبروفسور ناتان روطنشترايخ الاستاذ في الجامعة العبرية (**معاريف** ٧٣/١١/٢١) .

بل كان طوال الخمس وعشرين سنة الأخيرة أيضاً، منذ توقيع اتفاقية رودس. كان الخط المرشد لسياستنا ولا يزال فكرة ان وضعاً دائماً من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة ، هو أحسن وضع بالنسبة إلينا، وينبغي المحافظة عليه بكل الطرق . ويضع هذا الوضع مشكلة الامن في مركز كل تفكير ، وكل نشاط سياسي واقتصادي واجتماعي وحتى ثقافي. ويؤدي الى استبعاد أكثر المشكلات صعوبة بالنسبة الى الوضع الداخلي (الفجوة بين الطوائف ومشكلة الدين والدولة ، ومشكلة التعليم) أمام مشكلة الأمن . ولهذا يؤيد الشعب كله أو أكثريته الساحقة على الأقل سلطة لا تحل أياً من هـذه المشكلات ، بل ولا تعالجها كما ينبغي ، لأنها مهتمة بشؤون الأمن . ولذا يلتف الشعب حول السلطة ويساعدها على البقاء الدائم . أما بالنسبة الى سياسة الخارجية والامن فاننا نقوي أنفسنا من عام الى آخر في وضع من الحرب الوشيكة . ومن الممكن في وضع كهذا أن تنشب حروب فعلية من فترة الى أخرى تكون عادة قصيرة ومضمونة مسبقاً لأن الفجوة بيننا وبين العرب آخذة في الازدياد . وبهذه الطريقة ننتقل من احتلال الى احتلال»... « لقد سادت هذه السياسة الاجرامية والشريرة طوال ٢٥ عاماً كما توقع باعثوها، حتى أدت بنا الى الأزمة التي نعيشها الآن ، بعد أن دحضت جميع افتراضات تلك السياسة .. اننا لم نسع للسلام طوال ٢٥ عاماً . وكل التصريحات بشأن ذلك ليست إلا تصريحات متلوّنة وكذباً مقصوداً . وليس هناك بالطبع أي تأكيد على انه كان بامكاننا الوصول الى سلام مع العرب ، لو أردنا ذلك . ولكن علينا أن نقول بكل شدة اننا لم نكتف بعدم القيام بأية محاولة لذلك ، بل خرّبنا عن عمد وسابق إصرار كل مناسبة كان من الممكن أن تنطوي على امكانية لاحلال السلام[1] » .

هذه هي الفجوة المعنوية التي فتحتها الحرب ، واتسعت خلال الانتخابات ولا تزال تتسع يوماً بعد يوم ، وتنعكس على شكل مظاهرات ، وحملات ،

(١) هارتس ، الملحق ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .

وتهجمات ، وانتقادات ، ومناداة بإسقاط الحكومة التي تحدثت كثيراً عن النصر والأمن ، ثم قادت شعبها الى الهزيمة .

٥ – وكما ارتفعت دقة وعلمية الاعلام العربي كمظهر من مظاهر ارتفاع روح العرب المعنوية فقد انخفضت دقة أعلام العدو وعلميته كدليل على تدهور روحه المعنوية . ولقد ذكر موشيه زاك أحد معلقي (معاريف) السياسيين في مجلس الصحافة الاسرائيلية الذي عقد في تل ابيب في فترة ٤ – ٧٤/١/١٨ أن الارتباك الذي أصاب المجتمع الاسرائيلي خلال فترة الطوارىء هز الصحافة أيضاً . وأشار الى أن الصحافة مذنبة لأنها لم تكشف العيوب والتقصير في الجيش الاسرائيلي ، ولأنها خضعت دائماً لرأي الرقيب « الذي تحدث الينا باسم المعنويات »[1] .

ولم تصب الهزة الصحافة وحدها ، بل شملت كل أجهزة اعلام العدو الرسمية التي وقعت في تناقضات هائلة . وكان التخبط الاعلامي مماثلاً للتخبط العسكري على جبهات القتال في الأيام الأولى للحرب. فلقد تحدث هذا الاعلام عن سحق الهجمات العربية بسرعة ، ثم انتقل الى الحديث عن الحرب الشاقة المريرة الطويلة الأمد . ونقل أنباء تدمير الجسور المصرية على قناة السويس ، ثم عاد لينفي هذا النبأ جملة وتفصيلا . وقال انه على طريق دمشق ، وأن المدينة غدت شبه ساقطة ، ثم عاد لينقل أنباء المعارك الطاحنة في الجولان . وتوالت التبجحات والتراجعات بشكل ملفت للأنظار، ورافقتها حملة تضليلية مكشوفة استخدمت فيها تسجيلات صوتية لأسرى عام ١٩٦٧ ، مع الزعم بأنها لأسرى حرب تشرين الأول[2] ، وعممت على العالم أفلاماً تلفزيونية قديمة التقطت لبعض معارك ١٩٦٧ وادعت بأنها أفلام لمعارك ١٩٧٣ [3] ، ومع انكشاف التهويل والتبجح والأكاذيب ، فقدَ الاعلام الاسرائيلي مصداقيته داخل اسرائيل وخارجها ، وصار الاسرائيليون يتابعون الأخبار من اذاعتي

(١) معاريف ، ١٩٧٤/١/١٦ .
(٢) المحرر ، ١٩٧٣/١٠/١٨ .
(٣) الأنوار ، ١٩٧٣/١٠/٢٠ .

بل كان طوال الخمس وعشرين سنة الأخيرة أيضاً، منذ توقيع اتفاقية رودس. كان الخط المرشد لسياستنا ولا يزال فكرة ان وضعاً دائماً من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة ، هو أحسن وضع بالنسبة إلينا، وينبغي المحافظة عليه بكل الطرق . ويضع هذا الوضع مشكلة الامن في مركز كل تفكير ، وكل نشاط سياسي واقتصادي واجتماعي وحتى ثقافي. ويؤدي الى استبعاد أكثر المشكلات صعوبة بالنسبة الى الوضع الداخلي (الفجوة بين الطوائف ومشكلة الدين والدولة ، ومشكلة التعليم) أمام مشكلة الأمن . ولهذا يؤيد الشعب كله أو أكثريته الساحقة على الأقل سلطة لا تحل أياً من هـذه المشكلات ، بل ولا تعالجها كما ينبغي ، لأنها مهتمة بشؤون الأمن . ولذا يلتف الشعب حول السلطة ويساعدها على البقاء الدائم . أما بالنسبة الى سياسة الخارجية والامن فاننا نقوي أنفسنا من عام الى آخر في وضع من الحرب الوشيكة . ومن الممكن في وضع كهذا أن تنشب حروب فعلية من فترة الى أخرى تكون عادة قصيرة ومضمونة مسبقاً لأن الفجوة بيننا وبين العرب آخذة في الازدياد . وبهذه الطريقة ننتقل من احتلال الى احتلال»... « لقد سادت هذه السياسة الاجرامية والشريرة طوال ٢٥ عاماً كما توقع باعثوها، حتى أدت بنا الى الأزمة التي نعيشها الآن ، بعد أن دحضت جميع افتراضات تلك السياسة .. اننا لم نسع للسلام طوال ٢٥ عاماً . وكل التصريحات بشأن ذلك ليست إلا تصريحات متلوّنة وكذباً مقصوداً . وليس هناك بالطبع أي تأكيد على انه كان بامكاننا الوصول الى سلام مع العرب ، لو أردنا ذلك . ولكن علينا أن نقول بكل شدة اننا لم نكتف بعدم القيام بأية محاولة لذلك ، بل خرّبنا عن عمد وسابق إصرار كل مناسبة كان من الممكن أن تنطوي على امكانية لاحلال السلام[1] » .

هذه هي الفجوة المعنوية التي فتحتها الحرب ، واتسعت خلال الانتخابات ولا تزال تتسع يوماً بعد يوم ، وتنعكس على شكل مظاهرات ، وحملات ،

(١) هارتس ، الملحق ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .

وتهجمات ، وانتقادات ، ومناداة بإسقاط الحكومة التي تحدثت كثيراً عن النصر والأمن ، ثم قادت شعبها الى الهزيمة .

٥ — وكما ارتفعت دقة وعلمية الاعلام العربي كمظهر من مظاهر ارتفاع روح العرب المعنوية فقد انخفضت دقة أعلام العدو وعلميته كدليل على تدهور روحه المعنوية . ولقد ذكر موشيه زاك أحد معلقي (معاريف) السياسيين في مجلس الصحافة الاسرائيلية الذي عقد في تل ابيب في فترة ٤ – ٧٤/١/١٨ أن الارتباك الذي أصاب المجتمع الاسرائيلي خلال فترة الطوارىء هز الصحافة أيضاً . وأشار الى أن الصحافة مذنبة لأنها لم تكشف العيوب والتقصير في الجيش الاسرائيلي ، ولأنها خضعت دائماً لرأي الرقيب « الذي تحدث الينا باسم المعنويات »[1] .

ولم تصب الهزة الصحافة وحدها ، بل شملت كل أجهزة اعلام العدو الرسمية التي وقعت في تناقضات هائلة . وكان التخبط الاعلامي مماثلاً للتخبط العسكري على جبهات القتال في الأيام الأولى للحرب. فلقد تحدث هذا الاعلام عن سحق الهجمات العربية بسرعة ، ثم انتقل الى الحديث عن الحرب الشاقة المريرة الطويلة الأمد . ونقل أنباء تدمير الجسور المصرية على قناة السويس ، ثم عاد لينفي هذا النبأ جملة وتفصيلاً . وقال انه على طريق دمشق ، وأن المدينة غدت شبه ساقطة ، ثم عاد لينقل أنباء المعارك الطاحنة في الجولان . وتوالت التبجحات والتراجعات بشكل ملفت للأنظار، ورافقتها حملة تضليلية مكشوفة استخدمت فيها تسجيلات صوتية لأسرى عام ١٩٦٧ ، مع الزعم بأنها لأسرى حرب تشرين الأول[2] ، وعممت على العالم أفلاماً تلفزيونية قديمة التقطت لبعض معارك ١٩٦٧ وادعت بأنها أفلام لمعارك ١٩٧٣ [3] ، ومع انكشاف التهويل والتبجح والأكاذيب ، فقدَ الاعلام الاسرائيلي مصداقيته داخل اسرائيل وخارجها ، وصار الاسرائيليون يتابعون الأخبار من اذاعتي

(١) معاريف ، ١٩٧٤/١/١٦ .
(٢) المحرر ، ١٩٧٣/١٠/١٨ .
(٣) الأنوار ، ١٩٧٣/١٠/٢٠ .

القاهرة ودمشق. وأصبحت تصريحات القادة الاسرائيليين مادة للتندر في العالم أجمع . ولقد انتشرت من جراء ذلك في اسرائيل جملة ساخرة تقول : **« لقد تبادلنا الأدوار مع العرب هذه المرة ، فأخذوا أسلوبنا في الحرب ، وأخذنا أسلوبهم في الاعلام » .**

٦ – مع انهيار اسطورة « الجيش الذي لا يقهر » انهارت أفكار حاول العدو ترسيخها في الأذهان ، ومنها ان انضباط الجيش الاسرائيلي انضباط متلاحم مبني على الثقة والتفاهم ووحدة الايديولوجية الصهيونية. وكانت جميع الدلائل تؤكد صحة هذه الفكرة ، لا لشيء ، إلا لأن جميع الجيوش المنتصرة انضباطية . ولا يظهر الانضباط الحقيقي ، والتلاحم الكامل إلا في حالة الفشل . ويعرف العسكريون الميدانيون ان قيادة القطعة في الانسحاب تحت النار أصعب بكثير من قيادتها في الهجوم أو الدفاع . وأن تفتت القطعة وفقدان الانضباط يتزايدان اذا تم الانسحاب بعد فشل واضح، ورافقه ضغط قوي من خصم يشن عملية المطاردة بإصرار . ولقد بددت الحرب الرابعة فكرة الانضباط الاسرائيلي «الانموذجي»، حتى أن رئيس اركان العدو دافيد اليعازر أعلن عن رغبته في اتخاذ اجراءات شديدة لمراقبة الانضباط . وذكر اليعازر في حديث مع كبار الضباط « أن ثمة انخفاض في الانضباط داخل الجيش ، وأنه يدرس امكانية فرض عقوبات شديدة على المخالفين » (١) .

ويذكر المعلق العسكري حاييم هرتسوغ أنه سمع من احدى اللجان التي بحثت موضوع المفقودين « ان ٧٠ – ٧٥ بالمئة من المشكلة طرأت نتيجة لعدم الانضباط. فلقد صدرت أوامر صريحة بالنسبة لهذا الموضوع، ولم يجر تنفيذها في الوحدات » (٢) .

ولم تقتصر التصرفات غير الانضباطية على المراتب الصغرى بل وصلت الى أعلى المراتب . فلقد اتهم تقرير « اغرانات» اللواء غونين قائد المنطقة الجنوبية

---

(١) ر. أ. أ ، ١٩٧٤/٢/٢٦ .
(٢) المرجع السابق .

بأنه لم ينفذ التعليمات الخاصة بنشر القوات المدرعة الموضوعة تحت تصرفه ، فوضع ثلثها على القناة والثلثين في الخلف بدلاً من أن يفعل العكس (١) .

وفي يوم ١٩٧٣/١١/١٣ قدم غونين تقريراً ضد شارون أتهمه فيه بارتكاب خمس مخالفات انضباطية ، تتعلق أولاها بتجاوز قيادته والاتصال مباشرة بوزير الدفاع لإلغاء أمر صدر اليه من قائد المنطقة الجنوبية . أما المخالفات الأربع الأخرى، فتتعلق بعدم الانصياع للأوامر في المراحل المختلفة للحرب . وكانت هذه المخالفات :

(١) ان العميد شارون لم ينفذ أمراً في ١٠/٨ بنقل قوة معينة لأمرة العميد ادان (برن) أثناء معارك الصد في قطاع جسر فردان . ولم تستخدم هذه القوة اطلاقاً ، وفشلت العملية بخسائر فادحة .

(٢) ان العميد شارون بدأ بالهجوم دون مصادقة قائده في يوم ١٠/٩ بالإضافة الى الادلاء بمعلومات غير صحيحة لقائد القيادة الجنوبية . ودمرت في هذا الهجوم ٢٠ دبابة مع أطقمها ، ولم تنجز شيئاً .

(٣) ان العميد شارون لم ينفذ أمراً مفصلاً عشية العبور (الى الضفة الغربية) وأثر بذلك على سير الحرب . وكان الأمر ينص على احتلال قطاع عرضه أربعة كيلومترات على ضفة القناة، وخلق رأس جسر، وتأمين المحورين المؤديين الى رأس الجسر والمواقع القريبة . وبسبب اندفاعه لعبور القناة ، وليؤمن لنفسه موقف المحتل لغربي القناة خرّب شارون خطة العملية . لقد كان عليه وفق الخطة أن يؤمن المحاور ويمكّن تشكيل (برن) من عبور القناة واحتلال المنطقة الى الغرب منها . ونتيجة لعدم تنفيذ هذا الأمر ، والادلاء بمعلومات غير صحيحة عن الوضع في المنطقة وعن تنظيم القوات ، احتل المصريون المحاور ثانية وأغلقوها ، وصار من الضروري احتلالها ثانية ، وتكبد خسائر كبيرة . ونفذت هذه المهمة فرقة (برن) ، ونتيجة لهذا

---

(١) ر.أ.أ ، ١٩٧٤/٤/٣ .

تأخرت فرقة (برن) حوالي ٣٦–٤٠ ساعة . وكان لهذا التأخير انعكاسات بعيدة على الوضع أثناء وقف اطلاق النار .

(٤) ان العميد شارون لم ينفذ أمراً باحتلال موقع معيَّن شرقي القناة ، وأنه لم يقم بواجبه كما يجب عندما اتجه في نهاية الأمر لاحتلال هذا الموقع في ٢١ و ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ، ذلك أنه لم يدعم القوة المهاجمة كما يجب ، ولم يؤمن لها نار مدفعية ملائمة ، ولم يراقب الخطط ، ولم يحتل ذلك الموقع ، الأمر الذي شكل خطراً على قوة جيش الدفاع الاسرائيلي غربي القناة [1] .

٧ – أما الفكرة الثانية التي انهارت مع انهيار أسطورة الجيش تحت ضربات القوات العربية ، فهي ان الجيش الاسرائيلي يهتم بمعنويات أفراده ، ويحافظ عليها عن طريق عدم التخلي عن الجرحى ، وعدم التخلي عمن يمكن انقاذهم من الأسر ، بل وسحب جثث القتلى تحت النار لدفنهم «على أرض الأجداد» . ولقد نفذ الجيش الاسرائيلي في السابق هذه الفكرة وجسدها على أرض المعركة ، لأن موازين القوى كانت تسمح له بذلك ، ولأن سير المعارك كان يدور لصالحه في أغلب الأحيان .

وفي حرب ١٩٧٣ ، وعندما تبدلت موازين القوى ، ودارت عقارب الساعة بشكل معكوس ، وغدا انقاذ المواقع المحاصرة أو سحب الجرحى –ناهيك عن سحب جثث القتلى– يكلف أرواحاً بشرية ، ويصطدم بمقاومات عنيدة ، تخلى الجيش « المظفر » عن فكرته ، وترك جنوده يقعون في الأسر رغم نداءاتهم واستنجادهم ، ورغم وعود القيادة لهم بانقاذهم . وترك الجرحى والقتلى على أرض المعركة دون أن يجدوا من يؤمن اخلاءهم . ويذكر كتاب « التقصير » (هامحدال) كيف حاول الاسرائيليون في يوم ٧ تشرين الأول (اكتوبر) انقاذ رجال التحصينات المحاصَرين في خط بارليف وكيف باءت هذه المحاولة بالفشل بعد أن تكبدت القوات المكلفة بها خسائر فادحة و «اتضح للقيادة في وقت لاحق أن ثمن محاولات الانقاذ هذه باهظ جداً»...

(١) هعولام هازيه ، ٦/٣/١٩٧٤ .

« وعندما وُضع موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي ، الذي وصل موقع القيادة الأمامي، في الصورة،قال: لا مناص من التخلي عن جنود التحصينات، فليهرب من يستطيع الهرب ، أما الباقون ، بمن فيهم الجرحى ، فليبقوا في التحصينات » (ص٩٧). ثم يقول الكتاب في مكان آخر: «كانت هذه الحرب الأولى أيضاً التي تراجعت فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء وبقيت دبابات على أرض العدو ، وفي داخلها قتلى وجرحى دون أن يكون في الإمكان إنقاذهم » (ص ١١٢) . وهكذا لم يثبت تقليد الجيش الاسرائيلي تحت النار الحقيقية ، وظهر أنه لم يكن أكثر من « فولكلور » .

* * *

لقد حطمت الحرب الرابعة « الوضع الراهن » العزيز على الاسرائيليين ، وتلقى المجتمع الاسرائيلي خلالها صدمة عنيفة، وأصيبت معنوياته بهزّة زلزالية. وكان الأسبوع الأول بالنسبة لهذا المجتمع «اسبوع تأديب»[1]. وتؤكد دراسة النتائج المعنوية التي تحققت على جانبي الخندق ثلاث حقائق ، **الأولى** : هي أن تعرض الطرفين المتنازعين لهزة عسكرية واحدة لا يعرض معنوياتهما لتأثير متماثل. إذ يبقى تأثير الصدمة على معنويات معسكر الغزاة الذين يشنون حرباً غير عادلة أكبر من تأثيرها على معنويات معسكر المدافعين عن قضية عادلة . **والحقيقة الثانية**: ان ارتفاع المعنويات العربية، وتزايد زخمها مع تزايد التعاون العربي ، يستمران مع استمرار القتال . وعندما تتوقف المدافع عن الهدير يضعف التضامن من جديد . الأمر الذي يؤكد ان القتال التحريري في حرب طويلة الأمد هو المدخل العملي الأول نحو الوحدة العربية، وبوتقة تصهر إرادة العرب وترفع معنوياتهم . أما **الحقيقة الثالثة** ، فهي أن المجتمع الاسرائيلي الذي يبدو متماسكاً خلال السلم وخلال الانتصارات ، يتأثر الى حد بعيد في النكسات ، وأن تناقضات هذا المجتمع لا تظهر جلية واضحة إلا تحت تأثير الضربات العسكرية القاصمة، المترافقة مع طرح فكرة سياسية مقبولة متماسكة.

(١) الديلي ميل ، ١١/١٠/١٩٧٣ .

١٠ ـ ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي بعد عام من الحرب (*)

« اذا لم يحصل تقدم مـا نحو السلام خلال الشهور الستة أو الاثني عشرة شهراً المقبلة ، فإن الحرب ستندلع حتماً في الشرق الأوسط » هذا هو موجز التقييم الاستراتيجي الاميركي للوضع في منطقتنـا الحساسة الحبلى بالأحداث . ولا يحدد السوفيات الموعد الذي ستندلع به الحرب الخامسة ، ولكنهم يؤكدون أن الأزمة لم تجد طريقها الى الحل بعد. وأن الموقف الاسرائيلي المتعنت الذي تعززه الولايات المتحدة عسكرياً هو المفجر الخطير في برميل البارود . وأن الانفجار واقع حتماً ما لم تقم واشنطن بضغط جدي على ساسة تل ابيب لفتح عيونهم جيداً على حقـائق موازين القوى ، وفهم ضرورة الحد من أحلامهم التوسعية وأوهامهم في قدرتهم على لعب دور « الدولة العظمى » في المنطقة . والموقف العربي واضح لا لبس فيـــه ، فهو يتمحور حول السعي سياسياً لتأمين انسحاب اسرائيل الكامل ، وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقـه المشروعة ، أو العودة الى القتال لتحقيق هذين الهدفين العادلين بقوة السلاح المدعومة بالقوى الاقتصادية الأخرى. أما الاسرائيليون الذين أنقذهم بنك الدم الأميركي من نتائج نزيف تشرين الأول (اكتوبر) الخطير ، وأعاد إليهم بعض التوازن الذي فقدوه ، فقد عادوا الى نبش ملفات مـــا قبل الحرب الرابعة ليستقوا منها تصريحاتهم « الحربجية » التي تدل على أنهم مصابون بفصام سياسي

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة الاسبوع العربي ، عدد ٣٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ .

مزمن لا علاج له سوى الصدمات الكهربائية في سيناء والجولان . وينظر العالم كله الى الشرق الأوسط بقلق ، نظراً لعدم استقرار هذه المنطقة ، واحتمالات اشتعالها عسكرياً ، وإمكانات استخدام سلاح النفط في النزاع (رغم تهديدات الولايات المتحدة باستخدام سلاح الغذاء والتجويع للرد على أي حظر بترولي) وضخامة القوى المحلية التي ستشترك في الصدام ، وأخطار انزلاق الدولتين العملاقتين وتورطها في الصراع بشكل يهدد الأمن العالمي .

ومن المفيد في مثل هذا الوضع المتوتر أن نحدد موازين القوى العسكرية بين المعسكرين المتنازعين، وخاصة بعد صفقة الأسلحة الأميركية الجديدة التي حصلت عليها اسرائيل خلال زيارة اسحاق رابين الى واشنطن في فترة ١٠-١٥ ايلول (سبتمبر)(١)، والتي جاءت لا لتعويض خسائر العدو العسكرية في حرب تشرين الأول (اكتوبر)، كما ذكرت بعض الصحف العربية والأجنبية، بل لتعزيز القوة العسكرية التي عوضت خسائر الحرب الرابعة خلال الحرب نفسها ، وفي الفترة القصيرة التي تلت وقف اطلاق النار .

في المدرعات :

دخلت اسرائيل حرب تشرين الأول (اكتوبر) وهي تملك ١٧٠٠ دبابة متوسطة « م – ٦٠ » و « م – ٤٨ أ » الأميركية الصنع ، و « سنتوريون م ك ٧ ، ٥ » البريطانية الصنع . ولقد خسرت قوات العدو خلال الحرب ٦٠٠ – ٧٠٠ دبابة متوسطة ، ولكن التعزيزات الأميركية التي وصلتها عن طريق الجو والبحر غطت هذه الخسائر ، ورفعت عدد الدبابات الاسرائيلية الى ١٩٠٠ دبابة متوسطة (٢) . ولقد تم التعويض بدبابات (باتون) المطورة « م – ٦٠ » . وسيرتفع عدد الدبابات الاسرائيلية الى ٢٥٠٠ – ٢٥٥٠ دبابة

(١) ان تفصيلات صفقة الأسلحة الأميركية مذكورة في مجلة الاسبوع العربي عدد ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ .

(٢) Military Balance 1974-1975 المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ، لندن ، ١٩٧٤ .

متوسطة ، عندما ستصل الصفقة الجديدة (٢٠٠ – ٢٥٠ دبابة « م – ٦٠ » و ٤٠٠ دبابة «سنتوريون») ، التي يحتمل وصولها قبل نهاية العام ١٩٧٤ .

ولقد دخلت مصر القتال بحوالي ١٨٥٠ دبابة متوسطة معظمها (١٦٥٠ دبابة) من طراز « ت – ٥٤ » و « ت – ٥٥ » . ولم يكن لديها آنذاك سوى حوالي ١٠٠ دبابة « ت – ٦٢ » . وفي معارك الدبابات التي جرت على الضفة الشرقية للقناة ، ومعارك احتواء ثغرة الدفرسوار خسرت القوات المصرية عدداً محدوداً من الدبابات (يقدره الغربيون بـ ٣٠٠ دبابة) . تم تعويضها خلال القتال وبعده بالدبابات العربية (الليبية والجزائرية والمغربية) التي انتقلت الى مسرح العمليات . ويقول الرئيس السادات في حديث مع مجلة «روز اليوسف» أن الاتحادالسوفياتي لم يبدأ بإرسال الدبابات الى مصر إلا بعد أسبوع من توقف القتال .

والمهم في الأمر أن القوة المدرعة المصرية غدت اليوم أكبر مما كانت عليه في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، فلقد ارتفع عدد الدبابات المصرية الى أكثر من ٢٠٠٠ دبابة ، موزعة داخل ٣ فرق مدرعة (بدلاً من فرقتين كانتا في حرب تشرين الأول) بالإضافة الى ألوية مدرعة مستقلة وكتائب المدرعات في ألوية المشاة والمشاة الميكانيكية (١) .

والجديد في سلاح المدرعات المصري هو أن معظم الدبابات الجديدة التي حصل عليها بعد الحرب هي من طراز « ت – ٦٢ » المتفوقة على الدبابة « ت – ٥٥ » أو « ت – ٥٤ » من ناحية عيار المدفع (١١٥ مم) ودقة الرمي ، وأجهزة التسديد والاتصال ، والقدرة على اجتياز الموانع ، والسرعة ... الخ .

أما القوات المدرعة السورية فقد دخلت المعركة بحوالي ١٢٤٠ دبابة متوسطة معظمها (٩٠٠ دبابة) من طراز « ت – ٥٤ » و « ت – ٥٥ » ، ولم يكن لديها سوى عدد محدود من دبابات « ت – ٦٢ » . ولقد أدى

(١) المرجع السابق .

الاندفاع السوري السريع بالعمق واستخدام الاسرائيليين للصواريخ الموجهة المضادة على نطاق واسع، وعدد من الأسباب الأخرى الى وقوع خسائر كبيرة في الوحدات المدرعة (يقدر الغربيون هذه الخسائر بـ ٨٠٠ دبابة) . ولقد أمن التوازن المدرع خلال القتال وصول الدبابات العراقية التي انتقل بعضها من مناطق التجمع الى مناطق القتال على السلاسل، لتأمين سرعة الوصول والحشد ودخول المعركة . وعوّض الاتحاد السوفياتي الخسائر المدرعة السورية، وحصلت سوريا على صفقة من الدبابات (٣٠٠ دبابة) كان العراق قد اشتراها قبل الحرب ، ووصلت الى الموانىء السورية خلال القتال ، فقدمتها الحكومة العراقية الى الجيش السوري كجزء من المشاركة في المعركة القومية . ولقد أدى كل ذلك الى ارتفاع عدد الدبابات في الجيش السوري الى ١٦٠٠ دبابة متوسطة ، من بينها نسبة كبيرة من الدبابات « ت – ٦٢ » .

وبالإضافة الى زيادة عدد الدبابات، فقد زاد عدد عربات نقل الجنود المدرعة في كل من مصر وسورية واسرائيل. إذ صارت مصر تملك ٢٥٠٠ عربة مدرعة (بدلاً عن ٢٠٠٠) [1]، وصارت سورية تملك ١٤٠٠ عربة مدرعة (بدلاً عن ١٠٠٠) [2] ، وصار لدى اسرائيل أكثر من ٢٥٠٠ عربة بدلاً عن ١٤٥٠ ، ومن هذه الأرقام يبدو أن القوات المدرعة المصرية والسورية تملك التفوق على المدرعات الاسرائيلية . ويأخذ هذا التفوق أهمية كبيرة في الجبهة الجنوبية ، حيث يسمح مسرح العمليات بإجراء المناورات الواسعة . ويدعي الاسرائيليون أنهم يعوضون هذا التفوق العربي العددي بالتفوق النوعي للطواقم والكوادر ، الأمر الذي لم تثبته حرب تشرين الأول (اكتوبر) . كما أنهم يدعون أن الدبابة « سنتوريون » والدبابة « م – ٦٠ » أفضل من الدبابات السوفياتية نظراً لأن مدى مدفعها من عيار ١٠٥ مم وقدرته على الاختراق أفضل من مدى وقدرة اختراق مدفع الدبابة « ت – ٥٤ » أو « ت – ٥٥ » (١٠٠ مم) ، ومدفع الدبابة « ت – ٦٢ » (١١٥ مم) . ولكن الدراسة العلمية تؤكد عدم صحة

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

هذا الادعاء. صحيح أن المدفع ١٠٥ مم الاسرائيلي أفضل من المدفع ١٠٠ مم العربي، ولكن انخفاض الدبابة « ت – ٥٤ » و « ت – ٥٥ »، مسافة ١٠٠ سنتمتر تقريباً ، بالنسبة الى الدبابتين « سنتوريون » و « م – ٦٠ » ، يجعل احتمالات تعرض الدبابات العربيـة للإصابة أقل من احتمالات تعرض الدبابات الاسرائيلية للإصابة . كما أن مدى الدبابة « ت – ٦٢ » (١١٥ مم) يعادل مدى المدفع الاسرائيلي ١٠٥ مم (١٦٠٠ متر) ، وقدرته على الاختراق تفوق قدرة المدفع الاسرائيلي، نظراً لاستخدام القنابل الخارقة ذات العيار المصغَّر.

وبالإضافة الى ذلك، فقد أثبتت حرب تشرين الأول(اكتوبر)، أن الدبابة الأميركية « م – ٦٠ » معرضة للإحتراق فوراً عندما تصاب بأية قنبلة ، نظراً لأن جهاز البرج الهيدروليكي فيها حساس جداً وقابل للاشتعال ، على عكس الدبابات السوفياتية . وللدبابة « سنتوريون » الانكليزية عيب كبير هو أن محركاتها تعمل بالبنزين ، الأمر الذي يقلل مدى عملها القتالي ، ويعقد مسألة تموينها بالمحروقات ، ويعرضها للاشتعال بسرعة عند الاصابة . ولقد أخذت اسرائيل هذه النقطة بعين الاعتبار قبل حرب ١٩٧٣ ، وبدلت محركات عدد من دبابات « سنتوريون » التي تملكها ، بمحركات اميركية تعمل بالمازوت (مثل الدبابات السوفياتية) . ولكنها بحاجة لوقت طويل قبل أن تبدل محركات الأربعمائة دبابة « سنتوريون » التي اشترتها مؤخراً .

والنقطة الهامة في المجابهات المدرعة العربية – الاسرائيلية ، هي أن الاسرائيليين يعتمدون على الدعم الجوي الكثيف ، واستخدام القنابل الذكية والصواريخ الموجهة بالليزر أو تلفزيونياً («هوبو» و«روكي» ، و «مافريك»، و «والي») [1] ، وكلها أسلحة دقيقة الاصابة . كما أنهم يعتمدون على الصاروخ الأميركي « تاو » المضاد للدبابات ، والذي حصلوا عليه خلال حرب ١٩٧٣ . وميزة هذا الصاروخ دقته ومداه (٢٠٠٠ متر) وإمكانية استخدامه على قواعد

(١) ميللر ، الولايات المتحدة تزود اسرائيل بالأسلحة الموجهة الذكية ، «أفييشن أند سباس تكنولوجي » ، ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ .

ثابتة أو محمولة على عربات مدرعة أو من طائرات الهليكوبتر . ولقد لعب هذا الصاروخ دوراً فعالاً في ثغرة الدفرسوار ، كما لعبت وحدات الاحتياط المضادة للدبابات والمحمولة بطائرات الهليكوبتر دوراً لا ينكر على الجبهة السورية نظراً لمرونتها وقدرتها على الحركة . ومن الأمور التي تلفت النظر في الصفقة الأميركية الأخيرة ، احتواؤها على طائرات هليكوبتر «هوي كوبرا» المسلحة بصواريخ « تاو » ، والتي تشكل سلاحاً مرناً وفعالاً ضد الدبابات ، بيد أن الجيوش العربية تملك أيضاً صواريخ موجهة مضادة للدبابات أثبتت جدارتها في حرب تشرين الأول (ساغر ، سنابير) ، وفي الاتحاد السوفياتي طائرات هليكوبتر من طراز « مي–١٢٤ » مجهزة بصواريخ مضادة للدبابات من طراز «ساغر»، وليس هناك معلومات عن وصول هذا السلاح الى الجيوش العربية ، وإن كان وصوله غير مستبعد ، نظراً للدعم التسليحي الكبير الذي يقدمه السوفيات بصورة خاصة ، الى كل من سورية والعراق وليبيا .

في الطيران :

كانت مصر في حرب تشرين الأول (اكتوبر) تملك ٦٢٥ طائرة مقاتلة تضم طائرات الصف الأول: «ميغ–٢١» من مختلف الأنواع،و«٨٠ سوخوي–٧»، وطائرات الصف الثاني « ميغ – ١٧ » بالإضافة الى عدد من قاذفات القنابل «توبوليف – ١٦» و «ايليوشن – ٢٨» . ولقد خسرت مصر في الحرب عدداً محدوداً من الطائرات نظراً لأن طائراتها لم تتوغل كثيراً في عمق الدفاع الاسرائيلي ، وعملت غالباً بالتعاون مع شبكة الصواريخ أرض – جو «سام» من مختلف الأنواع . ويذكر الرئيس السادات ، في حديثه الذي ورد ذكره سابقاً ، أن الاتحاد السوفياتي لم يعوض لمصر خسارتها في الطائرات . بيد أن القوات الجوية المصرية حصلت على دعم جوي جزائري – ليبي ، بالإضافة الى الدعم الكويتي – العراقي الذي سبق الحرب . ويقدّر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية البريطانية (١٩٧٤–١٩٧٥) أن الطيران المصري يضم اليوم ٥٦٨ طائرة مقاتلة ، من بينها ٢٠٠ « ميغ – ٢١ » ، و ١٠٠ « سوخوي – ٧ » ، و ١٠٠ « ميغ – ١٧ » ، و ٣٨ « ميراج – ٥ »

(ليبية) . بالإضافة الى ١٠٨ طائرات « ميغ – ٢١ » تابعة لقيادة الدفاع الجوي .

أما سورية فقد كانت تملك قبل الحرب ٣١٠ طائرات مقاتلة ، من بينها ٢٠٠ « ميغ – ٢١ » ، و٨٠ « ميغ – ١٧ » ، و ٣٠ « سوخوي – ٧ » . ولقد خسرت سورية خلال القتال من الطائرات أكثر مما خسرته مصر، نظراً لأن شبكة الدفاع الأرضي كانت أقل تكاملاً من شبكة الدفاع الأرضي المصرية. ولقد دعم الطيران العراقي القوات الجوية السورية خلال القتال، وعوّض الاتحاد السوفياتي الخسارة السورية بالطائرات ، وقدم أنواعاً جديدة من الطائرات («ميغ–٢٣»)، ومن المحتمل أن يكون قد قدم طائرات«سوخوي–٢٠»[1]، وقام بتدريب أعداد كبيرة من الطيارين الجدد ورفع كفاءة عدد من الطيارين القدامى. ويعتبر المعلقون العسكريون الاسرائيليون أن وصول هذه الطائرات الجديدة وتعويض الأنواع السابقة قد جعل الطيران السوري أقوى من الطيران المصري ، وأقدر منه على مجابهة طائرات « الفانتوم – ف ٤ اي » . ويذكر الغربيون أن في السلاح الجوي السوري اليوم طيارون متطوعون من جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية وكوبا . ويقدّرون أن عدد هؤلاء الطيارين هو حوالي ٦٠ طياراً .

وتقدر قوة سلاح الطيران السوري الحالية بـ ٣٠٠ طائرة مقاتلة عمادها ٢٠٠ طائرة «ميغ – ٢١» ، و٣٠ « سوخوي – ٧ » ، و٦٠ «ميغ – ١٧» وعدد من طائرات « ميغ – ٢٣ » المتطورة[2] .

واذا ما انتقلنا الى معسكر العدو ، وجدنا أن اسرائيل دخلت الحرب وهي تملك ٤٣٢ طائرة مقاتلة ، وأن العمود الفقري لسلاحها الجوي كان يضم ٩٥ طائرة «فانتوم ف ٤ اي» ، و١٦٥ طائرة «سكاي هوك أ – ٤ اي–هـ »،

---

(١) ديل تاهتينين، ميزان التسلح العربي الاسرائيلي منذ حرب ١٩٧٣ ، تقرير المعهد الأميركي للأبحاث الاستراتيجية ، الترجمة العربية ، دار القدس، بيروت، ١٩٧٤ ، ص ٢٣ .

(٢) Military Balance 1974-1975 المذكور سابقاً .

ثابتة أو محمولة على عربات مدرعة أو من طائرات الهليكوبتر . ولقد لعب هذا الصاروخ دوراً فعّالاً في ثغرة الدفرسوار ، كما لعبت وحدات الاحتياط المضادة للدبابات والمحمولة بطائرات الهليكوبتر دوراً لا ينكر على الجبهة السورية نظراً لمرونتها وقدرتها على الحركة . ومن الأمور التي تلفت النظر في الصفقة الأميركية الأخيرة ، احتواؤها على طائرات هليكوبتر «هوي كوبرا» المسلحة بصواريخ « تاو » ، والتي تشكل سلاحاً مرناً وفعالاً ضد الدبابات ، بيد أن الجيوش العربية تملك أيضاً صواريخ موجهة مضادة للدبابات أثبتت جدارتها في حرب تشرين الأول (ساغر ، سنابير) ، وفي الاتحاد السوفياتي طائرات هليكوبتر من طراز « مي–١٢٤ » مجهزة بصواريخ مضادة للدبابات من طراز «ساغر» ، وليس هناك معلومات عن وصول هذا السلاح الى الجيوش العربية ، وإن كان وصوله غير مستبعد ، نظراً للدعم التسليحي الكبير الذي يقدمه السوفيات بصورة خاصة ، الى كل من سورية والعراق وليبيا .

في الطيران :

كانت مصر في حرب تشرين الأول (اكتوبر) تملك ٦٢٥ طائرة مقاتلة تضم طائرات الصف الأول: «ميغ–٢١» من مختلف الأنواع،و«٨٠ سوخوي–٧»، وطائرات الصف الثاني « ميغ – ١٧ » بالإضافة الى عدد من قاذفات القنابل «توبوليف – ١٦» و «ايليوشن – ٢٨» . ولقد خسرت مصر في الحرب عدداً محدوداً من الطائرات نظراً لأن طائراتها لم تتوغل كثيراً في عمق الدفاع الاسرائيلي ، وعملت غالباً بالتعاون مع شبكة الصواريخ أرض – جو «سام» من مختلف الأنواع . ويذكر الرئيس السادات ، في حديثه الذي ورد ذكره سابقاً ، أن الاتحاد السوفياتي لم يعوض لمصر خسارتها في الطائرات . بيد أن القوات الجوية المصرية حصلت على دعم جوي جزائري – ليبي ، بالإضافة الى الدعم الكويتي – العراقي الذي سبق الحرب . ويقدّر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية البريطانية (١٩٧٤–١٩٧٥) أن الطيران المصري يضم اليوم ٥٦٨ طائرة مقاتلة ، من بينها ٢٠٠ « ميغ – ٢١ » ، و ١٠٠ « سوخوي – ٧ » ، و ١٠٠ « ميغ – ١٧ » ، و ٣٨ « ميراج – ٥ »

(ليبية) . بالإضافة الى ١٠٨ طائرات « ميغ – ٢١ » تابعة لقيادة الدفاع الجوي .

أما سورية فقد كانت تملك قبل الحرب ٣١٠ طائرات مقاتلة ، من بينها ٢٠٠ « ميغ – ٢١ » ، و٨٠ « ميغ – ١٧ » ، و٣٠ « سوخوي – ٧ » . ولقد خسرت سورية خلال القتال من الطائرات أكثر مما خسرته مصر، نظراً لأن شبكة الدفاع الأرضي كانت أقل تكاملا من شبكة الدفاع الأرضي المصرية. ولقد دعم الطيران العراقي القوات الجوية السورية خلال القتال، وعوّض الاتحاد السوفياتي الخسارة السورية بالطائرات ، وقدم أنواعاً جديدة من الطائرات («ميغ–٢٣»)، ومن المحتمل أن يكون قد قدم طائرات«سوخوي–٢٠»[١]، وقام بتدريب أعداد كبيرة من الطيارين الجدد ورفع كفاءة عدد من الطيارين القدامى. ويعتبر المعلقون العسكريون الاسرائيليون أن وصول هذه الطائرات الجديدة وتعويض الأنواع السابقة قد جعل الطيران السوري أقوى من الطيران المصري ، وأقدر منه على مجابهة طائرات « الفانتوم – ف ٤ اي » . ويذكر الغربيون أن في السلاح الجوي السوري اليوم طيارون متطوعون من جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية وكوبا . ويقدّرون أن عدد هؤلاء الطيارين هو حوالي ٦٠ طياراً .

وتقدر قوة سلاح الطيران السوري الحالية بـ ٣٠٠ طائرة مقاتلة عمادها ٢٠٠ طائرة «ميغ – ٢١» ، و٣٠ « سوخوي – ٧ » ، و٦٠ «ميغ – ١٧» وعدد من طائرات « ميغ – ٢٣ » المتطورة [٢] .

واذا ما انتقلنا الى معسكر العدو ، وجدنا أن اسرائيل دخلت الحرب وهي تملك ٤٣٢ طائرة مقاتلة ، وأن العمود الفقري لسلاحها الجوي كان يضم ٩٥ طائرة «فانتوم ف ٤ اي» ، و١٦٥ طائرة «سكاي هوك أ – ٤ اي–هـ»،

---

(١) ديل تاهتينين، **ميزان التسلح العربي الاسرائيلي منذ حرب ١٩٧٣** ، تقرير للمعهد الأميركي للأبحاث الاستراتيجية ، الترجمة العربية ، دار القدس، بيروت، ١٩٧٤ ، ص ٢٣ .

(٢) Military Balance **1974-1975** المذكور سابقاً .

و ٥٠ طائرة « ميراج – ٣ سي » . وكانت الاستراتيجية الاسرائيلية تعتمد اعتماداً كبيراً على السيطرة الجوية ، وقدرة سلاح الطيران على القيام بالمهمات الاستراتيجية والتكتيكية بدون صعوبات. ولكن حرب تشرين الأول (اكتوبر) أثبتت خطأ هذا الرأي ، إذ استطاعت الصواريخ الموجهة أرض – جو ، وبطاريات المدفعية المضادة من مختلف العيارات ، وبطاريات المدافع المضادة المحمولة من طراز « ز–س–يو–٢٤–٤ » و « ز–س–يو–٥٧–٢ » حرمان الطيران الاسرائيلي من حرية العمل. وخسر العدو في الأيام الأولى للقتال عدداً كبيراً من طائراته ، ولكن الولايات المتحدة عوضت هذه الخسارة بواسطة الجسر الجوي السريع . وأرسلت بعض الطائرات وهي جاهزة للمعركة ، واشتركت في القتال مباشرة . ولم يكتف الاميركيون بتزويد اسرائيل بالطائرات، بل قدموا لها أنواعاً متطورة من الصواريخ والقنابل لزيادة فاعلية قوتها الجوية . ويذكر تقرير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (١٩٦٤ – ١٩٦٥) أن سلاح الطيران الاسرائيلي يملك اليوم ٤٦٦ طائرة مقاتلة ، من بينها ١٥٠ طائرة «فانتوم ف – ٤ اي» و١٥٠ طائرة «سكاي هوك أ–٤ اي–ه» . ولقد حصلت اسرائيل خلال زيارة رابين الأخيرة لواشنطن على وعد بالحصول على ٥٠ طائرة «فانتوم» أخرى ، وعدداً غير محدد بعد من طائرات « سكاي هوك» . وهذا يعني أنها ستمتلك قبل نهاية هذا العام ٢٠٠ طائرة «فانتوم» ، وهذا رقم قريب من الرقم الذي طالبت به دائماً لتحقيق السيطرة الجوية (٢١٠ طائرات فانتوم) . ويذكر كولمان أن اسرائيل عوضت خسائرها من طائرات «الميراج – ٣ سي» بطائرات « باراك » الاسرائيلية الصنع [1] .

ويؤكد اهتمام اسرائيل بالحصول على طائرة « فانتوم » أكثر من اهتمامها بالحصول على طائرة «سكاي هوك» ، على درس من دروس حرب تشرين الأول، وهو أن تزايد قوة الدفاع الصاروخي الأرضي، وسعة انتشار صواريخ الكتف المضادة للطائرات («ستريلا» أو «سام – ٧») قد أفقدا طائرات الدعم

(١) كولمان ، القوة الجوية حاسمة في الحرب ، ص ١٨ .

التكتيكي ، التي تقلُّ سرعتها عن سرعة الصوت ، جزءاً من أهميتها ، وجعلها هدفاً سهل المنال . ومن المؤكد أن انخفاض عدد طائرات « السكاي هوك » لدى اسرائيل، سيجعلها مضطرة لاستخدام « الفانتوم » في مهمة دعم القوات البرية ، نظراً لأن سرعتها الكبيرة (٢،٢ ماك) ، وتقدم أجهزتها ، سيجعلها أقل تعرضاً للاصابة بالصواريخ من طائرة «سكاي هوك» (٨٢ ر٠ ماك) .

وبالإضافة الى خسارة اسرائيل من الطائرات ، فقد خسرت في الأيام الأولى للحرب ، عدداً كبيراً من الطيارين الأكفاء ، خلال الهجمات المتهورة التي قاموا بها على الجبهتين المصرية والسورية قبل اكتشاف فاعلية شبكات الصواريخ أرض–جو العربية . وأدت هذه الخسارة الى فقدان خيرة الطيارين الاسرائيليين. واذا كانت الولايات المتحدة قد عوضت الطائرات خلال الحرب من اسرابها العاملة ومستودعاتها، فقد عوضت نقص الطيارين بواسطة المتطوعين اليهود ، مزدوجي الجنسية والولاء . وفي اسرائيل اليوم طيارون متطوعون أميركيون، بالإضافة الى الطيارين الكوريين الجنوبيين (٣٢ طياراً) والطيارين القادمين من جنوب افريقية .

وبمقارنة القوات الجوية العربية والاسرائيلية ، نجد أن التفوق العددي بالطائرات لصالح العرب ، على حين أن التفوق بالحمولة الحربية هو لصالح اسرائيل . ويرجع السبب في ذلك الى أن الولايات المتحدة التي تموّن اسرائيل بالطائرات ، تملك طائرات مقاتلة – قاذفة ذات حمولات حربية كبيرة ، على حين أن الاتحاد السوفياتي الذي يزود العرب بالطائرات لا يملك هذا النوع ، وإنما يعتمد على الطائرة القاذفة، والطائرة المقاتلة التي تحميها. ويملك السوفيات والأميركيون من الأسباب والبراهين والحجج ما يؤكد صحة تبنيهما لهاتين العقيدتين الجويتين المختلفتين . ولولا وجود طائرات « ميراج – ٥ » الفرنسية الصنع في ليبيا (١١٠ طائرات) لما كان في القوات الجوية العربية الموجودة في دول المجابهة طائرة قاذفة – مقاتلة متطورة .

ولسنا هنا في معرض تقييم حجج الطرفين السوفياتي والأميركي على صحة

عقيدته القتالية الجوية ، وكل ما يهمنا قوله هو أن هاتين العقيدتين تنعكسان على طبيعة المجابهات العربيـة – الاسرائيلية ، ويعطيان الطيران الاسرائيلي تفوقاً جوياً من الممكن مجابهته . فلقـد أثبتت حرب تشرين الأول (اكتوبر) أن مجابهة حرية العمل الجوي الاسرائيلي ممكنة اذا ما أحسنت القوات المسلحة العربيـة التنسيق بين عمل الطيران المعترض والدفاعات الأرضية المختلفة ، وكانت سرعة حركة القوات البرية متلائمة مع سرعة حركة شبكة الصواريخ المرافقة لها، وكانت القوات البحرية تعمل قرب الشواطىء وتحت غطاء شبكة الصواريخ المتمركزة على البر ، أو تحت غطـاء شبكة صواريخ سطح – جو محمولة على مراكب القتال . ولقد ارتفع مستوى الدفاع الأرضي العربي بعـد حرب ١٩٧٣ ، إذ زاد عدد قواعد الصواريخ « سام » المختلفة الموجودة في مصر من ١٣٠ قاعدة الى ١٤٥ قاعدة «سام – ٢ » و «سام – ٣ » ، بالإضافة الى عدد غير محدد من قواعد « سام – ٦ » . وزاد عدد القواعد في سورية من ١٢ – ١٦ قـاعدة الى ٢٤ قاعدة « سام – ٢ » و « سام – ٣ » و ١٤ قاعدة « سام – ٦ » [١] . كما دعمت بطاريات الدفاع الأرضي بأعداد اضافية من المدافع م/ط من مختلف العيارات (مقطورة وذاتية الحركة) .

وتعوّض مصر وسورية نقص القدرة على ضرب الأعماق الاسرائيلية جواً بالقدرة على ضربها صاروخياً . ففي مصر وسورية أعداد كبيرة من صاروخ أرض – أرض « فروغ – ٧ » التكتيكي (٨٠ كيلو متراً) ، كما أن في مصر لوائي صواريخ أرض – أرض عملياتية « سكود » تضم ٢٤ صاروخاً (٣٠٠ كيلو متر) ، الأمر الذي يسمح للقوات العربية بضرب الأهداف الاسرائيلية وراء الخط الأخضر ، وتنفيذ استراتيجية « العمق بالعمق » .

وتدل دراسة كافة معطيات القوى الجوية، أن الطيران الاسرائيلي المتفوق بالحمولة الحربية قـد فقد جزءاً من حرية العمل ، وفقد القدرة على الردع . كما أنها تدل على أن وصول الطائرة « ميغ – ٢٣ » الى سورية سيساعد الطيران

(١) Military Balance (1974 - 1975) المذكور سابقاً .

السوري على طرد « الفانتوم » من الجو ، وسيمنح طائرات «ميغ–٢١ م ف» السورية حرية عمل أكبر في مجالي الدعم التكتيكي والعملياتي ، بل وفي مجال القصف الجوي الاستراتيجي أيضاً .

وهناك أمر لا شك فيه ، وهو أن ميزان القوى الحـالي سيعطي الحرب طابعاً شمولياً ، وسيجعل الطرفين قادرين على ضرب الأهداف المدنيـة والاقتصادية بالعمق ، وهذا تحول جديد في الصراع العربي الاسرائيلي .

والنقطة الأخيرة التي يؤكدها ميزان القوى الجوية الحالية، هي أن القوات البرية العربيـة ستكون مغطاة جوياً في الدفاع ، وستضطر عند الهجوم الى التقدم ببطء والى عمق لا يبعدهـا عن مدى عمل الصواريخ أرض – جو (١٥ – ٢٠ كيلو متراً) . أما القوات الاسرائيلية التي كانت تعتمد على حماية جوية كاملة فإنهـا ستتعرض في الدفاع الآن الى ضربات جوية وصاروخية ، ولن تستطيع في حالة الهجوم الحصول على الدعم الجوي الكافي الذي يسمح لها بالاندفاع بسرعة في عمق الدفاعات العربية .

ولقـد رفعت مصر ميزانيتها الدفاعية من ٧٠٠ مليون جنيه مصري (١٩٧٣ – ١٩٧٤) الى ١٢٢٥ مليون جنيه مصري (١٩٧٤ – ١٩٧٥) ، وزادت سورية مصروفاتها الدفاعية من ٢١٦ الى ٤٦٠ مليون دولار . وقامت العسكرية الاسرائيلية بفضل المساعدات الاميركية برفع مصروفاتها العسكرية من ١٤٧٤ الى ٣٦٨٨ مليون دولار . وارتفع عـدد القوات المسلحة المصرية العاملة ، في سنة واحدة ، من ٢٩٨٬٠٠٠ الى ٣٣٢٬٠٠٠ الف رجل ، وازداد عـدد القوات المسلحة السورية من ١٣٢٬٠٠٠ الى ١٣٧٬٥٠٠ الف رجل ، وارتفع عدد الجيش الاسرائيلي العامل من ١٣٢٬٠٠٠ الى ١٤٥٬٥٠٠ الف رجل يدعمهم حوالي ٢٥٥ الف رجل احتياطي يمكن استدعاؤهم خلال ٧٢ ساعة[١].

وتحاول اسرائيل تدعيم دفاعها الأرضي ضـد الطائرات ببطاريات مدفعية

(١) كافة الأرقام الواردة هنا مأخوذة من دراسات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ، لندن (١٩٧٣–١٩٧٤) و (١٩٧٤–١٩٧٥) .

رادارية التوجيه من طراز « فولكان » ، وشبكة صواريخ موجهة مضادة للطائرات من طراز « شابرال » التي تكمل شبكة صواريخ « هوك » السابقة، وذلك بعد أن اختل ميزان القوى الجوية في المنطقة . كما أنها تعمل على تدعيم مدفعيتها بمدافع اميركية الصنع « م-١٠٧ » و « م-١٠٩ » و« م-١١٠»، وذلك لتغطية العجز المدفعي الذي ظهر في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، وتحاول تحسين نظام جمع الاحتياط حتى لا تقع في أخطاء الحرب السابقة ، وهناك تحسينات دخلت على القوات البحرية عند الطرفين ، ولكنها لا تقاس بالتحسينات التي دخلت على القوات البرية أو الجوية .

ولا يقتصر ميزان القوى العربي – الاسرائيلي على قوى البلدان الثلاثة المذكورة في هذه الدراسة . فالعراق والسعودية والكويت وليبيا والجزائر والمغرب مستعدة للتدخل في أية حرب تقع في المنطقة ، وخاصة اذا طال أمد القتال بشكل يسمح بانتقال القوات الى مسارح العمليات ، والأردن قادر على المشاركة . والثورة الفلسطينية اليوم في وضع أفضل من وضعها عشية حرب تشرين الاول(اكتوبر) ، وبوسعها المشاركة بالقتال وراء خطوط العدو. وهناك أخيراً الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي القادران على التدخل بسرعة وكفاءة بفضل أسلوب النقل الجوي Biglift الذي أثبت نجاحه في حرب ١٩٧٣ . والمنطقة كلها برميل من البارود تعبث العسكريتاريا الاسرائيلية أمامه بعود ثقاب . فهل ستستطيع الولايات المتحدة انتزاع هذا العود من يد أعداء الانسانية ؟ هذا ما سيتقرر في مؤتمر جنيف . ففي هذا المؤتمر سيتحدد مصير المنطقة . وسيتقرر ما اذا كان الحكم فيها بيد « بالاس » أو « آريس » .

١١ - الوضع الاستراتيجي العام بعد سنة من عبور الهزيمة (*)

« لماذا ؟ لماذا عدت من هنـاك ؟ عليك أن تذهب الى الحكومة ، الى القادة ، الى الكنيست ، وتشير إليهم بأصبعك قائلا : كذبتم عليّ » .

(يهونتان غيفن – التقصير)

لعبت القيادة الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ لعبة السلام المستحيل وغير المرغوب فيه، لعبة تطرح فيها مقولات السلام في الصباح، وتصلي طوال الليل حتى تساعد الآلهة العرب على رفض هذا السلام، ثم تربط مسألة إحلال السلام بشروط كانت تعرف مسبقاً أنها مرفوضة بشكل قاطع ، وهذا هو أقصى ما تريده ، طالما أنها قادرة على استغلال حالة « اللاسلم واللاحرب » الى أبعد مدى ، ومطمئنة الى عجز العرب عن كسر هذه الحالة ، وقدرتها على «تحطيم عظامهم» اذا ما سولت لهم أنفسهم أن يفعلوا ذلك. ودامت حرب الاستنزاف المعنوية التي شنها الاسرائيليون ست سنوات . وكان هدفها إقناع العرب بأن كل السبل أمامهم مسدودة، وأن الاستسلام أمر محتوم، وأن حالة «اللاحرب واللاسلم » التي لا يمكن خرقها ، هي استسلام عربي ضمني ، حتى لو لم ترافقه مراسيم الاستسلام .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة قضايا عربية ، العدد السادس ، تشرين الأول(اكتوبر) ١٩٧٤ ، ص ١١-٢٢ .

وفي اللحظة التي اعتقد فيها الاسرائيليون أن الثمرة العربية غدت ناضجة، وأن هزة صغيرة ستسقطها في سلتهم ، وأن الأمر لا يتطلب سوى استغلال الوقت ، وانتظار معول الزمن الكفيل بهدم الارادة القتالية العربية ، في هذه اللحظة بالذات شن العرب حرب تشرين الأول (اكتوبر) ، الحرب الرابعة في الصراع العربي – الاسرائيلي ، والحرب العربية الأولى في هـذا الصراع . ولم تحطم هذه الحرب حالة « اللاسلم واللاحرب » فحسب ، ولكنها بدّدت أيضاً أوهام ساسة اسرائيل الذين « يستعملون سوء التفاهم المأساوي الذي حصل بين الشعبين كسلاح للمساومة السياسية ولتحسين أوضاعهم الداخلية »[١]، **ونقلت العرب من حالة امتلاك القوة الى حالة الوعي بامتلاك القوة والقدرة على استخدامها بفاعلية .**

ثم توقف القتال الشامل ، وأعقبته مفاوضات مسلحة : تمثلت في الصدام المحدود الذي رافق مباحثات فصل القوات ، وقامت القيادتان المصرية والسورية خلال هذه الفترة بتنسيق الضغط السياسي مع الضغط العسكري ، بغية تحقيق الحد الأقصى من المكتسبات الاقليمية التي فرضتها موازين القوى الجديدة . لقد نجحت سياستهم الخارجية قبل الحرب في إعداد المناخ الملائم لبدء العمل العسكري ونجاحه . وما أن انتهى القتال حتى وظف العسكريون نجاحاتهم ، والحقائق التي خلقوها على أرض المعركة ، في خدمة السياسة ، واستطاعت السياسة أن تنتزع من العدو مواقع محدودة وضعتها بين أيدي العسكريين لاستخدامها في أي صراع مقبل .

ولقد سعى الاسرائيليون خلال المفاوضات المسلحة تقديم الحد الأدنى من التنازلات ، واستخدام نجاحاتهم العسكرية في الدفرسوار وجيب سعسع كأوراق رابحة يبادلون بها أوراقهم الخاسرة . وكانت الادارة الاميركية التي لعبت دور الوسيط في هذه الفترة، تعرف جيداً أن الأوراق الرابحة الاسرائيلية مزيفة ، ولا تعكس موازين القوى الحقيقية ، وأن العسكرية الاسرائيلية

(١) التقصير ، (ها محدال) ص ٣٣٩ .

التي أشرفت على الانهيار بعد ثلاثة أيام من القتال ، لم تحققها إلا بفضل دعم أميركي كبير لم يشهد العالم له مثيلاً منذ جسر برلين الجوي (١٩٤٨) ، وجسر Hump في الصين (١٩٤٥) . لذا كان هم الاميركيين منصباً على فتح أعين الاسرائيليين على الحقائق التي خلقتها الحرب ، وإقناعهم بضرورة تليين موقفهم خلال المباحثات، مع ضمان أمنهم ورفع مستوى طمأنينتهم عن طريق زيادة قوتهم العسكرية . ولقد كانت السياسة الاميركية الرامية الى تصفية آثار حرب تشرين الأول (اكتوبر) تعمل ما في وسعها للظهور بمظهر الوسيط المحايد، ذلك المظهر الذي يؤمن لها زحزحة الاتحاد السوفياتي عن بعض مواقعه في الشرق الأوسط ، واستعادة بعض مواقعها السياسية التي فقدتها منذ حرب ١٩٦٧ ، ويضمن مصالحها الاقتصادية الحيوية في العالم العربي ، دون التخلي نهائياً عن « الشرطي » الذي خدمها بإخلاص طوال ٢٥ عاماً .

وفي ٢٩ أيار (مايو) ١٩٧٤ انتهت المرحلة الأولى من المفاوضات المسلحة ، عندما وقّع السوريون والاسرائيليون اتفاق فصل القوات في جنيف[١] . وبدأت مرحلة جديدة يريدها الاسرائيليون فترة جديدة من حالة « اللاسلم واللاحرب » ، وتنظر اليها الدول العربية المعنية والاتحاد السوفياتي كمقدمة للانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، وكمدخل لحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة ، وتعتبرها الولايات المتحدة فترة هدوء، تساعد على إنهاء حالة النزاع العربي – الاسرائيلي، والوصول الى ترتيب المنطقة تحت شعار « إحلال السلام العادل وضمان مصالح الشعوب المتنازعة في المنطقة » . وهكذا نرى أن كل طرف من الأطراف ، المشتركة في النزاع بشكل مباشر أو غير مباشر ، ينظر الى المرحلة الحاضرة نظرة مختلفة ، ويستعد خلالها لتحقيق أغراضه السياسية المستقبلية ، آخذاً بعين الاعتبار جميع الاحتمالات السياسية والعسكرية التي يمكن أن تظهر خلال الصراع

(١) كان المصريون قد وقعوا اتفاق فصل القوات في خيمة الأمم المتحدة عند الكيلومتر ١٠١ بتاريخ ١٩٧٤/١/١٨ .

السياسي ، أو السياسي – العسكري ، المقبل . وهذا يعني أننا نعيش اليوم ، وبعد سنة على اندلاع الحرب الرابعة ، مرحلة ترقب واستعداد ، قد يكون من السذاجة المفرطة استبعاد انقطاعها فجأة على صوت هدير المدافع .

وتتسم هـذه المرحلة بسمات خاصة تميزها عن جميع المراحل التي تلت الحروب العربية ـ الاسرائيلية السابقة ، لأنها المرة الأولى التي يتوقف فيها القتال، والقوات العربية مصممة على متابعة المعركة ، ومستعدة لها ، وتتوقع الانتصار فيها . المرة الأولى التي تحس فيها اسرائيل بأن آلتها العسكرية مصابة بخلل ما ، ومعرضة لتلقي ضربات أليمة ، وتحمل خسائر فادحة ، تعادل الهزيمة ، حتى لو استطاعت الجسور الجوية الأميركية منع وقوع الهزيمة بمعناها التقليدي . وبوسعنا الآن رسم الملامح الاستراتيجية لهذه المرحلة ، على اعتبار أن الوضع الاستراتيجي العـام القائم حالياً ، عنصر هام يؤثر على مباحثات جنيف المنتظرة ، ويلعب دوراً أساسياً في تحديد نتائجها .

الجانب السياسي :

تتمتع السياسة العربية الآن بهامش « مناورة سياسية خارجية » واسع ، فهي تعمل وسط جو عالمي مؤيد لمقولاتها العادلة ، وتملك قوة ضغط اقتصادية قادرة على اكتساب عدد من الدول ، أو تحييدها على الأقل . كما تملك القدرة العسكرية التي تسمح لها بالتلويح بالعودة الى الحرب لتحقيق أهدافها السياسية، الأمر الذي يعطي الحق العربي قوة إقناع لم يكن يمتلكها عندمـا كانت القوة العسكرية العربية عاجزة عن العمل . ولقد حصل هدف « تحرير الأراضي » على تأييد عالمي شامل قبل حرب ١٩٧٣ ، ثم اكتسب هدف «حصول الشعب الفلسطيني على حقوقه » مزيداً من المؤيدين في كل أرجاء العالم، وغدت منظمة التحرير الفلسطينية هيئة معترفاً بها عالمياً ، ولم تستطع الولايات المتحدة نفسها تجاهل هذه الهيئة التي تمثل شعباً كاملا ، كما لم تستطع تجاهل مصالح الشعب الفلسطيني عندما تحدثت عن تأمين مصالح شعوب المنطقـــة . وستبدو قوة الموقف السياسي العربي بجلاء خلال مباحثات جنيف ، التي لا يعرقل البدء بها

سوى الموقف الاميركي – الاسرائيلي المتطابق مع الموقف الاردني من منظمـة التحرير الفلسطينية [١]. وتعارض هذا الموقف مع الموقف العربي – السوفياتي.

وتجد السياسة الاسرائيلية نفسها في طريق مسدود ، وليس لديها مـا تطرحه أمام العـالم في مؤتمر جنيف ، كما لا تجد حججاً مقنعة تستخدمها في الجمعية العمومية عند طرح القضية الفلسطينية بعـد القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة العربية بالإجماع بطلب إدراج قضية فلسطين كبند مستقل في جدول أعمال دورة ايلول (سبتمبر) للجمعية العمومية . وتخشى اسرائيل من حصول المنظمة على اعتراف عالمي بأنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . وهي ترى « ان امكانات نجاح المنظمة في الأمم المتحدة قوية جداً. ومن المؤكد ان المنظمة العالمية في تركيبها الحالي ستؤيد أي قرار موال للعرب . وحقيقة كون العرب قد رفضوا قرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين عـام ١٩٤٧ ، ودخلوا حرباً ضد اسرائيل، لن تمنع الأمم المتحدة من إعادة تأكيد هذا القرار ما دام يناسب الفلسطينيين » [٢] .

وتتعرض السياسة الاسرائيلية لخطرين عالميين هما : التأييد السوفياتي للحق العربي الفلسطيني ، والتحول الأميركي المحتمل نحو موقف أكثر حيـاداً أزاء الصراع في الشرق الاوسط . وهي ترى أن طرح المسألة على المنظمة الدولية

---

(١) في مقابلة أجرتها اذاعة الجيش الاسرائيلي مع وزير الدفاع شمعون بيريس في مطلع شهر ايلول ١٩٧٤ ، صرح وزير الدفاع « هناك نوعان من الفلسطينيين: الذين تمثلهم حكومة الملك حسين ، والذين تمثلهم منظمـة التحرير الفلسطينية . وأتوقع أن ينتهي الأمر آجلاً أو عاجلاً بتغلب أحد الطرفين على الآخر. وحينئذ سيكون في وسعنا التفاهم مع الطرف الغالب وآمل أن يكون هذا الطرف الملك حسين » . ولكن تمنيات بيريس لم تتحقق إذ استطاع مؤتمر القمة العربي السابـع المنعقد في الرباط (تشرين الاول ١٩٧٤) إيجاد حل للتناقض بين وجهتي النظر الفلسطينية والأردنية حول مستقبل المناطق الفلسطينية الـــتي سيتم تحريرها . واعترفت الدول العربية كلهـا بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني ، ودعت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة منظمة التحرير لحضور اجتماعاتها في تشرين الثاني ١٩٧٤ .

(٢) معاريف ، ١٩٧٤/٩/٣ .

« سيكون محكاً للولايات المتحـدة اذا وافقت على قرار من الأمم المتحدة ، وسمحت لمنظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك في مؤتمر جنيف الذي عقد بمبادرة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وليس بمبادرة من الأمم المتحدة»[1] .

ولا تستطيع الحكومة الاسرائيلية الدفـاع في مؤتمر جنيف عن احتلال أراضي الغير بالقوة ، كما أنـه ليس بوسعها الدفاع في نيويورك عن رفض قرار التقسيم (١٩٤٧) بحجة أن الدول العربية رفضته ، نظراً لأن الفلسطينيين – أصحاب المصلحة الحقيقيون – لم يكونوا ممثلين في الأمم المتحدة آنذاك .

وتقف سياسة الاتحاد السوفياتي موقفاً متصلباً ، وهي تؤكد أنها لن تقبل في جنيف « بأقل ممـــا تقبله الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية » ، وأنها ستؤيد الموقف الفلسطيني في الأمم المتحدة وتعتبر قضيته « قضية تحرر وطني من أجل تقرير المصير والاستقلال الوطني وفقاً لقرارات الأمم المتحدة وميثاقها » .

ولقد أدى الموقف البترولي العربي خلال حرب تشرين الأول (اكتوبر) وبعدها ، والضغط السياسي العربي الذي رافقه ، الى إجبار الولايات المتحدة على مراجعة سياستها الشرق أوسطية ، والتفكير باتخاذ « موقف متوازن » أزاء العرب واسرائيل . ولقد كانت الادارة الاميركية في عهـد الرئيس ريتشارد نيكسون تسير على هـذا السبيل لتغطية ضعف الرئيس الأميركي الداخلي بانتصارات سياسية خارجية. وليس من المنتظر أن تسير هذه الادارة في عهد الرئيس جيرالد فورد على هذا السبيل بالسرعة نفسها ، خاصة وأن الكونغرس الاميركي الذي تؤيد أكثريته اسرائيل ، يعارض هذه السياسة . ولكن ليس من المنتظر أيضـاً أن يتجاهل الرئيس الجديد المصالح الوطنية الأميركية كلياً، وأن يعود الى سياسة ما قبل حرب ١٩٧٣، حتى ولو تعرّض لضغوط الكونغرس الذي سيتم انتخاب أعضائه في نهاية هذا العـام ، والذي لا يستطيع أحد حتى الآن التكهن بتكوينه أو بسياسة أعضائه الجدد ومدى

(١) هآرتس ، ١٩٧٤/٩/٣ .

وعيهم بحقيقة التناقض بين السياسة الوطنية الأميركية والسياسة الاسرائيلية ، وتأثير دعم الولايات المتحدة لاسرائيل على مصالح الولايات المتحدة في الوطن العربي، والمتمثلة بالحد من التغلغل السوفياتي، وحماية مصادر الطاقة ، والحصول على فائض العملات الصعبة التي يملكها العرب لدعم قيمة الدولار العالمية .

وتؤيد دول العالم الثالث القضية العربية،وتقف الى جانب الحق الفلسطيني، أما السياسة الأوروبية ، فهي لا يمكن أن تخدم إلا مصالح أوروبا المرتبطة بالعرب أكثر من ارتباطها باسرائيل، وخاصة بعد أن بدأ التحالف الاقتصادي الفرنسي – الألماني ، محاولاته لإبعاد أوروبا عن السياسة الأطلسية ، ودفعها نحو سياسة اوروبية مستقلة عن السياسة الأميركية عامة وعن السياسة الاميركية في الشرق الأوسط على وجه التحديد .

والخلاصة ان المناخ السياسي الخارجي العالمي اليوم أفضل بالنسبـة الى العرب من المناخ الذي كان سائداً قبل حرب ١٩٧٣ ، وحرية العمل السياسية العربية أوسع بكثير من حرية العمل السياسية الاسرائيلية . وينطبق هذا القول أيضاً على السياسة الداخلية ، فلقد أدت حرب ١٩٧٣ الى رفع الهيبة الداخلية للنظامين السوري والمصري ، وزادت من التفاف جماهيرهما حولها . ومن المؤكد أن بعض التصرفات السياسية التي وقعت بعد الحرب قد قلصت هذه الهيبة الى حد ما ، ولكنها لم تستطع ، رغم أهميتهـا ، انتزاع كل المكتسبات السياسية الداخلية التي حققها النظامان منذ أن اتخذا قرار كسر حالة « اللاسلم واللاحرب » ، والاندفاع لتحطيم قوات العـدو في الجولان وسيناء .

أما على صعيد التلاحم العربي ، فلقد أعطت حرب تشرين الأول للتضامن العربي والاندفاع الجماهيري زخماً قوياً بلغ ذروته خلال الحرب نفسهـا ، ثم أخذ يتناقص بعد توقف القتال ، وخلال مباحثات فصل القوات ، بسبب تحفظات العراق وليبيا على الاستراتيجية السياسية العامة التي تبنتهـا مصر وسورية – بنسب متفاوتة – ودعمتها السعودية والجزائر والمغرب والكويت.

وبسبب الموقف الاردني من منظمة التحرير الفلسطينية ، ومحاولات الأردن لتجميد قرار مؤتمر القمة في الجزائر، والقاضي باعتبار المنظمة « الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني » وإفراغ هذا القرار من محتواه[١] . ولكن التلاحم العربي يبقى اليوم أقوى مما كان عليه قبيل حرب تشرين الأول (اكتوبر) ، وهو مؤهل لأن يغدو أشد قوة في حالة ارتفاع حرارة الأزمة ، والانتقال الى مرحلة الصدام .

الجانب العسكري :

يشمل هذا الجانب الوضع العسكري من كل زواياه، المعنوية، والتسليحية، والتنظيمية ، والقيادية ، والطبوغرافية ، لأن هذه العوامل تدخل ، بأشكال متعددة ، ونسب متفاوتة ، في تقييم الوضع الاستراتيجي العام .

خرجت الجيوش العربية من حرب ١٩٧٣ بخبرة قتالية عالية لم تستطع اكتسابها في الحروب السابقة ، فلقد قامت اسرائيل في عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧ بحربيها بعد أن أعدّت الظروف الاستراتيجية الملائمة لتحقيق النجاح الكامل (تحالف مع بريطانيا وفرنسا في ١٩٥٦ ، وتسديد ضربة مفاجئة وساحقة للطيران العربي الجاثم على الأرض في ١٩٦٧) . لذا دارت العمليات في هاتين الحربين من جانب واحد تقريباً ، وكانت ادارة الحرب العربية ردود فعل لمبادرات الاسرائيليين . ولم تستطع النجاحات التكتيكية التي حققتها بعض المواقع أو الوحدات العربية ، أن تتراكم وتبدل مجرى الحرب ، لأنها تمت بشكل غير منسق ، ووسط انهيار استراتيجي عام . أما في العام ١٩٧٣ فقد جرت الحرب كما يجب أن تكون الحرب : عمليات خرق ، هجمات معاكسة ، صد ، رد ، تملص ، تطويق . وتم القتال في أوضاع استراتيجية متوازنة الى حد ما ، لذا كانت هناك مبادرات من الطرفين، ومعارك تستحق هذا الاسم، لأنها تجري بين قوات متكافئة تأمل بتحقيق النصر ، لا بين قوات ضامنة

---

(١) نلفت انتباه القارىء الكريم إلى أن المقال كتب ونشر قبل عقد مؤتمر القمة السابع في الرباط .

لكل معطيات النصر من جهة ، وقوات منهارة استراتيجياً منذ بدء القتال من جهة أخرى . لهذا كله يمكن القول اليوم ، ان الجيشين المصري والسوري والوحدات العربية التي دعمتها خلال الحرب، قد اكتسبت خبرة قتالية لا تقل عن الخبرة التي اكتسبها الاسرائيليون . كما ان القيادات العربية العملياتية والميدانية ، ومختلف انساق ومراتب الشؤون الادارية ، قد تعلمت دروساً عملية هامة ، كانت القيادات الاسرائيلية تحتكر معرفتها . ويعتبر هذا الأمر برمّته – على صعيد الصراع العربي الاسرائيلي – تحولاً لصالح العرب ، الذين أخذت جيوشهم تنافس جيش العدو في ميدان كان يحتكره لنفسه .

ولقد خرج الطرفان بعد الحرب بمجموعة من الدروس والملاحظات والأخطاء ووضعا الحلول العملية لها ، وعدّلا بعض التشكيلات والتكتيكات والتدابير المتخذة على صعيد التسليح والقيادة والاتصال والادارة اللوجيستيكية . وقاما بالمناورات والتمارين العملية لاختبار التعديلات الجديدة قبل تبنيها نهائياً واعتمادها في الحرب الخامسة . لذا فإن من المحتمل أن تكون ادارة التعبئة ، والعمليات ، والمعارك ، في أية حرب مقبلة ، أفضل مما كانت عليه في الحرب الرابعة . ولا يمكننا أن نحدد هنا من هو الطرف الذي تعلّم من التجارب والأخطاء أكثر من الطرف الآخر ، فهذا أمر مرتبط بديناميكية القيادات ، وموقفها النفسي إزاء مسألة التعلم ، ومستوى الهيئات المكلفة باستخلاص الدروس واستنباط الحلول ، ودور الخبراء (السوفيات أو الأميركيين) في هذه العملية . بيد أن هناك عاملاً واحداً يدعو الى القلق والحذر ، وهو ان القيادات الاسرائيلية التي تعرضت للهزيمة في الأيام الاولى من الحرب ، تعيش حالة ذهنية تساعدها على التعلم أكثر من القيادات العربية التي حققت الانتصارات . ولولا ثغرة الدفرسوار وجيب سعسع وسقوط قمة جبل الشيخ في اليوم الأخير للحرب ، لكان مناخ التعلم في الجيش الاسرائيلي أفضل بكثير من مناخ التعلم في الجيشين المصري والسوري ، ولكن وقوع هذه الأحداث يبقى ، رغم سوئه ، عاملاً مساعداً لتعديل مناخ التعلم في المعسكر العربي ، وسلبية يمكن الوصول منها الى نتائج إيجابية .

وتعتبر النتائج المعنوية من أبرز التحولات الناجمة عن حرب ١٩٧٣ ، فلقد حطم الجندي العربي – كما ذكرنا في الدراسة التاسعة – حاجز الخوف وعقدة التفوق الاسرائيلي، واكتشف على أرض المعركة أن القوات المسلحة الاسرائيلية، قوات منظمة ومسلحة ومدرّبة ومقادة بشكل جيد ، ولكنها تبقى رغم ميزاتها قوات عادية غير أسطورية ، فهي تخطىء ، وتنسحب ، وتنهزم ، وتتكبد الخسائر ، وتترك قتلاها وجرحاها على أرض المعركة ، ويستسلم جنودها عندما يحاصَرون، ويتبادل قادتها الشتائم والاتهامات بواسطة اللاسلكي عندما يسوء الوضع وتنعدم حرية العمل . والأهم من ذلك كله ، أن الحرب الرابعة التي لم تحرر الأرض المحتلة مادياً ، قد حررت القوات المسلحة العربية من عشرات الأوهام التي حاول العدو ترسيخها في النفوس خلال ٢٥ عاماً . وأكدت لهذه القوات أن لواء النصر معقود – على المدى التاريخي – لقوات المعسكر العربي .

ويختلف الوضع على الجانب الاسرائيلي . فلقد فقدَ الجندي الاسرائيلي ثقته المطلقة السابقة بقياداته ، وأكدت له نتائج تحقيق « لجنة أغرانات » ، أن هذه القيادة ارتكبت أخطاء مأساوية بسبب غرورها، وعماها الاستراتيجي، وعجزها عن رؤية التحولات المحلية والعالمية ، ومحاولاتها الخاطئة لتفصيل استراتيجية عسكرية تتلاءم مع أطماع السياسيين لا مع حقائق موازين القوى. وعاش الجندي ، بالإضافة الى ذلك ، الأخطاء التكتيكية واللوجيستيكية بكل قسوتها ، عندما ذهب الى القتال مع وحدات غير متكاملة الكادر ، أو قاتَل في دبابات غير مصانة تكنولوجياً ، أو عاش الشتاء في منطقة جبل الشيخ والجولان بألبسة صيفية ، أو تحركت وحدته الى الخط الأمامي دون أن تحمل معها الكميات اللازمة من معداتها وذخائرها ومحروقاتها وتجهيزاتها الطبية، أو سقط في الأسر، لأن القيادة التي غسلت دماغه سنين طويلة، وأقنعته بأنها ستحافظ عليه وتنقذه في المواقف الصعبة، تخلت عنه في اللحظة الأخيرة[1].

(١) هناك أمثلة حية على مثل هذه الأخطاء ذكرها مؤلفو كتاب التقصير (هامحدال) المذكور سابقاً .

ولم يكتشف الجندي الاسرائيلي الخلل في معسكره فحسب ، ولكنه اكتشف أيضاً أن الجنود العرب ، الذين رسمتهم ألبومات حرب ١٩٧٦ رافعي الأيدي حفاة الأقدام مطأطئي الرؤوس ، هم جنود منظمون ومقاتلون ، يهاجمون الدبابات بالقواذف الصاروخية من مسافة قريبة ، ولا ينسحبون بدون انتظام ، ويتشبثون بالأرض أمام هجمات المدرعات المدعومة بغطاء جوي ، ويعبرون الحواجز الطبيعية والاصطناعية بكفاءة عالية ، وينصبون الكمائن في عمق مسرح العمليات لمنع الإمدادات والقوات الاحتياطية من الوصول الى النسق الأول .

والأخطر من هذا كله ، أن الحرب الرابعة ، وما تلاها من فصل للقوات، وانسحاب من المناطق التي تم احتلالها في حرب ١٩٧٣ ، ومن بعض المناطق المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، والتي طالما ردد القادة الاسرائيليون بأنهم لن يتخلوا عن شبر منها، قد أقنعت الجندي الاسرائيلي بأن الحرب الرابعة، وكل حرب عربية – اسرائيلية، هي حرب «غبية»، **لأن أي انتصار تكتيكي فيها ينفتح في النتيجة على فشل استراتيجي**، طالما أن العرب يزدادون مع الأيام قوة ، وطالما أن حسم النزاع مع العرب بالوسائل العسكرية أمر متعذر ، وطالما أن نصر ١٩٦٧ الباهر لم يستطع إركاع العرب ، بل دفعهم الى تجنيد عشرات الفرق ، وحشد آلاف الدبابات والطائرات والمدافع لشن حرب رابعة ، وطالما أن عبور القناة الى الضفة الغربية ، والوصول الى مشارف سعسع انتهيا الى خسارة زملائه الذين سقطوا على الطريق الوعرة، والى انسحاب الى ما وراء الخط البنفسجي . ثم جاء التضامن العربي، وبدء الحرب الشاملة الاقتصادية – العسكرية ، وإمكانات الخنق الاستراتيجي ، وتزايد ثروة العرب ، وما يعنيه هذا التزايد من احتمالات تضاعف القوة العسكرية العربية بشكل غير محدود ، ومحدودية الوزن البشري – الاقتصادي – الجغرافي الاسرائيلي ، وعدم قدرة اسرائيل على زيادة هذا الوزن بشكل مفاجىء رغم المساعدات الاقتصادية الأميركية وبرامج التنمية الداخلية ومساعدات الصهيونية العالمية وقدوم

المهاجرين الجدد من البلدان الاشتراكية [١] ، وضآلة هـذا الوزن بالنسبة الى الوزن المعاكس العربي . وأدت كل هذه العوامل الى اقتناع الجندي الاسرائيلي بأن قهر الأمــة العربية تاريخياً ، وحسم النزاع العربي – الاسرائيلي لصالح الدولة الصهيونية أمر مستحيل . وهذا يعني أن أية حرب تشن لتحقيق هذه الغاية « حرب بلا معنى » حتى ولو تحقق فيها النصر العسكري البحت .

أما بالنسبة الى ميزان القوى ، فقد أظهرنا في الدراسة العاشرة أنه لم يعد مائلا لصالح اسرائيل ، وهذا وضع جديد في الصراع العربي – الاسرائيلي الذي كان ميزان القوى فيه دائماً لصالح العدو الصهيوني . بيد أن ميزان القوى المذكور آنفاً ميزان أولي يمكن الاعتماد عليه في أيام الصدام الاولى فقط . ولكن هذا الميزان قابل للتعديل بفضل المشاركة العربية التي يمكن الاعداد لها منذ الآن لتكون مجدية وفعالة بعد عدة أيام من بدء القتـــال . وتملك قوات الدول العربية البعيدة عن بؤرة الصدام (العراق، الجزائر ، ليبيا ، السعودية، المغرب) قوات برية وجوية ، يمكن الافادة منهـا واستخدامها على مسرحي العمليات الشمالي والجنوبي . ولقد أثبتت الحركة الاستراتيجية التي قامت بهـا القوات البرية العراقية والجزائرية والمغربية والليبية خلال حرب تشرين الأول (اكتوبر) ، والدور القتالي الذي لعبته ، ان القوات العربية البعيدة لم تعد خارج نطاق النزاع العربي – الاسرائيلي . كما أثبت اشتراك الطائرات الليبية « ميراج – ٥ » في المعركة على الجبهة المصرية أن جميع الأسلحة العربية مؤهلة لدعم دولتي المجابهة (مصر وسورية) .

وليست الجبهتان الشمالية والجنوبية مسرحي الصدام الوحيدين،فلقد أزالت حرب تشرين الأول (اكتوبر) القسط الأكبر من التأثير الردعي لحرب ١٩٦٧

---

(١) ان العدد الأقصى الذي تأمل اسرائيل وصوله من المهاجرين السوفيات سنوياً هو ٣٠ الف شخص ، أما الهجرة من البلدان الأوروبية وأميركا فهي محدودة جداً ، وهناك بوادر هجرة معاكسة نحو الولايات المتحدة وأوروبا تضم عـــدداً من المهاجرين الغربيين السابقين والمهاجرين السوفيات أيضاً .

على القيادة الاردنية ، ورفعت مستوى الضغط الجماهيري الاردني على هــذه القيادة للمشاركة في القتال ، الأمر الذي دفع القيادة الاردنية الى ارسال اللواء المدرع الأربعين للعمل ضمن اطار الجبهة السورية وتحت قيادتها . بيد أن هذه المشاركة الجزئية لم ترض الجماهير الاردنية ، ولم تقنع عدداً كبيراً من الضباط الوطنيين في الجيش الاردني . ومن المنتظر أن تضغط القوى المدنية–العسكرية الوطنية الاردنية في الحرب الخامسة على السلطة الحاكمة ، وتجبرهـا على فتح الجبهة الشرقية ، وفي ذلك اضافة كمية ونوعية ملحوظة للقوات العربيــة ، نظراً لكبر القوات المسلحة الاردنية[١] ، وارتفاع مستواها التدريبي والقتالي.

والعامل العسكري الأخير الذي تبدّل بعد الحرب الرابعة هو الأرض . إذ لم يعد أمــام الجيش المصري حاجز مائي لا بد من اجتيازه تحت النار . وأصبحت القوات المصرية تسيطر على ضفتي القناة . ويمكنها في حالات التوتر نقل قوات برية كافية الى الضفة الشرقية ، إلا اذا قام العدو بضربة سريعة مفاجئة اجتاح بهــا القوات المصرية المحدودة المنتشرة في « منطقة القوات المخففة » [٢]. وتتمتع اسرائيل في هذا المجال بميزة كبيرة ، إذ ان بوسع قواتها غير المحدودة المتمركزة في منطقة الممرات شن هجوم مفاجىء بدون عقبات مادية ، على حين أن القوات المصرية غير المحدودة المتمركزة على الضفة الغربية للقناة ستجد عند قيامها بمثل هذا الهجوم ان وتيرة الهجوم محددة بقدرة الجسور ووسائط العبور الأخرى، وامكانية انتقال القطعات عليها. ولا تزال اسرائيل مسيطرة على المرتفعات المشرفة على سطح هضبة الجولان، وبوسعها حشد قواتها على المنحدر المعاكس للهضبة في مأمن من أنظار القوات السورية . وتتمثل نقطة الضعف

---

(١) تضم القوات المسلحة الاردنية ٦٨ ألف جندي ، و ٤١٠ دبابات ، و ٩٠ طائرة مقاتلة ، ومئات المدافع والعربات المدرعة . ويعتبر الاردن رابع قوة برية عربية بعد مصر وسورية والعراق ، وخامس قوة جوية عربية بعد مصر وسورية والعراق وليبيا .

(٢) تقع هذه المنطقة على الشاطىء الشرقي لقناة السويس ، وتفصلها عن منطقة القوات المخففة الاسرائيلية منطقة ترابط فيها قوات الطوارىء الدولية بناء على اتفاق فصل القوات على جبهة سيناء .

الجغرافية الاسرائيلية الوحيدة في أن أي هجوم سوري سريع يحتل خط المرتفعات سيجعل القوات السورية في مواقع مشرفة حاكمة ، ويجعل كبد القوات الاسرائيلية المتمركزة على المنحدر المعاكس في وضع طوبوغرافي سيء .

* * *

لقد بدلت حرب تشرين الأول (اكتوبر) الوضع الاستراتيجي الذي كان قائماً قبلها . وشمل التبدل كل العوامل الاستراتيجية السياسية ، والنفسية ، والاقتصادية ، والتسليحية ، والتدريبية ، والقيادية ، والجغرافية . وكان التبدل بمجمله لصالح المعسكر العربي ، الذي « قضم » جزءاً من القوة المادية والمعنوية للمعسكر المعادي ، وعزز مواقعه الذاتية المادية والمعنوية والجغرافية . ومهما كان حجم المنجزات الاستراتيجية التي حققها العرب في هذه الحرب ، فإنهم حصلوا عليها دون أن يتنازلوا عن أهدافهم السياسية العليا ، ويمكنهم أن يحققوا منجزات أخرى في جنيف ، وستتراكم تأثيرات هذه المنجزات الكبيرة والصغيرة ، وتعدل الوضع الاستراتيجي في المنطقة لصالح العرب مع الزمن ، شريطة أن لا يكون ثمن أي انجاز – مهما كان كبيراً – تخلي المعسكر العربي عن حقه التاريخي بأرض الوطن .

١٢ - في الحرب والسلام (*)

« يولد كل شيء ويفنى بفضل الصراع . ان صنع القوس هو الحياة . ولكن تأثيره يؤدي الى الموت » .
(هيراكليت ٥٤٠–٤٨٠ ق. م.)

تعيش منطقة الشرق الأوسط اليوم مرحلة جديدة من مراحل الصراع ، تتسم بأنها مرحلة وسطية بين الحرب والسلام . إذ لا يزال السلام ، رغم كل ما يبذل لتحقيقه من جهود ، أملاً بعيد المنال ، يتحدث عنه الجميع ، وتبحث عنه كل القوى المهتمة بالصراع أو المشاركة فيه ، دون أن يتم التوصل الى نقاط لقاء ، لأن مفاهيم السلام بالنسبة الى الأطراف المتعددة ، متباينة متناقضة بشكل يجعل مجرد الحديث عن السلام مقدمة منطقية تكشف الاحتمالات الكبيرة لاندلاع الحرب من جديد .

وتعكس مفاهيم السلام المنشود في الشرق الأوسط حقيقة مصالح أصحابها . فالسلام الأميركي يعني تجميد حالة النزاع ، ومنح الدول العربية بعض المكتسبات الاقليمية والاقتصادية ، وحل قضية الفلسطينيين عن طريق استيعابهم داخل كيان مقلّم الأظافر ، وحماية الوجود العدواني الصهيوني بالضمانات الدولية ، مع الحفاظ على اسرائيل « الأقوى » من جيرانها كعامل تهديد دائم كامن للدول العربية المجاورة .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة الشورى ، العدد السابع ، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، ص ٧٧–٨١ .

ويستهدف هذا السلام أربعة أهداف : ١ – حماية المصالح الأمريكية – البترولية أساساً – عن طريق الترغيب (المساعدات) ، والترهيب (اسرائيل القوية) ، ٢ – التقارب مع العرب الى أبعد حد ممكن ، بعد افهامهم بأن مصالحهم وأمنهم ومخططات تنميتهم تمر عبر واشنطن لا عبر موسكو ، الأمر الذي يؤدي الى ابتعاد الدول العربية ، أو بعضها ، عن الاتحاد السوفييتي ، ويقلص الوجود السوفييتي في المنطقة ، ٣ – تخفيف حدة التوتر في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط الحساسة بشكل يمنع احتمالات وقوع صدام مباشر أو غير مباشر مع الاتحاد السوفييتي الراغب في تثبيت وجوده في المنطقة ، ٤ – اقتناص انجاز «سلمي» جديد ، يضاف الى رصيد الادارة الأمريكية .

ويختلف السلام السوفييتي في طبيعته وأهدافه عن السلام الأمريكي . وهو يعني تجميد حالة النزاع تحت مظلة الضمانات الدولية لدول المنطقة ، بعد أن تتخلى اسرائيل عن جميع الأراضي التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ ، وموازنة القوة العسكرية الاسرائيلية بقوة عسكرية عربية تمنع اسرائيل المقزّمة – عسكرياً وجغرافياً – من التوسع والعدوان . ويستهدف هذا السلام أربعة أهداف : ١ – حماية حركة التحرر العربي والسماح لها بالنمو والتطور الطبيعيين حتى تتمكن في المستقبل من تهديد المصالح الامبريالية وراء درع مسلّح عربي قوي يمنع اسرائيل من تنفيذ دورها المعوّق ، ووراء درع سوفييتي ، يحرم الولايات المتحدة من امكانات التدخل بنجاح إذا ما فشلت اسرائيل في لعب دور الشرطي ، ٢ – مشاركة الولايات المتحدة في تخطيط مستقبل المنطقة بشكل يحرم واشنطن من «وحدانية» العمل والتأثير ، ويحافظ على وجود سوفييتي قوي في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، والخليج العربي ، وبحر العرب ، ٣ – تخفيف حدّة التوتر في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط الحساسة بشكل يمنع احتمالات وقوع صدام مباشر أو غير مباشر مع الولايات المتحدة التي تملك في المنطقة العربية مصالح كبيرة لا تنوي التخلي عنها بسهولة (هنا يلتقي الهدف السوفييتي مع الهدف الأميركي) ، ٤ – دعم الادارة الأميركية التي بنت سياستها الخارجية على الوفاق الدولي مع السوفييت (هنا أيضاً يتفق الهدفان الأمريكي والسوفييتي) .

أما السلام الاسرائيلي فهو يعني تهدئة المنطقة بعد اخضاع العرب ، ومشاركة الامبريالية في استغلال حالة التهدئة ونهب الثروات العربية . ويسود الاعتقاد ان هناك سلامين اسرائيليين : سلام « الصقور » وسلام « الحمائم » . والحقيقة ان هناك سلاماً اسرائيلياً واحداً وسبيلين لتحقيق هذا السلام . ان «الصقور» يعتقدون بأن السبيل الى اخضاع الأمة العربية هو الاحتفاظ بالمناطق المحتلة باسم ضرورات الامن ، وتحطيم القوة العسكرية العربية وحرمانها من أي أمل بالنصر في ساحات القتال ، وتجاهل الشعب الفلسطيني وتشريده أو إبادته ، واستخدام الأسلوب القمعي العنيف المباشر في التعامل مع العرب ، والحفاظ على نقاء الدولة الصهيونية ، والاستغناء عن العمل العربي ، والاعتماد في بقاء الدولة على القوة الذاتية والحدود الآمنة بدلاً عن الضمات الدولية ، والاعتماد على الصهيونية العالمية ويهود الولايات المتحدة لرفض الخضوع لأي ضغط أمريكي محتمل . أما « الحمائم » فيرون ان اخضاع الامة العربية بقوة السلاح أمر غير مجدي ، بل وغير ممكن ، وان مجابهة القوة بين الصهيونية ، بمفهومها التقليدي الاستعماري ، والامة العربية التي تعيش فترة نهوض قومي ، وتطمح الى التحرر والوحدة ، وتمتلك قوة اقتصادية هائلة تؤهلها لامتلاك القوة السياسية والعسكرية والتكنولوجية ، هي مجابهة خطرة تهدد وجود دولة اسرائيل بأسره . ويستنتجون من ذلك ان السبيل الى بقاء اسرائيل هو اخضاع العرب عن طريق احتواء حالة العداء ، وتخفيفها الى الحد الأدنى ، واجراء صلح سريع يضمن للفلسطينيين الاعتراف بوجودهم ، ويمنحهم بعض حقوقهم ، ويساعد على التعاون الاقتصادي معهم ، ويقدم للدول العربية تنازلات اقليمية واسعة تلغي الوضع الاستفزازي المتمثل باحتلال المناطق وبناء المستوطنات فيها ، مع ضمان أمن اسرائيل بالقوة الذاتية المحمية بضمانات دولية امريكية – سوفييتية – اوروبية * .

* يتحدث اليسار الاسرائيلي بلغة مختلفة عن لغة « الصقور » و « الحمائم » ، ويطرح السلام المبني على الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، والاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه في بناء دولة مستقله . ولكن ضعف هذا اليسار يجعله حتى الآن تياراً محدود التأثير في السياسة الاسرائيلية العامة .

وهكذا نرى ان السلام الاسرائيلي يستهدف إيجاد الظروف الملائمة لبقاء الدولة الصهيونية ، والحفاظ على القاعدة الامبريالية في المنطقة ، سواء تحقق ذلك الهدف عن طريق القوة الذاتية المباشرة والعنف المتصاعد ، أم عن طريق توقف تصعيد العنف – الذي لم يعد مجدياً – والاحتماء وراء الضمانات الدولية والتعايش السلمي .

ولا يختلف هدف سلام « الصقور » في جوهره عن هدف سلام «الحمائم» ، وإن اختلفت وسائل بلوغها ، لأنهما يعنيان معاً تكريس العدوان الصهيوني على أرض العرب ، والحصول على اعتراف عربي وفلسطيني لاغتصاب الأراضي المحتلة في العام ١٩٤٨ أو لأية أراض اضافية اخرى (سواء كانت هذه الأراضي الاضافية عربية أم فلسطينية) ، واعتبار هذا الاعتراف مدخلا لعلاقات اقتصادية وسياسية جديدة بين دول المنطقة .

ويتعارض مفهوم السلام العربي مع مفهوم السلام الاسرائيلي بشكليه « الصقري » و « الحمائمي » . وينبع الرفض العربي للسلام الاسرائيلي من فهم جذور الصهيونية وطبيعتها ومراميها،والإيمان المطلق بأن الأساليب الاسرائيلية ذات المظهر « الانساني » لا تستطيع أن تكون انسانية حقاً ما دام هدفها غير انساني . وأن الهدف الانساني الوحيد المقبول هو عودة الحق الى أصحابه الشرعيين ، الأمر الذي ترفضه الصهيونية بفرعيها المتحجر والمستنير ، لأنه يتعارض مع جوهر وجودها ، ويلغي احتمالات بقائها .

ولا يمكن القول ان هناك في الوقت الحاضر ، مفهوماً عربياً واحداً للسلام . واننا لنجد في الحقيقة أربعة مفاهيم : ١ – السلام المبني على حصول الشعب الفلسطيني على حقه التاريخي وسيادته على كامل تراب الوطن بعد تصفية الدولة الصهيونية كلياً ، وإعادة فلسطين عربية خالصة ، ٢ – السلام المبني على التعايش بين العرب واليهود على أرض فلسطين داخل دولة ديمقراطية شرق أوسطية ، بعد تصفية البنية الصهيونية لدولة اسرائيل ، ٣ – السلام المبني على حصول الفلسطينيين على «الحق الراهن» في «الوضع الراهن»، وتقزيم

الدولة الصهيونية وتطويقها داخل حدود ١٩٤٨ بقوة عربية رادعة ، بعد اجبار الاسرائيليين على الانسحاب (سلماً أو حرباً) من الأراضي التي احتلوها في العام ١٩٦٧ ، واستخدام كافة الوسائل والضغوط لتفكيك أواصر الارتباط العضوي بين اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، ٤ – السلام المبني على قرار التقسيم (١٩٤٧) الذي يضمن وجود دولتين متجاورتين تضمن الدول العظمى حدودهما وسلامة أراضيهما .

وبالرغم من تباين هذه المفاهيم واختلافها ، فإنها تلتقي عند نقطة جوهرية هي : **رفض العدوان المادي والمعنوي ، ونبذ الجسم الصهيوني الغريب المزروع على أرض العرب ، والسعي الى تقليص الدولة المعتدية ، واحتواء الحملة الصليبية الجديدة ، تمهيداً لتصفية بنيتها العدوانية العنصرية « فوراً » أو « على مراحل »** .

انطلاقاً من هذه المفاهيم المتعددة والمتباينة للسلام، تتحدث جميع الأطراف المعنية عن السلام « الدائم والعادل » ، رغم أن جميع الشواهد والظروف الملموسة تؤكد ان السلام الذي سيتم التوصل إليه في ظل الأوضاع الدولية الراهنة وموازين القوى الفعلية العالمية والمحلية ، لن يكون « عادلاً » أو « دائماً » . ولن يكون أكثر من هدنة بين حربين، ومرحلة هادئة من مراحل الصراع ، وفترة استعداد لحرب مقبلة . إذ كيف يمكن الوصول الى سلام « عادل » وبالتالي « دائم » اذا لم تعد الأرض الى أصحابها ، ولم يستعد أصحاب الحق حقهم المغتصب ؟ وكيف يمكن إعادة الأراضي الى مالكيها وإعادة الحق الى نصابه مع الحفاظ على جوهر الصهيونية ؟

ان المعادلة مستحيلة ، والتناقض الكامن وراء الصراع تناقض جذري ومصيري ، وهدف النزاع كبير الى الحد الأقصى . فهو يعني بالنسبة للطرفين المتنازعين « الوجود أو اللا وجود » . ومن هنا تنبع استحالة حل النزاع العربي – الاسرائيلي بأنصاف التدابير وبالحلول الوسطية . ان النزاع العربي – الاسرائيلي لا يمثل نزاعاً على حدود أو مصالح جزئية أو مناطق هامشية ،

ولكنه يمثل تصادم شعبين في سبيل الحيـاة ، وصراع مجتمعين متكاملين على أرض واحدة ، يدّعي كل مجتمع منهما حقه التاريخي بالوجود عليها ، ويعتبر عدم الحصول على هذه الأرض – بكل مـا تمثله من معان اقتصادية وتاريخية وروحية – انهاء لوجوده وتصفية جسدية تاريخية له .

إن ضخامة التناقض العربي – الاسرائيلي عامة، والفلسطيني – الاسرائيلي بصورة خاصة ، وعنف الصراع الدائر كله، والاتجاهات المنظورة التي يأخذها الحل حتى الآن، تدفعنا الى الاعتقاد بأن ما سيتم التوصل اليه – بكل صعوبة – في جنيف لن يكون سوى حل مؤقت ، لا ينهي حالة النزاع ، وسيحمل هذا الحل في رحمه بذور حرب خامسة مقبلة بشكل حتمي .

وما دامت الحرب الخامسة محتومة ، فإن من الضروري الإعداد لهـا منذ الآن ، وخلق الظروف اللازمة للانتصار فيها . وتظهر أهمية الإعداد للحرب المقبلة ، اذا عرفنا أن الصهيونية ستحاول المراوغة بعد فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية ، وستطيل الجدل حول فصل القوات على الجبهـة الاردنية ، وستحاول إدخال العالم في دوامة جدل بيزنطي لا تنتهي قبل أن تقبل بالتخلي عن هضبة الجولان بموقعها الاستراتيجي الهـام ومصادر مياهها الحيوية ومستوطناتها السبع عشرة . وقبل أن تقبل بالانسحاب من سيناء ، وما تمثله من مجال مناورة هام وثروة بترولية ثمينة تقدر قيمتها السنوية اليوم بـ ٣٠٠ – ٣٥٠ مليوناً من الدولارات ، ناهيك عن الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، والموافقة بعد ذلك على وجود سلطة وطنية على الأراضي الفلسطينية التي يتم الانسحاب منها .

ومن الطبيعي أن يدفع الموقف الاسرائيلي المتعنت مبادرات السلام الى طريق مسدود . وفي هذه الحالة ستلعب ميكانيكية الحرب والسلام دورها ، وستلجأ الأطراف المتنازعة، التي فشلت في تحقيق أغراضها بالأساليب السياسية، الى أسلوب آخر من أساليب الحوار السياسي ، هو أسلوب الحرب . وقـد تكون الحرب محدودة أو شاملة . وقد تشنها الدول العربية التي أعلنت أكثر

من مرة أن عدم الانسحاب من جميع الأراضي العربية ، وعدم حصول الشعب الفلسطيني على حقوقه يعني العودة الى الحرب . وقـد تشنها اسرائيل نفسها لاستعادة التوازن النفسي الداخلي، واستعادة الثقة الاميركية بقدرتها على لعب دور قمعي في المنطقة . وستكون حجتها عندئذ إجهاض هجوم عربي منتظر، تعدّ الدول العربية العدة لشنه . ولقد صرّح الزعماء الاسرائيليون أكثر من مرة بأن الضربة المفاجأة ليست احتكاراً للعرب ، وأنهم لن يسمحوا للدول العربيـة بعد الآن بأخذ المبادرة الهجومية . وستتوصل الدول الكبرى الى إيقاف الحرب الخامسة مهما كانت نتيجتها ، وقـد تتوصل الى حل سلمي ، ولكنها ستبقى عاجزة عن إيجاد الحل الجذري « العادل والدائم » الذي يحسم الصراع تاريخياً ، ويحل عقدة التناقض العربي – الاسرائيلي، طالما أن موازين القوى العـالمية لا تسمح بإيجاد حل يستأصل سبب النزاع . وسيكون السلم المفروض بعد الحرب الخامسة قلقاً هشاً كالسلم الذي يمكن فرضه بعد الحرب الرابعة ، وسيكون ذلك السلم فترة الاستعداد لحرب سادسة .

إن هذا الترابط العضوي والجدلي بين الحرب والسلام في الشرق الأوسط يجعل الحديث عن الحرب والإعداد لها جزءاً من الحديث عن السلام، وأسلوب من الأساليب العنيفة المؤدية الى السلام . وهنـا تكمن مأساوية مسألة النزاع العربي – الاسرائيلي الذي لا يمكن حسمه تاريخيـاً إلا عن طريق أكثر النشاطات البشرية هولاً ودماراً – الحرب. وهنا أيضاً يكمن الجانب الحضاري والانساني لهـذه الحرب رغم تناقض الحرب المدمرة مع الحضارة والانسانية وتهديدها لهما .

إن حضارة الحرب التحررية العربية وإنسانيتها ينبعان من أنها تستخدم العنف العادل ضـد العنف الاستعبادي غير العادل . وهي لا تستهدف من استخدام العنف سوى تحرير الانسان العربي من القهر الصهيوني ومساعدته على استعادة انسانيته التي تحاول أساليب القهر المادي والمعنوي انتزاعها منـه . ولا يقتصر التحرير هنـا على تحرير المقهورين وحدهم ، ولكنه يشمل تحرير

القاهرين أنفسهم ، لأنـه ينقذهم بالعنف من أساليبهم القمعية اللاانسانية التي يطبقونها بوعي أو بدون وعي ، فيجردون أنفسهم من القسط الأكبر من إنسانيتهم (فانون) .

والإعداد للحرب التحررية وشنها لا يعنيان بالضرورة العدوان ، ولكنهما يجسدان بالنسبة الى الشعوب المقهورة رفضاً للعدوان ونضـالاً ايجابياً ضده ، وهما لا يتعارضان مع البحث عن السلام، بل يساعدان على تحقيقه ، لأن الأمة القوية المنيعة تجد في قوّتها سياجاً يحميها من العدوان ، ويردع الخصم عن شن الحرب لتحقيق أغراض لا تتناسب مع الخسائر التي سيتعرض لها عند صدامه مع القوة المسلحة لهذه الأمة. على حين تبقى الأمم الضعيفة هدفاً سهلاً يستثير شهوة المعتدين ، ويدفعهم الى شن الحروب .

واذا كان إعداد القوة الرادعة كافياً بالنسبة الى الدول غير المعرّضة مباشرة للعدوان ، فهو لا يكفي مطلقاً بالنسبة الى أيـة دولة خاضعة بالفعل لعدوان مادي أو معنوي مباشر. ولا بد أن ترافقه في هذه الحالة الدعوة لشن الحرب. واذا كانت الدعوة الى الحرب عمـلاً لا أخلاقياً في الدول القوية غير المعرّضة للقهر ، فإن الدعوة للسلام — سلام الضعفاء — في دولة معرّضة للقهر عمل لا أخلاقي ، لأنها دعوة الى سلام العبيد .

إن القيمـة الأخلاقية والإنسانية الكامنة في الدعوة الى السلام أو الحرب قيمة نسبية تتعلق بعدالة الحرب المطلوب خوضها. فإذا كانت الحرب المنشودة عادلة ، كانت الدعوة اليها أخلاقية وإنسانية ، واذا كانت هـذه الحرب غير عادلة أصبحت الدعوة الى السلام أخلاقية وإنسانية . ولا يعني هذا القول أن هناك منظارين لرؤية الحقائق ، ولكنه يعني أن هناك منظاراً واحداً يفرز الحقائق ، ويحدد العادل وغير العادل ، ويحدد المواقف بناء على هذا الفرز .

ومن المؤكد أن سلام الأحرار أصعب منـالاً من سلام العبيد . ولن يتم الوصول في منطقتنا الى الأول إلا عن طريق الحرب . وعندما تطرح ظروف العدوان المعادلة الصعبة على أمة مقهورة يصبح من واجب هذه الأمة أن تقوم

باختيار تاريخي يحدد السبيل الذي ستسلكه خـلال سنوات طوال . وليس أمامها في هذه الحالة سوى سبيلين: سبيل بيتان وثيو وكيسيلينغ وسينغمان ري، أو سبيل جورج واشنطن ، وخوزيه ، وديغول ، وجياب .

إن دراسة الغزوة الصهيونية منذ مطلع هذا القرن، ومقارنتها مع الغزوات الاستعمارية في التاريخين القديم والحديث، ومع تاريخ الحروب الصليبية بصورة خاصة ، تؤكد أنه اذا لم تحصل معجزة تنتزع من الصهيونية طابعها العدواني التوسعي، وتجرّدها من عنصريتها، فإن الحرب العربية — الاسرائيلية الخامسة واقعة حتمـاً ، وستعقبها حرب سادسة وسابعة ، حتى تتم تصفية الغزاة . هذا هو قدر الأمة العربية، وقدر كل شعوب العالم المقهورة المحرومة من حقها في تقرير المصير ، والمكرهة على شن الحرب لاقتلاع العـدوان الذي رسّخ أقدامه على أرضها، والمضطرة الى العيش طويلاً في مرحلة «السيف والمحراث» قبل أن يستطيع أبناؤها تحطيم سيوفهم ليصنعوا منها محاريث .

١٣ ـ استراتيجية المستقبل العربية
في ضوء الحرب الرابعة (*)

« الحرب معلم عنيف للحقيقة »
(شارل موراس)

تعتبر الحرب الرابعة منعطفاً هاماً في الصراع العربي – الاسرائيلي . فلقد تركت آثاراً معنوية واقتصادية وعسكرية على جانبي الخندق ، وقدّمت الى الطرفين المتنازعين دروساً هامة على مختلف الأصعدة ، ولا يمكن أن يمر هذا الحدث التاريخي الهام دون أن يؤثر على العقيدتين العسكريتين العربية والاسرائيلية ، أو دون أن يطرح ضرورة إجراء تعديلات جذرية على الصعيد الاستراتيجي. وتدل الدراسات العسكرية الاسرائيلية التي ظهرت بعد الحرب أن هناك توجهاً جاداً لإعادة النظر في الاستراتيجية العسكرية الصهيونية التي أرسى بن غوريون أسسها ، ثم أدخل عليها ييغال يادين ، وييغال آلون ، وموشي دايان ، وشمعون بيريس ، وحاييم بارليف ، وغيرهم ، الكثير من التعديلات المتلائمة مع مجمل التحولات والحقائق وموازين القوى المحلية والعالمية، دون أن تلامس هذه التعديلات أسس الاستراتيجية الصهيونية ، أو تؤثر على روحها العدوانية التوسعية . ولعل من أبرز المفاهيم التي تعرّضت لها هذه التعديلات : الردع التقليدي ، والحدود الآمنة ، والهجوم الإجهاضي المسبق،

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة **شؤون فلسطينية** ، العدد ٣٨ ، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ ص ٢٩-٤٠ .

وتعبئة الاحتياط والاعتماد عليه ، وتجديد القيادات بصورة مستمرة . ومن المنتظر أن يخرج المنظرون العسكريون الاسرائيليون بعد هزة حرب تشرين الأول (اكتوبر) بتعديلات جديدة لا تقلّ عن التعديلات السابقة أهمية، وليس من المستبعد أن تلامس هـذه التعديلات أسس استراتيجية العدو نفسها ، وخاصة اذا استطاع المنظرون الاستراتيجيون الاسرائيليون التخلص من أفكارهم المسبقة، والتحرر من عقدهم الموروثة والمكتسبة، ونظروا الى الحقائق الجديدة نظرة موضوعية جادة تتجاوز الأوهام التي خلفتهـا حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

ولا يقتصر التعلم على جانب واحد ، ومن الطبيعي أن يتعلم العرب أيضاً دروس الحرب الرابعة ، وأن يرسموا استراتيجيتهم المستقبلية وفق المعطيات الجديدة المتحولة، وأن يخططوا للمستقبل استناداً الى تجارب الماضي، وحقائق الحاضر، وتصورات المستقبل . وهناك ولا شك هيئات عربية تقوم بمثل هذا العمل ، وما هـذه الدراسة ، في جوهرها ، سوى محاولة لتقديم ملامح الاستراتيجية السياسية – العسكرية العربية الجديدة التي تضمن مجابهة التحدي الصهيوني ، والتي لا بد وأن ترافقهـا استراتيجيتان إعلامية ، واقتصـادية (بترولية أساساً) لا تقلّان عنها أهمية وحيوية .

نظرة الى الماضي :

واجهت السلطات الحاكمة في الدول العربية المجاورة لإسرائيل منذ هدنة ١٩٤٩ وضعاً سياسياً – عسكرياً حرجاً ، فقد كانت الروح الوطنية العارمة والضغط الشعبي يفرضان عليها التخطيط والعمل لتحرير فلسطين، وكان وجود أي حاكم، واستقرار الأوضاع الداخلية في بلده، وتصنيف سمعته كحاكم وطني أم غير وطني ، مرتبطة كل الارتباط بموقفه من مسألة التحرير . والى جانب هذا الضغط الداخلي المستمر فقد كانت الدول العربية تصطدم بواقع موضوعي مبني على العناصر التالية :

١ – ان اسرائيل دولة معترَف بهـا دولياً ، ولا يمكن التعرض لحدودها

القائمة ، وخلق أمر واقع وفرضه على المجتمع الدولي ، إلا اذا أمكن اكتساب الولايات المتحدة التي كانت تقوم على العكس بإحباط أي مخطط من هذا القبيل وتحمي « الدولة – القاعدة » التي تمثل رأس الجسر لمصالحها . ولقد كان الضمان الثلاثي الأميركي – البريطاني – الفرنسي(١٩٥٠)، ووجود الأسطول الأميركي السادس على مقربة من الشواطىء العربية، والقواعد الجوية–البحرية الأميركية والبريطانية المنتشرة حول الوطن العربي وعلى أراضي عدد من البلدان العربية نفسها ، تمثل المعطيات اللازمة للتدخل بسرعة وفاعلية لحماية اسرائيل .

٢ – ان الدول العربية غير مؤهلة لمناطحة الامبريالية ، فهي أضعف من أن تفكر بذلك . كما أن بعضها مرتبط بالامبريالية بشكل عضوي ، وخاضع من ناحية التسليح ، والتدريب ، والقيادة (أحياناً) ، للدول الامبريالية التي تحمي اسرائيل . وكانت طبيعة السلطات الحاكمة تمنع الدول العربيـة من أن تتجـه شطر موسكو لموازنة ثقل الامبريالية وضغوطها ، ولم تكن موسكو نفسها لتقبل وجهة النظر العربية الرافضة للوجود الاسرائيلي . فهي تعارض كل عدوان أو توسع اسرائيلي، ولكنها ترفض أي مخطط عربي يستهدف خلق وضع راهن وراء حدود هدنة رودوس (١٩٤٩) .

٣ – بالإضافة الى كل هذه الأوضاع الدولية فقـد كانت اسرائيل قوة عسكرية ديناميكية لا يستهان بها . وكان ميزان القوى العام مائلاً لصالحها ، ويرجع السبب في ذلك الى مجموعة من العوامل المعنوية والنفسية ، بالإضـافة الى المساعدات العسكرية التسليحية والتدريبية والتنظيمية التي كانت الدول الامبريالية تقدمها لإسرائيل لتجعل منها الدولة الأقوى ، سواء كان ذلك قبل قيام مصر وسورية بكسر احتكار السلاح في العام ١٩٥٥ أم بعده .

ولقد استنتجت القوى السياسية العربية من كل هذه الأوضاع والعوامل ، أن مجابهة القاعدة الامبريالية المتقدمة والمصنعة لا يمكن أن تتم اذا مـا بقيت البلدان العربية متخلفة ومجزأة . وأن الإعداد الحقيقي للمعركة يتطلب إرساء قواعد الوحدة العربية والتنمية الاقتصادية – الاجتماعية. وأن تحقيق كل هذه

المنجزات والتغلب على مشكلات التنمية ، ونقص الخبرات الفنيـة ، وقلّة رؤوس الأموال ، والأمّية ، والفكر القطري ، وضعف القاعدة الأساسية لبنـاء مجتمع متطور عصري ، تتطلب خلق قوة دفاعية ، يتم البناء الاقتصادي – الاجتماعي – العسكري وراءها ، ريثما تتحقق الوحدة ، وتتم التنمية ، ويصبح بالإمكان الانطلاق الى التحرير .

ومن هذه المنطلقات نبعت السياسة العربية للحفاظ على « الوضع الراهن » ومنع اسرائيل من التوسع . ولتطبيق هذه السياسة تبلورت الاستراتيجية العسكرية العربية الدفاعية ، وظهرت الجبهات الدائمة الثابتة ، المؤلفة من سور طويل من المخافر الأمامية المحمية بحقول الألغام ، وخلفهـا خطوط دفاعية محصنة الى حد مـا . وكانت الجيوش العربية المكلفة بحماية هذه الجبهات تكتسب مع الأيام روح الخنادق ، وتفقد قدراتها الحركية والصدامية ، وترد على عمليات اسرائيل المحدودة « بالصد » و « الرد » الناري المدفعي أساساً ، دون أن تنتقل الى « الرد بالنار والصدمة » ، أو أن تنقل المعركة الى أرض العدو ، خوفاً من التصعيد والانتقال الى الحرب الشاملة . وكان الخط العام الذي يحكم الجبهات هو: **تهدئة الأوضاع مع «الجارة القوية» ما أمكن ، ريثما يتم اعداد الظروف المحلية والدولية الملائمة لتسخين هذه الحدود .**

ولاقى تطبيق الاستراتيجية الدفاعية نفسهـا عقبات كبيرة حرمتها من الفائدة المرجوة منهـا . فلقد استطاع الفكر القطري المسيطر حجب رؤية العلاقة الوثيقة بين الأمنين القطري والقومي ، ودفع الدول العربية الى تقديم الامن القطري على الامن القومي ، الأمر الذي أدى الى عدم خلق جهـاز دفاعي عربي فعّال ، رغم عقد الاتفاقات العسكرية الثنائية وغير الثنائية ، وخلق القيادات المشتركة . ولقد كان وراء فشل خلق الجهاز الدفاعي القومي أسباب أخرى : كعدم تماثل الهدف أو وعي الخطر بالنسبة الى جميع الدول العربية ، وضغط الامبرياليين على الحكومات العربية المرتبطة بهم ، ومخاوف حكومات الدول العربية التقليدية من مهابة الحكومات العربية الراديكالية

بين صفوف جماهير الدول التقليدية نفسها . وخاصة بعد حرب ١٩٥٦ ، وبدء المد الناصري الواسع .

وكان من أهم نتائج فشل الحكومات العربية في خلق جهاز دفاعي عربي فعّال ، إلقاء أعبـاء الدفاع عن الامة العربية ، واحتواء القوة العسكرية الاسرائيلية ومنعها من التوسع، على عاتق دول الطوق، التي اضطرت الى تقوية جيوشها على حساب التنمية ، رغم انها دول فقيرة أساساً ، على حين التفتت الدول العربيـة البعيدة عن بؤرة الصراع ، والأغنى من دول الطوق ، الى التنمية الداخلية ، أو الى توظيف رؤوس أموالها في الدول الامبريالية نفسها ، متجاهلة متطلبات بناء القوة الدفاعية العربية . وهكذا ظهرت كل ملامح « الحرب بالوكالة » ، التي تحمل دول الطوق أعباءها باسم الامة العربية كلها ، ونيابة عن الدول العربية البعيدة التي تدعمها سياسياً ومعنوياً ، وتقدم لهـا العون الاقتصادي المحدود أحياناً[1]. ولقد أدى هذا الوضع الى عدم تكريس الطاقات البشرية والاقتصادية العربية لمجابهة التحدي المصيري ، وعجز الدول العربية المعنية بالصراع عن تكريس الامكانات المـادية اللازمة لدعم تسليح جيوشهـا وقلبها الى جيوش عصرية ، وعدم قدرة هذه الدول على تجنيد طاقاتهـا البشرية الذاتية الكاملة ، وتعثر التنمية الاقتصادية – الاجتماعية في دول الطوق ، وتكريس التخلف ، الذي انعكس داخل القوات المسلحة على شكل انخفاض في المهارات التكنولوجية ، وضعف قدرة المقاتل على استيعاب الأسلحة المتطورة .

بمثل هذه الاستراتيجية ، وبمثل هذا الإعداد، دخلت دول الطوق العربية المعارك المحدودة أو الشاملة مع العدو الاسرائيلي حتى العام ١٩٦٧ . ولقد أدت الحرب الثالثة الى تبدل معطيات الموقف الاستراتيجي ، وظهور موقف جديد

---

(١) عزز العراق قوته الدفاعية رغم بعده عن بؤرة الصراع ، وعدم اعتبـاره من دول الطوق ، على حين لجأ لبنان الى سياسة الاعتماد على الضمانات الدولية رغم انه (جغرافياً) من دول الطوق .

تحتل فيه اسرائيل أراضي دول عربية ، وتخضع جزءاً من جماهير شعبها . واختفت صورة اسرائيل كدولة ضعيفة محاطة بالأعداء الذين يودون تدميرها، وظهرت بدلاً عنها صورة الدولة المعتدية المتحدية للإرادة العالمية .

وفي مرحلة الصراع السياسي الذي أعقب وقف القتال ، بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة ، سارت السياسة الخارجية الاسرائيلية على طريق لا ينسجم مع ما كانت تطرحه قبل الحرب من مقولات ، وعجزت عن تفسير التناقض القائم بين ادعاءاتها حول السلام ، ورفضها للمبادرات السلمية . وساد في العالم شعور واضح بأن الموقف الاسرائيلي يقف حجر عثرة أمام السلام في الشرق الأوسط ، بل وأمام السلام العالمي بأسره، وأن السلطات الاسرائيلية الراغبة في اقتناص الفرصة التاريخية لتحقيق حلم الصهيونية ، تلعب بالنار أمام برميل من البارود .

ومن حسن حظ العرب ، ان القيادات الاسرائيلية لم تغتنم ظروف ما بعد حرب ١٩٦٧ ، ولم تطرح ما تستطيع الحكومات العربية قبوله في ظل العجز العسكري الكامل ، ولكنها أضاعت على العكس كل الفرص الذهبية التي مرت أمامها،وأعمتها نشوة الانتصار، ودفعتها الى السعي لتكريس الاحتلال، وضم المناطق ، وإخضاع سكانها ، متجاهلة انها تحاول بذلك تطبيق الاستعمار بأكثر أشكاله بدائية ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد أن مر العالم في عصر تصفية الاستعمار ، وأن الأرض التي تحتل بعض أجزائها ليست خالية من السكان ، ولا يعيش عليها شعب صغير يمر بفترة انحطاط وتفتت ، بل تعيش عليها امة كبيرة ، تطمح الى الوحدة والتقدم ، وتملك من الامكانات الاقتصادية ما يؤهلها لتجاوز تخلفها الثقافي والتكنولوجي ، ويجعلها أمة قوية اقتصادياً ، وبالتالي عسكرياً .

ولقد استفادت الدول العربية من الموقف الاسرائيلي ، والمأزق السياسي الذي حشرت اسرائيل نفسها فيه ، وتسللت من ثغرة الغطرسة الاسرائيلية ، وشنت حملة سياسية وإعلامية واسعة ، ووقفت من جميع المبادرات السلمية

موقفاً ايجابياً ، فربحت المناورة السياسية الخارجية ، وأثبتت أمام العالم أنها راغبة في السلام ، ولكنها ترفض المنطق الاسرائيلي الذي يدعوها الى المفاوضات والمسدس مصوّب الى رأسها . وساعد الدول العربية على كسب المناورة السياسية الخارجية وعزل اسرائيل دولياً ، عدة عوامل : ١) فلقد ساعدتها الكتلة الاشتراكية ودعمت موقفها السياسي المطالب بالانسحاب الكامل . وكان وراء هذا الدعم موقف ايديولوجي مبدئي (عدم شرعية احتلال أراضي دولة اخرى، وضرورة ضمان حق تقرير المصير للشعوب)، وموقف عملي يتمثل في أن دول هذه الكتلة لم تكن تستطيع الموافقة على احتلال أراضي الغير بالقوة في الشرق الأوسط ، حتى لا تكون هذه الموافقة بادرة ضعف تشجع المعسكر الامبريالي على فرض الأمر الواقع في مناطق أخرى من العالم . وبالإضافة الى ذلك فقد كان المعسكر الاشتراكي يرى ان وقوفه الى جانب الحق العربي يفتح له المجال لتدعيم مواقعه،وتعزيز دفاعه ضد المخططات الامبريالية الرامية الى محاصرته ، ٢) وكانت اوروبا الغربية تدين الموقف الاسرائيلي ولا تقره ، رغم ضمانها لامن اسرائيل وسلامة أراضيها . وكانت ترى أن مصلحتها الاوروبية ، وحاجتها لمصادر الطاقة، تتطلب عدم استعداء العرب ، كما ان علاقاتها القديمة مع بعض أجزاء الوطن العربي ، ومرتكزاتها فيه ، وقربها منه ، تجعلها مؤهلة أكثر من الاتحاد السوفياتي ، لإشغال الفراغ السياسي – الاقتصادي الذي سينجم عن تحول العرب عن الولايات المتحدة بسبب موقفها المؤيد لاسرائيل ، ٣) ومن المؤكد ان فشل وساطة الحكماء الافريقيين، وتصرفات اسرائيل المتعالية في الدول الافريقية التي قدم الاسرائيليون اليها بعض المساعدات الاقتصادية والعسكرية، ومشاعر النقمة العارمة التي يحس بها الافريقيون المستقلون حديثاً ازاء الاستعمار الأبيض وأساليبه،وحداثة ذكريات الاحتلال الاوروبي الأليمة الكامنة في لا وعي الافريقيين ، كانت كلها وراء نجاح المناورة السياسية الخارجية العربية في افريقيا بشكل مذهل، ٤) وكانت بلدان العالم الثالث مؤيدة مسبقاً للموقف العربي، كما كانت بعض الدول الاوروبية (اسبانيا ، اليونان) تؤيد العرب لأسباب مبدئية وثقافية واقتصادية ، كما

كانت حكومات الدول الاسلامية (تركيا ، ايران ، باكستان) تحس بضغط جماهيرها المتعاطفة مع مسألة تحرير الأراضي المقدسة ، وانقاذ القدس .

ولقد كان النجاح العربي في المناورة السياسية الخارجية كاملاً تقريباً لدرجة جعلت جميع الدول الافريقية تقطع علاقاتها مع اسرائيل ، وجعلت دول العالم كلها – باستثناء الولايات المتحدة والأنظمة العنصرية في افريقيا – تقف على الحياد أو الى جانب الحق العربي ، والى جانب شرعية استعادة الأراضي المحتلة بمختلف الأساليب بما في ذلك الأسلوب العسكري . ولقد كان هذا النجاح السياسي المدخل لتبدل استراتيجي ، وشرطاً هاماً من الشروط اللازمة للانتقال في العام ١٩٧٣ من الاستراتيجية الدفاعية الى الاستراتيجية الهجومية . ومن الطبيعي ان هذا الشرط لم يكن كافياً لوحده ، وكان لا بد من إعداد القوة المسلحة القادرة على تنفيذ هذه الاستراتيجية وإحباط رد فعل العدو ، لهذا تم تدعيم القوات المسلحة المصرية والسورية وتدريبها وتعبئتها ، وتنسيق الجبهتين الشمالية والجنوبية قبل بدء العمليات الهجومية في يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر) .

استراتيجية المستقبل :

تعتبر حالة « اللاسلم واللاحرب » وضعاً ملائماً لإسرائيل . ولقد أفادت منه الى الحد الأقصى ، قبل أن تحطمه الجيوش العربية في الحرب الرابعة . ولقد بدا واضحاً خلال مباحثات فصل القوات ، أن الاسرائيليين يعملون ما في وسعهم بغية العودة الى وضع مشابه ، يخلقون فيه حقائقهم الجديدة ، ويجبرون العالم على قبولها . ويحتل«السلام» الأفضلية الثانية لدى الاسرائيليين بعد حالة « اللاسلم واللاحرب » . لأنهم يعرفون أن حصولهم على السلام يعني دفع ثمن هذا السلام من المكاسب التي حصلوا عليها في حرب ١٩٦٧ ، ولقد صرح الزعماء السياسيون والعسكريون الاسرائيليون ، ولا يزالون يصرحون ، بأنهم يفضلون الاحتفاظ بالمناطق على الوصول الى السلام . وكانت الفكرة السائدة في اسرائيل قبل الحرب الرابعة ان الحرب أيضاً لمصلحتهم ، لأنها

تؤمن لهم انتصارات جديدة ، وتوسعاً جديداً ، وتكريساً لمركزهم في الشرق الأوسط كدولة قوية قادرة على فرض شروطها على جيرانها .

وكانت حالة «اللاسلم واللاحرب» وضعاً سيئاً بالنسبة الى العرب ، وسبيلاً لتفتيتهم المعنوي وفك ارتباطهم بحلفائهم السوفيات ، كما كان أي سلم غير عادل يفرض عليهم ويضطرون الى قبوله من موقع الهزيمة أو عدم الانتصار ، وتضمنه الدول الكبرى ، وضعاً سيئاً أيضاً ، لأنه يعني اعترافهم بشرعية الوجود الاسرائيلي غير الشرعي ، وفك ارتباطهم بالقضية الفلسطينية . لذا دخلت الدول العربية الحرب الرابعة ، واعتبرتها النقيض العربي لحالة « اللاسلم واللاحرب » أو حالة «السلم الاسرائيلي» . وستكون الحرب الخامسة أيضاً النقيض العربي لهاتين الحالتين ، والسبيل الوحيد لتحطيم الجمود في الشرق الأوسط ، اذا ما حاول الاسرائيليون ممارسة اللعبة التي طبقوها طوال ست سنوات (١٩٦٧ – ١٩٧٣) .

بيد أن دراسة الحرب الرابعة أكدت بشكل قاطع أن أي صدام شامل في المنطقة سيكون محدوداً في الزمان والمكان والغرض . وأنه مهما كانت نتائجه الأولية ، فإن الدولتين الأعظمين ستتدخلان لتعديل هذه النتائج ، وستستخدمان لذلك الضغوط السياسية والعسكرية التي أثبتت فاعليتها وقدرتها العالميتين ، وبرهنت على أن الجسور الجوية الضخمة تجعل الدول العظمى « موجودة » وقادرة على التدخل السريع بقوة كبيرة في أية بقعة من العالم ، حتى لو لم يكن لها فيه وجود عسكري مسبق .

ولقد برهنت حربا ١٩٦٧ و ١٩٧٣ أيضاً ، ان حسم الصراع العربي – الاسرائيلي بضربة عسكرية خاطفة أمر متعذر في الشرق الأوسط ، في ظل موازين القوى العالمية الحالية . لأنه اذا كانت جميع العوامل البشرية والاقتصادية والحضارية تجعل من المستحيل على اسرائيل تحقيق انتصار حاسم – بالمعنى التاريخي – على العرب ، فإن دول العالم ، بما فيها الدول التي لا تؤيد عدوان اسرائيل أو توسعها ، لا يمكن أن تسمح للعرب بأن يحققوا

عليها انتصاراً سريعاً يؤثر على وجودهـا ، حتى لو امتلكت الدول العربية القوة العسكرية اللازمة لمثل هذا الانتصار . كما ان الاتحـاد السوفياتي نفسه لا يشجع على تحقيق مثل هذا الانتصار اذا كانت نتائجه ستتعدى حدود هدنة ١٩٤٩ . بيد ان تعذر تسديد ضربة حاسمة سريعة لا يعني الاحجام عن القتال ولكنه يعني الرؤية المسبقة لأبعـاد هذا القتال ، دون الاغراق في النظرة الذاتية .

ولكن اذا كانت حالة «اللاسلم واللاحرب» غير ملائمة للعرب، وإذا كانت الحرب التي تحطم هذه الحالة ستبقى محدودة في الحجم والنتائج ، وإذا كان السلام العادل أمراً لا يمكن لاسرائيل أن تقبله لأنه يتعارض مع روح الصهيونية وجوهر وجودها ، وإذا كان السلام « الممكن » حالياً ، و «المضمون دولياً» يعني انتزاع اعتراف عربي بالوجود العدواني الاسرائيلي على أرض العرب ، فما هو المخرج الاستراتيجي المفتوح أمام العرب ؟

إنه استمرار «حالة اللاسلم» ، ورفض أي شكل من أشكال تجميد القضية الفلسطينية أو فك الارتباط معها ، والحفاظ على حـالة الضغط النفسي والتوتر العسكري المحسوب والمتوازن ، وتغذية حالة العداء الكامن ، القابل للتحول الى صدام مسلح مكشوف كبير أو صغير عندما تتوفر الظروف المحلية والدولية الملائمة لذلك .

إن السلم العادل والدائم هو هدف الشعب العربي، وهدف جميع الشعوب. ولكن السلم المنتظر من مؤتمر جنيف – اذا ما تمّ انعقاد هـذا المؤتمر وتحقق نجاحه – هو السلم «الممكن» في الظروف المحلية والدولية الراهنة . ولا يمكن أن يكون هذا السلم « عادلاً » ، وبالتالي « دائماً » ، لأن جميع المعطيات السياسية والعسكرية والنفسية تؤكد مسبقاً على أن المدعوين الى الاجتماع في جنيف عاجزون عن إيجاد حل للمعادلة المستحيلة التي تؤمن إعـادة الحق الى أصحابه الشرعيين ، وبقاء اسرائيل بوضعها العنصري العدواني الحـالي . وأن أي تدبير وسط سيصلون اليـه عاجز عن حل التناقض الجذري المصيري بين

العرب والاسرائيليين ، وإيقـاف صراع مجتمعَين على أرض واحدة ، يدعي كل مجتمع منهما حقه التاريخي بالوجود عليها ، ويعتبر تخليه عنها – مع ما تمثله من معان اقتصادية وتاريخية وروحية – شطباً تاريخياً له .

إن ضخامة التناقض العربي – الاسرائيلي عامة، والفلسطيني – الاسرائيلي بصورة خاصة ، وعنف الأهواء الكامنة وراءه ، تدفعنا الى الاعتقاد بأن مـا سيتم التوصل اليه في جنيف بكل صعوبة لن يكون سوى حل مؤقت لا ينهي حالة النزاع . وأن قبول العرب بهـذا الحل عبارة عن القفز الى وَهْم السلام وتجريد حقهم التاريخي من بعض شرعيته، على حين أن رفضه بشكل مسبق، وتبني « **استراتيجية اللاسلم** » تعني على الأقل عدم السقوط في الوهم .

إن «**استراتيجية اللاسلم**» المقترحة، هي الحل الوحيد الذي يحبط أي سلم غير عادل ، ويحطم حالة اللاسلم واللاحرب . وتدخل هذه الاستراتيجية ضمن إطار استراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق القضم المعنوي طويل الأمد .

ولا تحقق هذه الاستراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق حرب العصابات بشكلها المتعارف عليه فحسب، بل أيضاً عن طريق حرب طويلة تشنها الجيوش العربية النظامية (طيران ، بحرية ، قوات مشاة ومدرعة وميكانيكية ومحمولة جواً) التي تلجأ الى تكتيكات الحرب التقليدية وروح حرب العصـابات . وتسدّد ضربات محكمة قوية ومفاجئة وسريعة ، خلال حقبـة زمنية طويلة ، على أن تحدد القوات النظامية حجم هـذه الضربات ، وتوقيتها وعمقها ومدتها بشكل يجعلها تبدو كضربات محدودة (وهي بالفعل كذلك) ولا تتطلب رد فعل أميركي قوي. فلقد علمتنا حرب تشرين الأول (اكتوبر) أن أية ضربة عسكرية واسعة النطاق ، تهدد دولة اسرائيل بالانهيار ، تؤدي بصورة آليـة الى استنفار قوى الولايات المتحـدة ، التي لا تسمح الأوضاع العربية الحالية بمواجهتها .

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن مثل هذه الضربات العصابية بقوات نظامية كبيرة (ألوية أو فرق ، أسراب جوية ، أسراب بحرية ، كتائب غواصات ،

رشقات صواريخ متوسطة وبعيدة المدى) والتي تتم عن طريق المفاجأة والكر والفر، والخدعة ستلقى تأييداً عالمياً طالما أن اسرائيل لم تنسحب من الأراضي العربية المحتلة وطالما أن الشعب الفلسطيني لم ينل حقوقه . ولكنها بالطبع ستلقى تأييداً أقل اذا تحقق هذان الشرطان وكان من شروط تحقيقها ضمان أمن اسرائيل وسلامة أراضيها . وفي هذه الحـــالة تصبح عمليات العصابات الوحيدة الممكنة ، والمبررة ، هي عمليات قوات الثورة الفلسطينية الـتي لن تجمد كفاحها المسلح .

لقد أثبتت حرب ١٩٧٣ سقوط ثلاث مقولات ظهرت بعد حرب ١٩٦٧ وهي : أن البورجوازية الصغيرة العربية غير مستعدة للحرب ، وأن دور الجيوش التقليدية قـد انتهى ، وأن حرب العصابات هي الرد الوحيد على الاحتلال الاسرائيلي . ولقد كانت هزة الهزيمة كبيرة لدرجـة دفعت معظم المنظرين العرب الى التطرف في رؤية الأمور ، وتجاهل الدور التحرري الذي تلعبه البورجوازية العربية الصغيرة ، وجيوشها التقليدية النظامية . والتعامي حتى عن موازين القوى القائمة والمستقبلية بين العسكرية الاسرائيلية وقوات الثورة الفلسطينية. ولقد كنت في فترة من الفترات من بين من سمحوا للشجرة بأن تحجب عنهم رؤية كل أبعـاد الغابة . ولكن حرب ١٩٧٣ التي هزت الكثير من القناعات والمسلّمات داخل معسكر العـدو الاسرائيلي ، هزت بدورها الكثير من القناعات السائدة داخل المعسكر العربي ، الذي شهـد باعتزاز الدور الوطني للأنظمة البورجوازية الصغيرة ، والدور القتالي للجيوش النظامية العربية ، وحقيقة موازين القوى العسكرية في المنطقـة ، والدافع القومي المتأجج الذي دفع جميع الحكومات العربيـة – راديكالية كانت أم تقليدية – الى المشاركة في الحرب بأشكال مختلفة ونسَب متفاوتة . وقـد يكون هناك تحفظات على ادارة القتال في هذا المسرح أو ذاك، أو على الطريقة التي تم فيها إيقاف القتال ، أو على حجم الدعم العسكري الذي قدّمه هـذا القطر أو ذاك ، أو على الطريقة التي استخدم بهـا سلاح النفط ، والشكل الذي وظفت بـه السياسة انتصارات الجنود العرب في سيناء والجولان ،

ولكن العمل الذي لا يمكن أن يوجه إليه أي نقد هو : **اتخاذ قرار كسر حالة «اللاحرب واللاسلم» ، واختراق خطوط وقف القتال وتدمير القوات المعادية المنتشرة عليها ، والتشبث بالأرض لصد الهجمات المضـادة الاسرائيلية ، وإطالة أمد الحرب الى أكبر مدة يسمح بها الوضع الدولي ، وإخراج قضية الصراع العربي – الاسرائيلي من حالة الركود ، وإجبار المجتمع الدولي على وضعها على رأس جدول اهتماماته .**

ولقد برهنت حرب تشرين الأول (اكتوبر) ، في جملة ما برهنته ، على أن الخسائر الاسرائيلية خلال القتال لا تحمل الأهمية نفسها: فالخسائر الاقتصادية التي تؤثر على تدفق رؤوس الأموال ، وتسبب الأزمات الاقتصادية الداخلية ، قابلة للتعويض بالمساعدات الصهيونية والأميركية ، وقـد تخلق لدى المكلف الأميركي ، على المدى الطويل ، إحساساً بالعبء الاسرائيلي ، ولكنها تبقى على المدى القريب سلبية يمكن تجاوزها. ولا تسبب خسائر اسرائيل بالمعدات والأسلحة ، رغم أهميتها ، انهيار العسكرية الاسرائيلية ، طالما أن ترسانات الولايات المتحدة مفتوحة أمامها لتعويض ما تفقده خلال القتال ، وطالما أن الجسر الجوي الأميركي قادر على نقل آلاف الأطنان من الأسلحة والذخـائر والمعدات خلال أيام. وتبقى الخسائر البشرية مكمن الضعف الأساسي في مجتمع العدو . فهي تهزه من أسسه ، وتخلق التناقض بين القيادة والقاعدة ، وتدفع الشرائح غير المتجذّرة في المجتمع الاسرائيلي الى الهجرة المضـادة ، وتحطم المعنويات داخل « الغيتو » الكبير ، وتخلق لدى الاسرائيليين انطباعاً قوياً بعدم جدوى الحرب مـع العرب ، وعدم إمكانية حسم الصراع العربي – الاسرائيلي بالقوة ، طالما أن الحروب مستمرة ومتصاعدة منذ بناء الدولة ، رغم ما حققته القوات المسلحة الاسرائيلية من انتصارات في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وتهز ثقـة الصهيونية العالمية بدولة اسرائيل ، وتفقد الامبريالية الأميركية الثقة بقدرة « الشرطي » الاسرائيلي على حماية مصالحها .

ويبقى تحديد الخط الاستراتيجي العسكري العام (اللاسلم) ، والوسيلة

المستخدمة (القضم المعنوي طويل الأمد بقوات نظامية تشن الحرب التحريرية بروح حرب العصابات مستخدمة الضربات التقليدية المرنة المحسوبة)، وملامس الضعف في مجتمع العدو (الخسائر البشرية) تحديداً نظرياً أولياً، اذا لم يرافقه تحديد الأداة اللازمة لتحقيق الاستراتيجية . ويلعب في تحديد الأداة عدة عوامل : القوى المتوفرة والكامنة ، وطبيعة مسرح العمليات ، وردود فعل العدو .

وتتمثل القوى المتوفرة والكامنة في مجمل إمكانات الشعب العربي البشرية والمادية ، وهي إمكانات لا تمكن مقارنتها مع إمكانات العدو . والشعب العربي بعمقه البشري الهائل ، وطاقاته الاقتصادية المؤهلة لنقله من حالة التخلف الاقتصادي – الاجتماعي الى حالة التطور والتقدم ، قادر على خلق قوات مسلحة نظامية وطنية كبيرة لا تستطيع اسرائيل ، مهما دعمتها الامبريالية الأميركية ، أن تخلق مثلها . ويمكن للدول العربية أن تؤمّن تسليح جيوشها بأسلحة سوفياتية وأوروبية ، وبواسطة التسليح الذاتي (الصناعة الحربية المتطورة) .

وهنا لا بد من الإشارة الى أن القوات المسلحة التي ستمارس العمليات المستمرة المحدودة ، والتي ستخلق حالة اللاسلم ، هي قوات دول الطوق . وتملك هذه الدول الطاقة البشرية اللازمة لذلك ، ولكن طاقاتها الاقتصادية، وأوضاع التنمية فيها لا تسمح لها بذلك ، نظراً لحاجتها الملحة لاقتطاع جزء كبير من دخلها القومي (المنخفض أساساً) لتسريع التنمية وخلق القاعدة الاقتصادية – الاجتماعية اللازمة لبناء قوات مسلحة حديثة . والمخرج الوحيد لهذا المأزق هو الدعم الاقتصادي العربي لدول الطوق بالمليارات . إن مصر وسورية مؤهلتان منذ الآن لاستلام هذا الدعم، وسيغدو الأردن مؤهلاً أيضاً اذا تخلص من ارتباطاته مع المعسكر الامبريالي ، وحطم الردع النفسي الذي أصاب قياداته بعد حرب ١٩٦٧ . كما أن لبنان مؤهل للحصول على الدعم ، والانتقال من دولة مساندة الى دولة مجابهة ، اذا استطاعت القوى السياسية

الفعالة فيه رؤية العلاقة الجدلية بين الأمن الوطني والأمن القومي ، وارتفع مستوى وعيها لحقيقة الخطر الصهيوني على أراضي لبنان ومياهه ، واقتنعت بهشاشة الضمانات الدولية لسيادته وسلامة أراضيه . وعادت الى تبني الخط الذي كان سائداً حتى هدنة ١٩٤٩ . وفي هذه الحالة –وفي هذه الحالة فقط– يتم إغلاق الطوق العسكري حول الدولة الصهيونية ، وسيأخذ الطوق صلابته وفاعليته الكاملتين اذا خضعت قوات دول الطوق لقيادة واحدة فعّالة تتحكم بمفاتيح القوى العسكرية الاستراتيجية والعملياتية في هذه الدول .

ولكي تنتهي حالة « الحرب بالوكالة » وتختفي آثارها المعنوية السيئة ، ويتم الحشد العربي الكامل ، فإن من الضروري أن يكون للدول العربية البعيدة عن مسارح العمليات قوات مقاتلة اختصاصية (طيران، مدرعات، صواريخ) متمركزة في دول الطوق . وقادرة على المشاركة في الضربات المستمرة ، بالإضافة الى وضع معدات وأسلحة قطعات كاملة تابعة للدول العربية البعيدة على أراضي دول الطوق، مع الحد الأدنى من العناصر الفنية اللازمة لصيانتها. وإذا كانت الوحدات الكاملة مؤهلة باستمرار للقتال المحدود ، فإن المعدات والأسلحة المخزونة تبقى مؤهلة لاستيعاب الجنود والضباط العرب الذين يتم نقلهم الى دول الطوق خلال فترة التعبئة ، أو خلال أي صدام شامل ، حتى لا يبقوا فترة طويلة في دول الطوق المضيفة ، ولا يتحملوا من جراء ذلك أعباء انسانية واجتماعية لا داعي لها .

ولكي تكون عملية نقل القطعات المسبق ، أو نقل الطواقم والأفراد عند اللزوم ، من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي ، سريعة وفعّالة ، فإن من الضروري تجاوز كافة الخلفيات السياسية القديمة التي أدت الى عرقلة بناء خطوط مواصلات تجمع الأقطار العربية المتباعدة ، والعمل على ربط الدول العربية بشبكة مواصلات برية – جوية متطورة ذات مردود عال ، ورفع مستوى كفاءة النقل البحري والنهري بين الدول العربية البعيدة ودول الطوق. فمن الغريب ان الدول العربية في شمال افريقيا لا يربطها حتى اليوم خط

حديدي سريع ، وليس بين العراق وجنوبي سورية (منطقة الحشد السورية)، أو بين السعودية والأردن خطوط مماثلة . ويتم الاتصال الجوي بين المشرق العربي والمغرب العربي عبر اوروبا ، وليس بين مصر والسودان طريق برية أو سكة حديدية أو خطوط مواصلات نهرية عالية الكفاءة . وليس في الأسلحة الجوية للدول العربيـــة البعيدة اعداد كافية من طائرات النقل العسكرية الضخمة ، أو طائرات صهريج لتموين الطائرات المقاتلة جواً .

وتفرض مسارح العمليات المكشوفة ،وخاصة في سيناء ، استخدام اسلوب خاص من حرب العصابات . فهي لا تصلح لحرب العصابات بشكلها الفيتنامي أو الكوري ، ولكنها تصلح لحرب العصابات المدرعة ، أو حرب العصابات الجوية، كما تصلح في بعض المناطق للحرب السرية الفلسطينية بمجموعات فدائية صغيرة (على غرار معركة مدينـــة الجزائر ، أو الكفاح المسلح في غزة) . ويفتح اعتماد اسرائيل على خطوط مواصلاتها البحرية مجالاً واسعاً أمام حرب العصابات البحرية .

ويأتي أخيراً رد فعل العدو . فمن المؤكد ان اسرائيل لن تتقبل عملية « القضم المعنوي » طويل الأمد بقدرية وسلبية ، فهي تعرف ان فيها مقتلها ، وستحاول الرد عليهـــا بعمليات انتقامية ، أو بهجوم إجهاضي مسبق يأخذ شكل صدام شامل . ومن هنا تأتي ضرورة التفكير بالسيف والدرع ، وإذا كان السيف النظامي وغير النظامي ضرورياً لتسديد الطعنـــات (بدلاً من وخزات الأبر) خلال **مرحلة اللاسلم** ، فإن الدرع ضروري لصد الضربات الانتقامية المعادية المحدودة ، وإحباط أي هجوم معادٍ عن طريق « الردع » بوجود القوة ، أو عن طريق « الصد والرد » ، في حـــالة انخفاض مستوى الردع الى درجة تدفع العدو الى الهجوم المكشوف .

ولا بد من أن يتألف السيف من قوات ضاربة (طيران ، مدرعات ، قوات محمولة جواً وبحراً ، مشاة ميكانيكية ،صواريخ متوسطة وبعيدة المدى، غواصات ، زوارق طوربيد ، زوارق صواريخ سطح – سطح) . أما الدرع

فلا يعني بناء التحصينات والانتشار خلفهـــا ، وحرمان القوات المسلحة من قدرتها الحركية ، ولكنه يعني بناء درع متحرك (طيران ، مدرعات ، مشاة ميكانيكية ، صواريخ ضد الدبابات) ، محمي بغطاء جوي فعال (مطاردات وصواريخ أرض – جو) قادر على الاشتباك في معركة تصادمية خلال مرحلة صد الضربة المعادية الواسعة ، وتطوير المعركة بعد ذلك وتحويلهـا الى معركة هجومية تعقبها مطاردة في عمق أرض العدو، وتدمير الحد الأقصى من قواته، والتشبث بالأرض التي يتم الاستيلاء عليها خارج الخط الأخضر ، والقيـــام بالانسحاب الاستراتيجي بعد الضرب قبل تدخل الولايات المتحـــدة اذا ما امتدت المطاردة على بعض المحاور الى ما وراء الخط الأخضر .

ان دراسة موازين القوى العسكرية الحالية ، تدل على أن قيام العرب بالحشد الملائم ، وقيـــام الدول العربية البعيدة بدعم دول الطوق عسكرياً واقتصادياً، يمكن أن يسمحا بتنفيذ هذه الاستراتيجية قبل مطلع العام ١٩٧٥، كما ان استمرار الدعم العسكري السوفياتي وإمكانية الحصول على أسلحة أوروبية يزيدان امكانية تنفيذها في النصف الثاني من السبعينات. ولا تتعارض هذه الاستراتيجية مع مباحثات السلام ، بل يمكن القول أنها جزء منهـــا ، لأن الحصول على أفضل النتائج في جنيف لا يمكن أن يتم إلا في منـــاخ **حالة اللاسلم** . والمهم في الأمر أن لا يسمح العرب للضغط الأميركي بأن يعطي للاسرائيليين في مباحثات جنيف سلاماً مضموناً وغير عادل ، وأن يحبطوا كل المناورات الامبريالية – الصهيونية ، وأن يمارسوا الضغط السياسي – الاقتصادي – العسكري حتى يحققوا سلماً مشرفاً عادلاً –الى حد ما– يضمن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، ويضمن الانساب بالطبع ، ويقزّم الدولة الاسرائيلية ويحرمهـا من امكانات التوسع والتهديد ولعب دور الدولة الكبرى في المنطقة . فإذا فشلوا في ذلك ، عادوا الى **حالة اللاسلم** بشكلها الذي تحدثنا عنه .

ان الوضع الحالي الدولي والمحلي هو أفضل الأوضاع لتنفيذ استراتيجيـــة

القضم النفسي ، فاسرائيل لا تزال تحتل جزءاً من الأراضي العربية ، ولا تزال ترفض القرار الدولي بالانسحاب، كما ترفض الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، ولا تزال المقولة السياسية العربيـــة « ازالة آثار العدوان » مقبولة عالمياً ، والضغط السياسي – الاقتصادي العربي قـــادر على تحقيق الكثير على صعيد المناورة السياسية الخارجية ، والاتحـاد السوفياتي متصلب لا يقبل بأي حل يحقق أقل من المطالب العربية ، والولايات المتحدة نفسهـا قد فقدت جزءاً كبيراً من ثقتها « بالشرطي » الذي اضطرت للتدخل بغية انقاذه عندما ساء وضعه العسكري الى حد كارثوي بعد ٣ أيام من القتـال ، ثم اضطرت الى استنفار قواتها الذرية لحمايته من ضربة سوفياتية ، وعرّضت نفسها الى التورط في صراع عالمي يعادل الانتحار الوطني ، ثم وجدت أن تبنيهـا له يكلفها مليارات الدولارات سنوياً ، ويعرض علاقاتها مع حلفائهـا الاوروبيين لتوتر شديد . وتعيش الولايات المتحدة اليوم مرحلة إعادة نظر في سياستهـا الشرق أوسطية ، وسط ضغط الصهيونية المسيطرة على الكونغرس وأجهزة الأعلام ، وضغط مؤيدي المصلحة الوطنية الأميركية الذين يرون ان هـذه المصلحة تتناقض بشكل متزايد مع المصلحة الوطنية الاسرائيلية . والوضع العسكري ملائم لتنفيذ الاستراتيجية العربية الجديدة بعد أن أثبتت الجيوش العربية في حرب تشرين الأول أنها قادرة على القيام بدور السيف والدرع ، وبعد أن فقدت القوة الجوية الضاربة المعادية جزءاً من حرية عملها بفضل الدفاع الجوي العربي المتطور (مطاردات وصواريخ أرض – جو وبطاريات مدفعية ضد الطائرات) ، وبعد أن وازن الردع الصاروخي الردع الجوي .

وهناك ملاحظتان هامتان ضروريتان لنجاح الاستراتيجية العربية الجديدة.
أولاهما : ضرورة تنسيق العمل السياسي – الاقتصادي – الإعلامي مع العمل العسكري، ومتابعة العمل المتدرج في مجال المناورة السياسية الخارجية لتدعيم العلاقات مع المعسكر الاشتراكي وبلدان العالم الثالث، وربح القارة الأوروبية، وتخليص قطاع كبير من الرأي العـام العالمي من ضباب الخداع الصهيوني ، وتحييد – إن لم نقل اكتساب – شرائح واسعة في المجتمع الأميركي بعد كشف

التناقض الجذري بين المصالح الأميركية الوطنيـة والمصالح الاسرائيلية ، وجسامة التأثيرات الاقتصادية – السياسية السلبية الـتي تنعكس على المصالح الأميركية من جراء دعم الادارة الأميركية لإسرائيل بلا حدود .

أما الملاحظة الثانية، فهي تتمثل في ضرورة الانتباه لكل مظاهر التحول السياسي العـالمي ، وعدم الاندفاع وراء الحل العسكري البحت المعزول عن الوضع السياسي العالمي، أو تجاهل تحديدات العمل العسكري حتى ولو سمحت موازين القوى المحلية بذلك ، لأن تجاهل هذه الحقيقة ، ومحاولة فرض الأمر الواقع عن طريق القوة المسلحة وحدها ، تعني استقطاب الصدام المباشر مع الولايات المتحـدة ، كما تعني خسارة المناورة السياسية الخارجية اذا تم فرض الأمر الواقع وراء حدود هدنة ١٩٤٩ دون إعداد سياسي مسبق .

ويدفعني الى هذا القول ما يردده بعض المنظرين العرب الذين ينظرون الى الصراع العربي بمعزل عن الواقع الدولي ، ويفصلون هـذا الصراع عن مجمل التوازنات والارتباطات العالمية . ويعتقدون من جراء ذلك ، ان قلب ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب، واستغلال الوضع العسكري الملائم لتسديد ضربة قاصمة سريعة الى اسرائيل ، وفرض الأمر الواقع ، هو الحل الوحيد للنزاع العربي – الاسرائيلي . والحقيقة ان رأيهم كان بعيداً عن الصحة قبل ١٩٦٧ ، ثم اتسم بصحة نسبية بعد هذه الحرب . ويرجع السبب في ذلك الى أن سياسة فرض الأمر الواقع (استراتيجية السلامي أو القضم المادي المتعاقب) سياسة تمارسها الدول الكبرى، أو دولة ثالثة تابعة لها، في منطقة حيوية جداً بالنسبة اليها، وهامشية بالنسبة الى الدول الكبرى الأخرى المناوئة . وتعتمد الدول التي تفرضها على أن الطرف الآخر سيحجم عن التدخل من أجل هدف هامشي ، لقناعته بصداقية الدولة المحتلة ، واستعدادها أو استعداد الدولة الكبرى التي تقف وراءها للصدام في هذه النقطة من العالم .

ولقد طبق هتلر هـذه السياسة قبل الحرب العالمية الثانية في السار ، والانشلوس، وتشيكوسلوفاكيا ، دون أن تتحرك بريطانيا وفرنسا ، وعندما

طبقها في بولونيا ، متجاوزاً حدود مصالح الحلفـاء ، وقعت الحرب العالمية الثانية . ولقد ازدادت أهمية تطبيق هذه السياسة بعد الحرب العالمية الثانية وبدء عصر التوازن النووي، إذ صار فرض الأمر الواقع يتم تحت مظلة ذرية، ويعني بالنسبة الى الطرف الآخر أن عليه أن يصطدم مع فارضي الأمر الواقع ذرياً في سبيل الدفاع عن هدف هامشي .

لقد استطاع الأميركيون مثلا فرض الأمر الواقع في العام ١٩٦٧، عن طريق دولة ثالثة (اسرائيل) ، كما فرضوا الأمر الواقع – الى حد ما – في قبرص بواسطة الأتراك ، دون أن يستطيع السوفيات التدخل . وفي العام ١٩٥٦ فرض السوفيات الأمر الواقع في المجر، ثم فرضوه في تشيكوسلوفاكيا في العام ١٩٦٨، وفي بنغلادش في العام ١٩٧١، دون أن يستطيع الأميركيون التدخل. وترجع سلبية الطرف الآخر في الحالات المذكورة آنفاً الى تفاوت أهمية الهدف بالنسبة الى القوتين العظميين . ولكن هناك حالات فشلت فيها سياسة فرض الأمر الواقع: كوريا (١٩٥٠–١٩٥٣)، وحرب السويس (١٩٥٦)، وحرب ١٩٧٣. فلقد وجد الأميركيون أن احتلال جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية لأراضي فيتنام الجنوبية يؤثر على وضعهم الدفاعي الذاتي في الشرق الأقصى ، فتدخلوا بقواتهم البرية والبحرية والجوية رغم احتلال الشماليين لـ ٩٥ بالمئة من أراضي الجنوب. وعندما قام الأميركيون بإنزالهم البحري في ميناء انتشون واستعادوا أراضي كوريا الجنوبية ، واحتلوا معظم أراضي كوريا الشمالية لفرض أمرهم الواقع ، تدخل السوفيات جواً ، ودفع الصينيون مئات آلاف المتطوعين لمنع الأميركيين من تحقيق ذلك . وعندما حـاول الفرنسيون والبريطانيون والاسرائيليون في العام ١٩٥٦ فرض الأمر الواقع في منطقة السويس الحساسة بالنسبة الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، أجبر العملاقان المعتدين على الانسحاب ، لعلمهم بعدم قدرة فارضي الأمر الواقـع على الصدام معهما رغم أهمية الهدف بالنسبة إليهم . وفي العـام ١٩٧٣ فرضت سورية ومصر الأمر الواقع في الجولان ومنطقة القناة . وأوشكت العسكرية الاسرائيلية على الانهيار ، ووجدت واشنطن ان هذا الوضع يؤثر على مصالحها وهيبتهـا في

المنطقة فتدخلت بارسال الأسلحة المتطورة والخبراء لمساعدة الاسرائيليين على استعادة قواهم . وفي يوم ٢٣–٢٤ استغل الاسرائيليون وقف القتال، ووسعوا جيبهم على الضفة الغربية للقنـاة ، وحاولوا فرض الأمر الواقع عن طريق احتلال مدينة السويس وتدمير الجيش المصري الثالث . واعتبر السوفيات ان تحقيق ذلك يسيء الى مصالحهم وسمعتهم وهيبة أسلحتهم في المنطقة والعالم، فهددوا بالتدخل ، واستنفر نيكسون قواته الذرية الاستراتيجية ، واعتقد كل طرف من الطرفين الكبيرين بمصداقية الطرف الآخر واستعداده للتدخل والصدام ، فاتفقا عن طريق الخط الأحمر ، على ايقاف القتال ، وإيجاد حل وسط، تمثّل في فصل القوات على جبهة القناة . وتدلنا هذه الأمثلة وعشرات الأمثلة الأخرى ان فرض الأمر الواقع ، في عالمنا المعاصر ، عملية لا تعتمد على ميزان القوى العسكرية وحدها، ولكنها تعتمد أيضاً، وبصورة أساسية، على موقف الدولتين الأعظمين المتحكمتين برسم خارطة العالم السياسية – الاقتصادية .

* * *

ان الاستراتيجية العربية الجديدة (اللاسلم) ، المعتمدة على تناسق العملين العسكري وغير العسكري ، واكتساب المنـاورة السياسية الخارجية ، وتسديد الضربات المستمرة المدروسة بقوات نظامية تقوم بادارة القتال بأساليب تقليدية وبروح حرب العصابات ، ومتابعة قوات الثورة الفلسطينية لنشاطها القتالي داخل الأرض المحتلة ، لا تستهدف قصم ظهر الدولة الاسرائيلية بعملية مادية سريعة تستثير تدخل الولايات المتحدة ، طالما ان الوضع الاجتماعي – السياسي العربي غير مستعد (مؤقتاً) لمناطحة العسكرية الأميركية بالأسلوب الفيتنامي أو الكوري ، بل تستهدف قضم الواقع المعنوي الاسرائيلي بشكل مستمر ، وتأمين تراكم التأثيرات المعنوية للضربات المادية الكبيرة والصغيرة ، الى أن تضطر العسكرية الاسرائيلية الى القيام بعمل انتحاري يصطدم بالدرع العربي ويتحطم ، أو تعجز هذه العسكرية عن إيجاد المخرج ، فيتم الانهيـار الاسرائيلي عن طريق الذبول لا عن طريق البتر ، لأن الذبول طويل الأمـد

حالة لا تستطيع الامبريالية علاجهـا مهما قدمت من دعم ، وخاصة عندما يتأكد الانسان الاسرائيلي من ان الدولة التي أرادتها الصهيونية منطقة يعيش فيها يهود العالم بأمان ، قد غدت أكثر بقاع العالم خطراً عليهم ، وتترسخ داخل اسرائيل قناعة شاملة بأن الحل العسكري العنصري على حساب الشعب العربي الفلسطيني سائر الى الفشل ، وان المخرج الوحيد لمأساة العصر ، هو الدولة الديمقراطية الشرق أوسطية ، التي يعيش فيها الجميع بسلام ، وتكون نافذة حضارية حقيقية على شاطىء المتوسط .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	١٧	في اختيارات	في اختيار
١٠	٢١	فرقة المظليين	ألوية المظليين
١٣	١٣	التسجيلية	التسليحية
١٥	٢١	قياة الجيش	قيادة الجيش
٢٣	١٥	(١٠/٩)	(١٠/٨)
٢٣	١٦	خلال الأيام الثلاثة الماضية	خلال اليومين الماضيين
٢٩	١٤	٦ – ١٩٧٤/١٠/٧	٦ – ١٩٧٣/١٠/٧
٢٩	٢٠	١٩٧٤/١٠/٧	١٩٧٣/١٠/٧
٣٠	الأخير	اللواء المدرع ١٩	اللواء المدرع ١٤
		واللواء المدرع ٦٠٠	ولواءا غابي ودان المدرعان
٤٦	٢	بتحقيقه	الى تحقيقه
٤٦	٢٠	عن عمل	من عمل
٤٧	٢	استراتيجية	استراتيجيتين
٤٩	٢	بجيع	بجميع
٤٩	١١	شؤن فلسطينية	شؤون فلسطينية
٥٠	١٣	المضاة	المضادة
٥١	٢٥	مجتمعنا	مجتمعاً
٥٣	٨	عائية	عالية
٥٣	٢٢	السادت	السادات
٦٠	٥	الاسرائيلين	الاسرائيليين
٦٢	١٠	١٧ استخدام	١٧ – استخدام
١٠١	١٦	الفنية	الغنية
١٠١	٢١	اخذها	اتخذها
١١٢	٢٠	من ايقاف	في ايقاف
١٢٤	١٧	الاسبول	الاسبوع
١٣٤	١١	صوريخها	صواريخها
١٣٥	٢٢	الارص	الارض
١٥٤	١٦	متعدة	متعددة
١٥٩	١٣	الدكتور حايم	الدكتور ناحوم
١٩٧	٢	حرب ١٩٧٦	حرب ١٩٦٧
٢٠٣	١٠	الضمات الدولية	الضمانات الدولية

فهرس المواد

كتب للمؤلف

١ - تاريخ حرب التحرير الوطنية الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢ - دروس الحرب الرابعة (في الاستراتيجية والاستراتيجية العليا) ، مركز الأبحاث الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٣ - نحو استراتيجية عربية جديدة ، بالاشتراك مع أكرم ديري .
الطبعة الأولى : دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ (نافذ) .
الطبعة الثانية : دار اليقظة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٤ - ميزان القوى العربي الاسرائيلي(١٩٧٤)، بالاشتراك مع هشام عبدالله، مركز الأبحاث الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٧٤ .

كتب صدرت عن الدار

المدخل النظري لتطبيق الماركسية في الواقع العربي
احسان مراش

الشعب الفلسطيني : اللاسامية ، الصهيونية
بقلم كتّاب يهود

مبادىء فلسفة المستقبل
لودفيغ فويرباخ

ماركس انجلس (ج ٤)
اوغست كورنو (الثمن ١٠ ل.ل.)

دراسات في العقلية العربية جزء اول الخرافة
الدكتور ابراهيم بدران والدكتورة سلوى خماش (الثمن ١٠ ل.ل.)

نكون أو لا نكون
افان روبنسكي – تقديم وترجمة كمال جنبلاط (الثمن ٣ ل.ل.)

التبادل غير المتكافىء
سمير امين (الثمن ٤ ل.ل.)

ماركس انجلس (ج ٣)
اوغست كورنو (الثمن ١٠ ل.ل.)

المصائر التاريخية للواقعية
بوريس سوتشكوف (الثمن ١٢ ل.ل.)

الماركسية والعالم الاسلامي
مكسيم رودنسون (الثمن ١٥ ل.ل.)

الاقتصاد السياسي للبترول العالمي والبلدان المتخلفة
ميشيل تانزر (الثمن ١٢ ل.ل.)

ما هي التنمية ؟
ايف بينو (الثمن ٦ ل.ل.)

فكر هيغل
روجيه غارودي (الثمن ٩ ل.ل.)

الدفاتر الفلسفية (ج ١) (ج ٢)
لينين (الثمن ٤ – ٦ ل.ل.)

النظرية الاقتصادية الماركسية (ج ٢)
ارنست ماندل (الثمن ١٦ ل.ل.)

مفاتيح لأجل العالم الثالث
غي دي بوشير (الثمن ١٠ ل.ل.)

الاتحاد السوفياتي والصين أمام الثورات في المجتمعات ما قبل الصناعية
ستيوارت شرام (الثمن ٥ ل.ل.)

المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف
الدكتورة سلوى خماش (نفد)

مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط
ز. ي. هرشلاغ (الثمن ١٠ ل.ل.)

هذا الكتاب

تعتبر حرب تشرين الاول ١٩٧٣ الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة في سلسلة الصدامات المسلحة الشاملة ضد العدو الصهيوني · وهي في الوقت نفسه اول حرب يحدد العرب زمانها ومكانها ، ويحافظون على المبادرة خلال عدد من مراحلها وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه الحرب تتميز عن الحروب التي سبقتها ، في ان العرب استخدموا خلالها ، ولاول مرة في تاريخهم الحديث ، معظم اسلحتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية ، كما استخدموا الضرب بالعمق ، والخنق الاستراتيجي البعيد ،والمفاجأة الاستراتيجية ، ومجابهة الدبابات بالمشاة ، وتحييد الطيران بالصواريخ ، والانزال وراء خطوط العدو ، وحرب العصابات الثورية على المؤخرات · ولذا فهي تحوي العديد من الدروس والعبر التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه · ولا يمكن اعتبار الكتاب تاريخا للحرب أو وصفا لاحداثها ، ولكنه بمجمله أضواء ملقاة على جوهر الحرب الرابعة ، مع التركيز على دراسة بعض مظاهرها ومعضلاتها ومنعطفاتها الرئيسية ، والسعي لقراءة المستقبل من خلال حقائق الحاضر ·

دار الحقيقة ـ بيروت
ص.ب ٨١٤٧

الثمن : [redacted] ق. ل.